هشام مطر

اختفاء

رواية

ترجمة محمد عبد النبي

مكتبة

دار الشروق

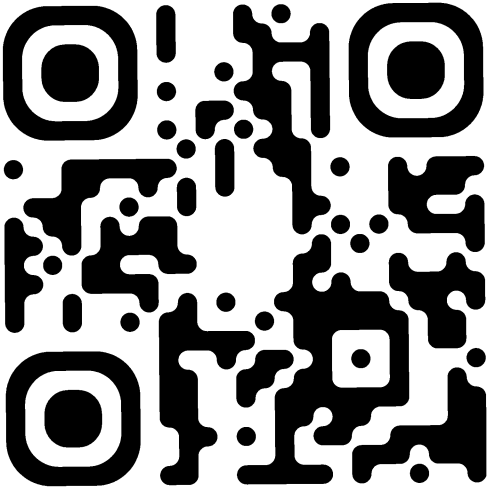

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

اختفاء

Anatomy of a Disappearance
Copyright © 2011 by Hisham Matar
All rights reserved

مكتبة
t.me/soramnqraa

اختفاء

هشام مطر

ترجمة: محمد عبد النبي

الطبعة العربية الأولى ٢٠١٢
الطبعة الثالثة ٢٠٢٣

تصنيف الكتاب: أدب / رواية
تصميم الغلاف : عمرو الكفراوي

رقم الإيداع ٢٧٧٥١/٢٠٢٣
ISBN 978-977-09-3875-1

© دار الشروق
٧ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
/Darelshorouk /dar.elshorouk

مطر، هشام
اختفاء/ هشام مطر
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٢٣
٢٦٤ ص، ١٤سم
تدمك ٩٧٨٩٧٧٠٩٣٨٧٥١
رقم الإيداع ٢٧٧٥١/ ٢٠٢٣
١- القصص العربية أ. العنوان ٨١٣

هشام مطر

مكتبة
t.me/soramnqraa

اختفاء

ترجمة: محمد عبد النبي

دار الشروق

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الأول

تمرُّ أوقات يثقل فيها غيابُ أبي عليّ كأنّ هناك طفلًا جاثمًا على صدري. وأوقات أخرى يمكنني بالكاد أن أستحضر قسمات وجهه بدقة ويكون عليّ أن أُخرج صوره التي أحتفظ بها في ظرفٍ قديم بدُرج الكُمودينو. لم يمر يومٌ واحد منذ اختفائه المفاجئ والغامض دون أن أبحث عنه، مارًّا بأبعد الأماكن عن التوقع. تحوّل كل شيء وكل شخص، والوجود نفسه، إلى حافزٍ لاستعادة الماضي، احتمال للتشابه. لعلّ هذا ما تعنيه تلك الكلمة القصيرة والمهجورة الآن تقريبًا: رثاء.

لا أرى صورته أمامي في المرآة، لكنني أشعر به بداخلي يتواءم، كمن يضبط على جسمه قميصًا ليس على مقاسه تمامًا. طالما كان أبي غامضًا ـ ذلك الغموض السري الخاص ـ حتى حين كان حاضرًا. أكادُ أتخيّل كيف سيكون الحال عند التعامل معه بوصفه ندًّا، أو صديقًا، ولو إلى حدٍّ ما.

* * *

اختفى أبي في ١٩٧٢، في بداية إجازة الكريسماس المدرسية، حين كنتُ في الرابعة عشر من العمر. كنت أنا ومُنى نقيم في فندق «مونترو بالاس»، نتناول الإفطار ـ كان أمامي كأسٌ كبيرة من عصير برتقال زاهٍ، وأمامها الشاي الأسود الساخن ـ على الشرفة المطلة على سطح بحيرة جينيف بلونها الأزرق الفولاذي، وعلى الناحية الأخرى من البحيرة، وراء التلال وانحناءات المياه، تمتد مدينة جينيف الخالية في ذلك الوقت. كنتُ أراقب الهابطين في صمت بمظلاتهم الهوائية يحومون فوق البحيرة الساكنة، ومُنى تتصفح صحيفة «لاتربيون دو جينيف»، حين رفعت يدها فجأة إلى فمها وارتجفت.

ما هي إلا دقائق معدودة وكنا على متن قطار، لا نكاد نتحدث، نتبادل الصحيفة فيما بيننا مرةً بعد أخرى.

استلمنا من قسم البوليس المتعلقات القليلة التي وُجدتْ على الكومودينو. حين فتحت الكيس البلاستيكي الصغير وجدتُ التبغ والولّاعة وشممتُ رائحته. ساعة يده نفسها تطوّق الآن معصمي، وحتى اليوم، بعد كل تلك السنوات، حين أضغط باطن الحزام الجلدي على أنفي يمكنني أن أميّز نفحةً منه.

* * *

أتساءلُ الآن: كم كانت قصتي ستختلف لو أن مُنى كانت لها يدان أقلّ جمالًا وأنامل أقل نعومة؟!

مازلتُ أسمع، بعد مُضي كل تلك السنوات، الإصرار الطفولي ذاته، «أنا مَن رآها أولًا»، الذي يثب إلى لساني كالشيطان كلما لمحتُ إحدى إيماءاته المتملكة لها: أصابعه تجوس في شعرها، يده تحطُّ على فخذها المغطى بالجيبة، وهو شارد الذهن مثل مَن يمسّ طرف أذنه في منتصف جملة. كان قد اكتسب العادات الغريبة في الإمساك بالأيدي، والتقبيل، والعناق في أماكن عامة. لكنه لم يستطع أن يخدعني؛ فقد بدا غير مطمئن لخطواته مثل ممثلٍ فاشل. وكلما ضبطني أراقبه كان يشيح ببصره بعيدًا وأُقسم إنني كنتُ أرى حُمرة الخجل على وجنتيه. ينبعثُ بداخلي الآن حنانٌ قاتم حين أفكر إلى أي حد كان يحاول جاهدًا؛ وإلى أي حد مازلتُ تواقًا إلى نوعٍ من العاطفة البسيطة مع أبي. لقد فقدتْ علاقتنا ما ظننت على الدّوام أنه أمر ممكن، وأنه سيأتي في وقته المحدد، ربما بعد أن أصبح رجلًا وبعد أن يراني أصيرُ أبًا: نوعٌ من التخفف والانطلاق العاطفي. أمّا الآن فإن المسافات التي حكمت تعاملنا معًا وشقّتْ بيننا صدعًا هادئًا، مازالت تشكّل صورته في أفكاري.

الفصل الثاني

التقينا بمُنى في «ماجدة مارينا»؛ فندق صغير على شاطئ العجمي بالإسكندرية. وعلى الرغم من قُرب البحر، لم نذهب للسباحة فيه كما أنني لم أطلب أبدًا أن أبني بيوت الرمل. أغلب النزلاء تجاهلوا البحر كذلك، وقنعوا بالبقاء في الفندق والمتع المحدودة لحمّام السباحة. هياكل الصناديق الأسمنتية للمكان ذي الطابق الواحد تحجب عنا المنظر المحيط بنا. يُمكنك أن تسمع الموج يلعق الشاطئ في خمول مثل غطيط كلب حراسة، غير أننا لا نلمح سوى مزقٍ ضيقة من الزُّرقة. كان أبي يُحضرني إلى هنا على مدى الصيفين الماضيين، منذ موت أمي المفاجئ. لم نكن نأتي إلى أماكن مثل «ماجدة مارينا» وقت أن كانت أمي معنا. لم تحب الحرارة، ولم أرها ولو مرة في ثوب سباحة أو وهي تُغلق عينيها تحت الشمس في تسليم مفاجئ. وكان حلول ربيع القاهرة يعني أن تشرع في التخطيط لإجازتنا الصيفية في حماسٍ ولهفة. اصطَفْنا ذات مرة في أعالي جبال الألب السويسرية، حيث تخشّب جسدي لدى رؤيتي الصدوع العميقة المجوّفة، وكأن الأرض الصخرية قد ألقتْ كل ما في جوفها.

أخذتنا في وقت آخر إلى نوردلاند جنوب النرويج، حيث انعكست على المياه الراكدة صورةٌ واضحة لجبالٍ سوداء قاسية، برءوسها الناتئة المدببة. أقمنا في كوخٍ خشبي ينهض وحيدًا قريبًا من الماء ومطليًّا بأحمر محروق كلون الأوراق الذابلة. يحيط بسقفه مزراب يسعُ فخذ إنسان، فأيًّا ما كان يسقط من السماء هنا فإنه يسقط بغزارة. لا يظهر في محيط البصر أيُّ بناءٍ آخر من صُنع الإنسان. كانت أمي تختفي ساعات الأصيل أحيانًا، ولا أبوح لأبي بأن خفقان قلبي حينها يضرب حتى أسفل أذنيّ. كنتُ ألزم غرفتي حتى أسمع صوت قدمين على الشُّرفة الخشبية ثم ينفتح باب المطبخ ببطء. ذات مرة وجدتها هناك وقد تلطخت يداها بلون أحمر داكن، وانطبعتْ على بلوفرها من الأمام دائرة غير مستوية الشكل. وبعينين واسعتين راضيتين، وفي صفاء الزجاج، أخرجت حفنةً من التوت البري. كان لمذاقه حلاوةٌ يانعة من الصعب أن أُرجعها لذلك المشهد المحيط بنا آنذاك.

تجمَّع الضبابُ ذات ليلة بكثافة، وكاد يمحو البقايا والأنفاس البعيدة لأضواء الشمال. على المرء أن يكون بالغًا حتى تروق له مثل تلك الرهبة. اتّقد عقلي ذو السنوات الثماني بانفعالٍ قلِق، وتكورتُ في الفراش، محاولًا أن أُخمد البكاء، وآملًا أن تُطل أمي عليّ، في واحدة من زياراتها الليلية، فتُقبلني على جبيني، وترقد إلى جواري. في الصباح عاد العالم الساكن كما كان: المياه البريئة والجبال الضارية، وتوزعت في السماء الشاحبة

ندفٌ من سحابٍ صغير جديد. وجدتُها في المطبخ، تسخّن الحليب، وبجانبها على نضد الرخام الأبيض كأس ماء. لم تكن تشرب في الصباح العصير أو القهوة أو الشاي، فقط الماء. رشفتْ منها رشفة ثم وضعتها، وبالطرف الناعم لإصبعها الصغيرة كبحت صوتها، في حرصها المألوف على السكون. أي صوت مفاجئ يضايقها، كان بوسعها أن تنجز أعمال المنزل ليومٍ كامل في صمتٍ شبه تام. جلستُ إلى المنضدة المستأجرة حيث كنا نجتمع نحن الثلاثة عند تناول الوجبات، وبين الحين والآخر تلقي أمي نظرة سريعة إلى المقعد الرابع الفارغ كما لو كان يشير لغيابٍ ما، لشيءٍ مفقود. صبت الحليب الساخن. اندفعت في الهواء نفخةٌ من بخار سرعان ما تبددت وراء عنقها.

قالت: «لماذا التكشيرة؟».

أخذتني للخارج نحو الشرفة الخشبية الممتدة فوق البحيرة. كان الهواء باردًا فسلعَ حلقي. وقفنا في سكون. تذكرتُ ما قالته لأبي في السيارة ما إن ظهرت الجبال العارية لـ«نوردلاند»: «هُنا قرر الرب أن يكون نحاتًا، وفي كل الأماكن الأخرى صرف نظره». ردد أبي قولها: «صرف نظره؟ تتحدثين عنه كما لو كان صاحبك».

في تلك الأيام لم يكن أبي مؤمنًا بالله، وكلما أتت أمي على ذكر الله ردّ عليها بتهكمٍ ينمّ عن الغيظ. وربما لم يكن لي أن

أندهش، بعد أن تُوفيت أمي، حين كان يتمتمُ أحيانًا بدعاءٍ ما؛ فالتهكم غالبًا ما يخفي انجذابًا سريًّا.

* * *

هل كانت رومانسية نار الحطب، أم أنها حشمة المعاطف الثقيلة، هي ما جذب أمي نحو الشمال والبُقع غير المأهولة من أوربا؟ أم أنه الهدوء الذي لا تَشُوبه شائبة لأسبوعين تقضيهما غالبًا بداخل الجدران وبصحبة الشخصين الوحيدين اللذين تستطيع أن تتشبث بهما؟ توصلتُ للاعتقاد بأن تلك الإجازات، أيًّا كان المكان الذي نقضيها فيه، كما لو كانت جميعها تجري في بلد واحد ـ بلدها هي – وأن فترات السكون والصمت التي تسمُ تلك الإجازات كلها لم تكن إلا حزنها الخاص، في بعض اللحظات كان يبدو فيها هذا الحزن أوليًّا وبسيطًا كالماء الصافي.

بعد أن ماتت سرعان ما اتضح أن كل ما يريد أبي أن يفعله، خلال الأسبوعين اللذَيْن يمنحهما لنفسه إجازة كل صيف، هو أن يرقد تحت الشمس طَوال النهار. وهكذا صار فندق «ماجدة مارينا» هو المكان الذي نقضي فيه أنا وهو الأربعة عشر يومًا تلك. بدا وكأنه فقدَ اتجاهه نحوي؛ حرمه الترمّل من العفوية التي عاشها ذات يوم مع طفله الوحيد. حين كنا نجلس لنتناول الطعام كان إما أن يقرأ الصحيفة أو يحدق في البعيد. وكلما لاحظ أنني أرنو إليه كان يتململ أو ينظر إلى ساعته. وما إن ينهي طعامه كان

يشعل سيجارة ويطرقع بإصبعيه طالبًا الفاتورة، دون أن يهتم برؤية ما إذا كنت قد أنهيت طعامي أنا أيضًا.

«أراك في الغرفة».

لم يفعل ذلك أبدًا وأمي على قيد الحياة.

فحين كنا نحن الثلاثة نذهب إلى مطعم، كانا يجلسان قبالتي متجاورَيْن. وإذا استغرقنا جميعًا في حديثٍ تُوجه أغلب كلامها إليّ أنا، كما لو كنتُ أنا الجدار الأمامي لملعب إسكواش. وحين يدفعه الضجر للعب دور المُسامر المسلّي، كانت هي وبطريقتها الحذرة نفسها تراقب استجابتي لمرحه المتكلف، أو رد فعلي على نوبات صمته الهائلة، إن لم يستطع احتمال المزيد. وعينا أمي مثبتتان عليّ كنت أشاهد أبي يراقب الزبائن الآخرين أو يحدق في المشهد بالخارج، والذي غالبًا ما يكون شارعًا أو ميدانًا غير مميزين بشيء، يستغرق في أحلام يقظة بلا شك أو يخطط لخطوته التالية في عمله السري الذي لم أسمعه أبدًا يتحدث عنه. في تلك اللحظات يبدو الأمر وكأنه هو الصبي المرغم على تمرير الوقت أثناء وجبته مع الكبار؛ كأنه هو الابن وأنا الأب.

بعد أن توفيتْ صرنا أنا وهو مثل أعزبين يتقاسمان السكن، مستمران معًا بحكم الظروف أو الواجب. ثمّ يبزغ بداخله فجأةً ذلك الحنان ورقّة القلب، في أبعد اللحظات عن التوقع، فيغمر وجهه في رقبتي، يتنشق بعمق ويبوس، ويدغدغني بشاربه. كان هذا يجعلنا نضحك ونضحك كما لو أن كل شيء على خير ما يرام.

الفصل الثالث

هذا صحيح؛ لقد رأيتُ مُنى قبل أن يراها.

كانت جالسة على البلاط السيراميك المحيط بحمام السباحة المستطيل بفندق «ماجدة مارينا»، تنظر لباطن قدمها. كانت تلك البلاطات مزخرفة بشكلٍ سأعرف بعد ذلك بسنوات عديدة في رحلة إلى غرناطة أنه نسخة تجارية من فسيفساء على أحد جدران قصر الحمراء. عندما رأيتُ الأصل مررتُ بإصبعي على الفسيفساء وعادت ذاكرتي إلى ذلك اليوم الصيفي البعيد من عام ١٩٧١ في الإسكندرية، حين كنت في الثانية عشر من عمري. كان شعرها مضمومًا ببساطة كذيل حصان، ترتدي ثوب سباحة بلونٍ أصفر فاقع لحدٍّ صارخ جعل بشرتها تبدو أكثر سُمرة وعمرها يبدو أصغر. وللحظة ظننتها فتاة، وللحظة ذكرني الخيط الأصفر الممتد على طول ظهرها بسوار المستشفى الأصفر الذي أحاط برسغ أمي. راح الضوء الأزرق المنبعث من المياه يتلاعب على جسد مُنى ببطء.

فيما بعد سأغيظها قائلًا:

«هذه البقعة السمراء من بشرتك عربية، أما هذه فهي لأمك الإنجليزية».

كانت تجذب كاحلها وتقوّس رقبتها، وسلسلة عمودها الفقري تضغط الشريط الأصفر لثوب السباحة على ظهرها. حين أستعيد ذلك الآن أحسد نفسي على ثقتي بينما أقترب منها، كما لو كنت أعبر الطريق لأساعد سلحفاة مقلوبة على ظهرها. لقد تسربتْ تلك الثقة الطبيعية في النفس هاربة مني منذ ذلك الحين. فبينما تمكن أبي من أن يضع عنه معطف الخجل بمرور السنين، كان معطف خجلي لا يزداد إلا ثقلًا عليّ.

جلستُ مُتربعًا على البلاط، وبدون استئذان وضعتُ قدمها المتشكية على حجري. ورحتُ أفحص كل إصبع قدم، وهي لم تقاوم. وآنذاك وجدتها، منغرسة في الباطن الناعم لإحدى أصابع قدمها، نقطة بنية لشوكةٍ تتوارى في اللحم الوردي.

قلت لها وأنا أدير قدمها بحيث أتمكن منها في زاوية أفضل: «الأسبوع الماضي، حدث معي نفس الشيء. طول النهار وأنا كالمجنون بسببها حتى لم أعد قادرًا على الاحتمال، لكني تمكنت من انتزاعها قبل أن أنام مباشرةً».

أمسكتُ بالشوكة ما بين ظفرين. جفلتْ هي غير أنني لم أتراجع. قلتُ: «هكذا ببساطة»، ورفعتُ الشوكة على طرف سبابتي لأريها لها. كان رأسانا متقاربين الآن للغاية بحيث

شعرتُ بخصلة خفيفة من شعرها تمس جانب جبهتي. قالت بلغة عربية مُفخّمة: «شُكرًا». لاحظتُ أن كتفيها انخفضتا في استرخاءٍ الآن. «ما اسمك؟». كنتُ واثقًا أن لكنتها إنجليزية. مرت بيدها على خدي، ثم أمسكت بذقني وتفرست فيّ. كان لون عينيها يتقلب بين البني والأخضر والفضي، كلها معًا في الوقت نفسه.

قلت أخيرا متراجعًا بجسدي: «نوري، نوري الألفي».

«سعيدة بالتعرف عليك يا نوري الألفي».، هكذا قالت وابتسمتْ ابتسامة لم أستطع أن أفهمها.

عدتُ إلى حيث كان أبي يتشمس. كان الآن معتمدًا بصدره العريض على مرفقيه. سألني وعيناه عليها: «من هي؟». فكرتُ أن أركض عائدًا إليها لأسألها عن اسمها، غير أنها قامت واقفة، ومرّت بإصبعٍ من كل يد تحت حافة المايوه ومطّت قماشه حول ردفيها. كان شكل زخارف السيراميك منطبعًا على باطن إحدى فخذيها برسمٍ باهت. استدارت نحونا، وتساءلتُ عما إذا كانت تنظر إليّ أم إلى أبي، أم إلى كلينا معًا. ثم ذهبتْ للجلوس إلى مائدتها حيث كانت بانتظارها كأس عصير الليمون. استلقى أبي وكان مرفقه محمرًّا من الضغط، وأغمض عينيه. وتحت شاربه المشذّب بمنتهى الدقة، اتسعت شفتاه في ابتسامة مُحكمة، عارفة، وساخرة، كما لو أنه كان راضيًا عن ذكائه بعد أن نجح

في حل لغزٍ خلال نصف الوقت المحدد. نظرتْ باتجاهنا مرة أخرى، وأشعلتْ سيجارة، ثم تظاهرتْ بالنظر في اتجاهٍ آخر. أغمضتْ عينيها في نهاية الأمر تحت الشمس. راقبتها بشغفٍ دون قيد. رغبتُ لو أرتديها كما يرتدي المرء قطعةً من الثياب، أن أنطوي بين ضلوعها، أن أكون حصاةً في فمها. رحتُ أتظاهر بالسير حول حمام السباحة لأشاهدها من جميع الزوايا. وفجأة فتحت عينيها ونظرت إليّ، دون اندهاش ودون حراك. اقتربتْ من حافة الحمّام وغمست إحدى قدميها في الماء، ثم القدم الأخرى ثم سارت مبتعدة على أطراف أصابعها. رأيت آثار بلل قدميها تتبخر. كانت كأس الليمون مازالت هناك صبورة وممتلئة، قام نادلٌ متعرق يرتدي بابيونا وصديرية برفعها عن المائدة ومضى بها. ندمت لأنني لم أسبقه إليها. سيكون رائعًا لو أنني شربت شيئًا كان مُعدًّا لها. وجدت أبي قد استدار على جنبه، وعلى ظهره علامات حمراء لها هيئة الشرائح الخشبية لمقعد الشاطئ.

* * *

لم أرها خلال بقية اليوم. وقبل أن نجلس إلى مائدتنا لتناول الغداء لاحظتُ أن أبي أيضًا يدور بناظريه في قاعة الطعام. كلما دخل أحدهم كنتُ أرفع عينيّ عن طبقي، وبما أن أبي كان موليًا ظهره مدخل القاعة فقد كان يسترق النظر

إليّ وكأن وجهي مرآة. وفي لحظةٍ ما التفتَ ليرى من الذي دخل، وشعرتُ بأنني قد ضللته.

عاد معظم النزلاء إلى غرفهم بعد الغداء هربًا من الشمس، عدا بعض الأوربيين بقوا متمددين خارج الظل بجوار حمام السباحة، كان لبشرتهم لون قشر البرتقال. ومن حينٍ لآخر كانت نسمة هواء تقلّب صفحات الكتب والمجلات على الأرض بجانبهم، لكن أجسادهم ظلت برّاقة وساكنة في الحرارة البيضاء.

أخذت كرتي إلى الممرات ذات العشب المشذب التي تلتف فيما حول الغرف. كانت كل غرفة مبنية على شكل صندوق بواجهة أمامية من أبواب زجاجية جرارة، عاكسة من الخارج للحفاظ على الخصوصية. بداخل الغرف تطن أجهزة التكييف، التي تطلق من الخارج فحيحًا وحرارة. شعرتُ بأنني مراقب من نزلاء كل غرفة، حتى رغم ظني بأنهم غالبًا غافون مثل أبي. كان يرقد في الطراوة المحاطة بالستائر، مريحًا أحد كاحليه فوق الآخر، وأوراق الصحيفة تصدر حفيفًا بين يديه، بينما ينحني قليلًا نحو غطاء الأباجورة.

كان باب إحدى الغرف مفتوحًا بمقدار إصبعين. سمعتُ صوت ماء جارٍ ينبعث من داخلها، وأغنية إنجليزية يصاحبها صوت امرأة. أزحت الباب بما يكفي لأدخل ولكنني انتظرت حتى تعتاد عيناي على الظل. لم تكن الغرفة إلا نسخة مطابقة

لغرفتنا؛ أغطية السرير نفسها، ورق الحائط والأثاث نفسه، فيما عدا أنها كانت بسريرٍ واحد كبير بحجم السريرين المنفصلين بغرفتي أنا وأبي. كان باب الحمام مواربًا هو أيضًا، وكان ثوب السباحة الأصفر معلقًا على مقبضه. أدركتُ حينئذٍ أنني كنت أبحث عنها، على أمل أن ألتقي بها بعيدًا عن نظرة أبي المحدقة. شعرتُ بإثارة محمومة لكوني في غرفتها، بداخل حجرة النوم الخاصة بهذه المرأة الغامضة التي تسافر وحدها. مَن تكون؟ كيف صادف أنها تتحدث لغتنا؟ لأن مَن يتحدثون العربية من غير العرب قليلون للغاية بحيث تكون فرصة لقاء أحدهم مثيرةً للغاية مثل اكتشاف صديق وسط جمهور مسرح واسع قبل انطفاء الأنوار بلحظات. كما أن طريقتها في الحركة، ونظرتها نحوي عبر حمام السباحة، تُعبران عن ثقتها من هدفها كأنها ليست في إجازة، كأنها لم تأت لمجرد تمضية الوقت، وهكذا اكتسبتْ في الحال تلك الفتنة الخاصة بمن يعيشون حياةً سرية، مثلها في ذلك مثل أبي.

جلست عند قدم السرير، واضعًا الكرة بجانبي. كان هناك حذاءان قبالة الفوتيه، وإحدى الفردتين مطروحة على جانبها، كاشفة عن الجلد الداخلي لها، بقالبه المضغوط كريمي اللون. على الشيفونيرة عقد من اللؤلؤ، وقارورة عطر، وفرشاة شعر. وضعتُ يدي على مقبض باب الحمام، لامسًا ثوب السباحة الرطب، نظرتُ بعينٍ واحدة من خلال الفتحة الضيقة. رأيت جسمها العاري ضبابيًّا باهتًا

من وراء ستارة الدُّش: كان مثلث شعرها الداكن يتحرك غائمًا مثل تلك البقع التي تظهر على العين بعد التحديق مباشرةً في الشمس. لم أُصدر أي صوت وكنتُ واثقًا من أنها لا تستطيع رؤيتي، ولكنها قالت فجأة: «من هُنا؟»، فركضت، غير مبالٍ بالضجة التي أثيرها الآن، ركضت إلى خارج الغرفة بأسرع ما يمكنني، دون أن أتذكر كُرتي إلا بعد أن فات أوان استعادتها.

* * *

ما إن صحا أبي من قيلولته حتى أخبرته.

«تسللتْ كرتي إلى واحدة من الغرف من غير قصد، ولم أشعر أنه من اللائق أن أذهب لأخذها».

قال وهو يَحْلِق: «وبعد؟». كان عادةً ما يحلق في أول المساء، قبل موعد العشاء، وليس في وقت الصبح مثل أغلب الرجال.

«لا أريد أن يظن أحدهم أنني كنت أتجسس عليه أو أفعل شيئًا كهذا».

قال وهو يبتسم لي عبر المرآة:

«ولكنني كنت أعرف دائمًا أنك جاسوس صغير».

وضع الشفرة على رقبته وكشط شريطًا من الرغوة بجرةٍ واحدة هادئة.

* * *

في المساء وجدتُها تقف في ثوبٍ أسود بجوار مائدتنا في قاعة الطعام، تتحدث مع أبي، وإحدى يديها تستند على ظهر المقعد المواجه له، مقعدي. كانت اللآلئ تحيط بعنقها، وقد سقط شعرها الممشط في غزارة، متموجًا للخلف في الموضع المحدد له بكل دقة؛ فوق منبت الفك تمامًا. وحين اقتربتُ التقطتُ نفحةً من عطرها.

حين صرتُ قريبًا بما يكفي لسماعه قال أبي بالإنجليزية:

«ها هو صديقك الصغير».

مدت يدها فصافحتها غير قادر على النظر مباشرةً في عينيها.

«تكلم، لا تكن خجولًا». هكذا قال أبي وسط الصمت المربك، ثم حدثها قائلا: «إنه يذهب إلى مدرسة إنجليزية».

أحضروا مقعدًا آخر وأعدوا لها مجلسًا إلى المائدة، وأكلنا معًا. لم تنطق بكلمة حول ما جرى ساعة العصر، ولكنها ابتسمت حين ذهب أبي ليستقبل اتصالًا هاتفيًّا.

«دخل فأرٌ إلى حجرتي اليوم. فأرٌ كبير جدًّا».

ومرة أخرى أمسكت بذقني، بتلك اليد الخفيفة كالريشة.

«تعال غدًا وخُذ كُرتك».

رشفت بعض الماء، ومستْ جانبَيْ شفتيها بمنديل المائدة الأبيض.

«قال والدك إنك في الثانية عشر. لا أعرف لماذا ظننتك أكبر عمرًا».

لم تعد تتحدث الآن بالعربية؛ مما أفقدها ذلك الضعف والهشاشة اللذَيْن اكتشفتهما فيها بجوار حمام السباحة. ولأن أبي هو من اختار التحدث بالإنجليزية حين اقتربتُ من المائدة، فقد اعتبرتُه مسئولًا عن تحولها هذا.

الفصل الرابع

لم أذهب لتناول الإفطار في الصباح التالي. عبرتُ المبنى الأساسي للفندق، حيث يوجد المطعم، ثم إلى مسارات النجيل التي تتعرّج حول الغرف. كان البحر هادئًا. سمعتُ حين مروري ضحكات الأوربيين وثرثرتهم المتقطعة بينما يتناولون الإفطار في قاعة الطعام. تصورتُ أبي يجلس هناك وحده، وهو يقرأ صحيفته، فشعرتُ بالذنب. وسرعان ما تحوّل هذا إلى إحساس بالحسد، لأن الصورة التالية التي رسمتها في عقلي كانت لمُنى وهي تجلس في مواجهته.

جلستُ مستندًا إلى اللحاء الشائك لنخلة، امتدّ من حولي ظِلُّ رأسها وراح يتحرك مع الريح. كنت أستطيع أن أرى غرفتها، بحيث يمكنني رؤيتها إذا ما دخلتْ أو خرجتْ. ثم أجهشتُ في البكاء مدفوعًا بألمٍ جديد ومُحيّر. لاحظ ذلك جناييني يرتدي «أوفرول» أزرق، وأسرع بالاقتراب راكضًا والحافة الواسعة لطاقيته القماش ترتفع وتنخفض. فكرتُ أن أنهض وأذهب، لكن

بكائي اشتدّ. انحنى نحوي، وقال: «معلش، معلش»، وطبطبَ على كتفي. لم يسألني بالمرة عن سبب بكائي. كثيرًا ما استعدتُ هذه اللفتة من الطيبة، أتذكر أنني ضحكتُ معه، ولكني لا أذكر سببًا لذلك. أتذكر وجهه الملوَّح، وجفنيه الثقيلين، وخديه غير الحليقين، وأسنانه المصفرّة، ورائحة الأرض الرطبة، ولكني لا أستطيع أن أتذكر ما الذي أضحكه بشدة هكذا فانتقلت إليّ عدوى الضحك.

ذهبت لأغسل وجهي في ماء البحر. وقفت هناك امرأتان بثوبَيْهما، الأغلب أنهما خادمتان، حتى بلغ الماء وسطيهما. أحاطت بهما بالونات من القماش الأسود راحت تتلألأ كلما تحركت إحداهما. عندما رأيتني صار حديثهما همسات لا يكاد يرتفع صوتهما عن صوت المويجات التي تلعق قدميّ. عندئذٍ تمنيتُ لو أن نعيمة أتت معنا. إنها خادمتنا منذ أن وُلدت، وفي تلك اللحظة شعرتُ أنها تعرفني أكثر من أي شخص آخر في العالم كله.

على الشاطئ كان هناك رجلٌ يرتدي شورتًا وقبعة بيسبول، وفي وسط صدره البرونزي باقة شعر رمادي، يركض بحيوية متريضًا، عندما أستعيده الآن يبدو لي غالبًا أنه ديبلوماسي متقاعد.

وعلى الرغم من أن الوقت كان ظهرًا، وأن كلينا عربيان، فقد صاح بتحية الصباح بالإنجليزية: «مورننج».

وخزتني الرغبة في أن أركض وراءه وأنا أصيح: «مورننج، مورننج، مورننج»، بينما أرسم على وجهي تعبيرات سخيفة. لكنني بدلًا من ذلك لعقتُ ملح البحر عن شفتي ورجعت للتجول في حدائق «ماجدة مارينا».

* * *

رغم أنني لم أر ظلًّا لها يظهر بجانبي ولم أسمعها وهي تقترب، فلم أندهش حين تسللتْ من خلفي وشبكتْ ذراعها بذراعي. كانت شفتاها باسمتين، وخداها مُشعّين بالشقاوة والعفرتة.

«كنت أبحث عنك». قالت، فأحسستُ أن العقدة التي تقفُ في حلقي قد انحلّت وتبددت.

سارت للأمام متوجهة صوب غرفتها. في حركتها كانت الريح تتحرك وتجعل ثوبها القطني الرمادي الفضفاض يلتصق للحظة ببطن ساقها، وبالاهتزاز القوي بفخذها وردفيها.

«ابق هنا»، قالت ودخلت غرفتها.

لمحتُ صورتي في الزجاج العاكس: عينين محمرتين وخدين منتفخين.

عادت وناولتني كرُتي.

«في المرة القادمة، اطرق الباب».

أومأتُ وهممتُ بالمغادرة.

فقالت ضاحكة: «لا، عد أيها الأبله»، وأوسعتْ فتحة الباب.

وقفتُ لا أعرف ما يجب عليّ فعله، ثم أشارت إلى مقعد الفوتيه. جلستُ هناك أستنشق روائحها، متذكرًا صوان ملابس أمي ورائحته الخاصة حين كنت أدخل فيه وتنغلق أبوابه. أما الآن فكل الروائح تتطاير عبر الباب المفتوح. فكرتُ أن أطلب منها أن تغلقه، ولكن اليوم كان حارًّا. نفس عقد اللؤلؤ كان ملقى على منضدة منخفضة متخذًا شكل الرقم ٨. ورحتُ أتخيلها تدخل كل ليلة بعد تناول العشاء وبدلًا من أن ترتمي غارقة في هذا المقعد الكبير تجلس على حافته فقط، متسائلة عما ستفعل بعد ذلك.

«أتحب أن تشرب عصير..»، وفتحت الثلاجة الصغيرة مطابقة لتلك التي في غرفتنا. «جوافة؟»، ووضعت الزجاجة الصغيرة أمامي دون أن تفتح سدادتها، وأحسستُ أنه من غير اللائق أن أفتحها أنا.

جلست على طرف السرير، حيث جلست بالأمس أستمع إليها تُغني تحت ماء الدُّش. لاحظت جهاز كاسيت صغيرًا على المنضدة المجاورة للسرير.

«أتحب الموسيقى؟».

لم أجبها فضغطتْ زرًّا على الجهاز وامتلأ جو الغرفة بأغنية إنجليزية سريعة وسخيفة.

مدتْ ذراعيها نحوي، ورفعتني. تظاهرت بالتطلع في الغرفة. أغمضت عينيها ورفعت ذراعيها فوق رأسها. مع كل حركة لها كان ثدياها يرتجفان ارتجافًا خفيفًا تحت القماش القطني الرمادي.

* * *

أمضيتُ مع مُنى أطول وقت ممكن. وكلما اضطررت أن أتركها لدخول الحمّام كان قلبي يخفق بسرعة إلى أن أعود. وعندما كان عليّ الذهاب للنوم ليلًا أظل ساهرًا لفرط الشوق والحماسة لرؤيتها في اليوم التالي. سبحنا في البحر، وبنينا بيوت الرمل وتقاسمنا اندهاشنا من النزلاء الآخرين الذين لا يجرؤون على الابتعاد عن حمّام السباحة. رقصنا في غرفتها على إيقاع أغنيات بوب الإنجليزية والتي اتخذت فجأة مخبأها في السراديب الخفية من عقل صباي. لم تعد عيناي مخفوضتين؛ الحقيقة أنني غالبًا ما كنت أفقد السيطرة عليهما تمامًا وأتفرس في جزء بعينه من جسدها دون رادع. ذات مرة وبينما كانت ترنو إلى البحر، رحتُ أتفحص عنقها، في موضعٍ منه ترقّ بشرتها وتشف حتى يمكن للمرء أن يرى الزرقة الفيروزية للشبكة المعقدة المنسوجة من الأوردة. وقبلتُها هنالك تمامًا، فنظرتْ إليّ. عند ذاك أشحت ببصري بعيدًا، ليس خجلًا ولكن ذعرًا.

حكت لي عن لندن؛ المدينة التي تعيش فيها، وعن أمها، وعن أبيها الراحل «منير» وما تتذكره عنه. ذكرت اسمه الأول

مجردًا من أي لقب، كما لو أنه كان صديقًا أو حبيبًا. مات ومُنى في العاشرة من عمرها. كان إسكندرانيًّا في الأصل. ولهذا السبب قررتْ أخيرًا أن تزور الإسكندرية. أُدرك الآن أن خسارتها المبكرة لأبيها هو ما جذبها إلى حدٍّ ما نحو أبي، نحو رجلٍ عربي يكبرها بخمسة عشر عامًا.

قلتُ أنا أيضًا: «منير». كأن ثمة اتفاقًا ضمنيًّا، وأكملتُ: «لا بد أن يكون هو من اختار اسمك».

«غالبًا».

حكيتُ لها عن أمي، وكيف فقدت أحد والديَّ، أنا أيضًا، في العاشرة من عمري.

نظرت إليّ وهي تومئ، وأحسست كأنها تتشكك في قصتي. وبعد أن امتد صمتٌ بدا أطول من اللازم، قالت:

«لا بد أن الأمر كان صعبًا بالنسبة لأبيك».

أرتني صورة فوتوغرافية لمنير: وجه مصري شاب ووقور بقَصّة شعر إنجليزية. ياقة بيضاء صلبة ـ منشاة، وربطة عنق رفيعة كأنها نحتتْ من الصلصال، والسترة ومن تحتها الصديري أسـودان. هذا الاعتناء الصريح بثيابه فضح قلقه وحرصه المقصود لكيلا يُستهان بشأنه. فيما بعد، حين عشتُ في لندن، كثيرًا ما كنتُ أتساءل كيف عاش هو، كمصري، في بريطانيا خلال الأربعينيات والخمسينيات. مقطب تقطيبة هينة، ووجنتاه

الغائرتان والشارب الرفيع وكأنه خطٌّ مرسوم بالقلم الرصاص، بدا ذلك كله كأنه يومئ بشيء ما عن هذه الحياة.

على عكس صورته كانت صورة أمها مأخوذة في وقت أحدث، بالألوان، يظهر فيها الوجه المستسلم بهدوء لسيدة إنجليزية في منتصف العمر: وسيمة، ذات كتفين متدليتَيْن في رقة ورقبة قوية، امرأة تعيشُ في بلدها.

كانت مُنى طفلة وحيدة هي أيضًا. وقالت إنها أحبت هذا الأمر، فقلت على الفور إنني أحبه كذلك، وللحظة صدقتُ ما قلتُه. لم أخبرها أنني طالما تمنيتُ أن يكون لي شقيق، أخ صبي تحديدًا؛ ولم أخبرها كيف كنتُ أشعر، خلال حياة أمي، أنني مثل شخصية ثانوية يتم تقاذفها ما بين البطلين الوحيدين الجديرين بكل الاعتبار، وكيف أنني بعد وفاة أمي، وبينما لا يأتي أبي على ذكرها بالمرة، اشتقتُ أن أتقاسم خسارتي، أن أتقاسم نصيبي من الحزن، مع حليفٍ لي، مع قرينٍ وند. لم أخبرها بشيءٍ من هذا، ليس لأنني لم أكن أعرف كيف أقوله أو لأنني لم أكن أثق فيها، ولكن لأنني حينذاك، عند جلوسي إلى جانبها ولفرط فتنتي بها، شعرتُ أن بي شجاعة كافية لفعل أي شيء.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الخامس

لم يكن هناك شك حينئذٍ مَن منا كان الأكثر قُربًا من مُنى، لم نكن أنا وهي نرى أبي إلا وقت تناول الطعام. كان يقضي وقته مستحمًّا بضوء الشمس، وقارئًا كتبًا سميكة: أحدها كان عن أزمة السويس، والآخر كان سيرة ملكنا الراحل، وعلى غلافه صورة لوجه الملك.

كلما كان أبي يقتني كتابًا جديدًا عن بلدنا، كان يتصفح فهرس الأعلام على الفور. سألته مرة: «عمّن تبحث في الفهرس؟»، فهز رأسه، قائلًا: «لا أحد».

لكنني فيما بعد كنتُ أنا أيضًا أبحث في فهرس الأعلام. بدا الأمر مجرد محاكاة خالصة له. ولم أُدرك ما الذي كنتُ أبحث عنه حتى صادفتُ اسم أبي: كمال باشا الألفي. كانت تلك الكتب تقول إن كمال باشا كان واحدًا من المستشارين الأكثر قربًا من الملك، وأحد القلائل الذين كان بوسعهم دخول المكتب الملكي دون موعدٍ مسبق. وكلما ساورت الملك الشاب نوبةٌ من نوبات توتره

ـ مستشعرًا ربما نهايته التي اقتربت ـ كان كمال باشا الألفي هو غالبًا من يتم الاتصال به لطمأنة مخاوفه. كما كانت تلك الكتب تصفُ أبي بأنه أرستقراطي نجح بعد الثورة في الانتقال «تدريجيًّا ولكن بفعالية جذرية» إلى صفوف اليسار. قرأت تلك الأمور عن أبي قبل أن أفهم معناها. وإذا ما توجهتُ إليه بأسئلتي، كان ينحيها جانبًا بنعومة، قائلًا:

«كل هذا فات من زمن بعيد».

ونادرًا ما ألححت في السؤال، لأنني كنت أعلم أنه وَفيّ لرغبات أمي. فقد قالت له ذات مرة: «لا تنقل أعباء الماضي إلى ابنك».

فجادلها قائلًا: «لا يمكن للإنسان أن يعيش خارج التاريخ. ليس لدينا ما نخجل منه. بل على العكس».

فصمتت هي طويلًا قبل أن تجيبه: «مَن ذكر أي شيء عن الخجل؟ إنه الحنين.. هو ما أريد إبعاده عن ابني. الحنين وعبء آمالك».

هناك كتابٌ آخر اصطحبه معه في فندق «ماجدة مارينا»، كتابٌ نادرًا ما ابتعد عنه منذ موت أمي، ديوان أنشودة المطر للشاعر بدر شاكر السياب. في ذلك الوقت كنتُ أقرأ فقرات من كتب أبي وأي مقالة صحافية أتأكدُ من قراءته لها لأنني أردت أن أتبع أي مسار اتخذه هو. وأغلب الوقت كنت أفهم ما الذي يثير اهتمامه. ولكني

مازلتُ لا أستطيع أن أفهم أمرًا ما؛ فوفقًا للصورة التي رسمتها لأبي، رجلٌ يلتزم بخططٍ لا يفصح عنها أبدًا في تركيز ذهني تام، رجلٌ لا يثق إلا بالتاريخ والأخبار ويبدو كأنه لا يولي اهتمامًا إلا لخططه بإحكامها الفعّال، لا أفهم ما الذي قد يثير اهتمام رجلٍ كهذا في قصائد السيّاب. لم أستطع أن أتخيله مثلًا في أجواء بيت شعر يقول: «كَالبَحْرِ سَرَّحَ اليَدَيْنِ فَوْقَـهُ المسَاء». تلك كانت مملكة أمي. وكثيرًا ما راودني دافعٌ مُلح أن أقول له: «فات الأوان على التظاهر بأنك تفهمها». لكنني ربما أسأتُ فهمه، ولعلّه وجدَ في أشعار السيّاب مرفأ صغيرًا له، ولعلّه فهمها بالفعل. ومع ذلك ظلّت قطعةٌ من قلبي تلومه على موتها.

فقط بعد مرور سنوات، وبعد اختفائه، حين رجعت لبيت العائلة في القاهرة، لاحظت بجانب اسم أمي، «إحسان»، والمكتوب بخط اليد على ظهر الغلاف الأمامي للديوان، كانت أمي قد كتبتْ أيضًا: «نوفمبر ١٩٥٨، باريس»؛ مدينة ميلادي، وتاريخه بالشهر والسنة.

* * *

كلما انضممتُ أنا ومُنى إلى أبي في قاعة الطعام لم يكن أبدًا يقرأ الجريدة أو يرنو نحو البعيد، بل كان يتحدث، ناظرًا إليّ أكثر مما ينظر إليها. ومع ذلك فمن الواضح أن كل ما كان يقوله اصطبغ بنيته في إثارة إعجابها. كانت تجلس بيننا على المائدة التي أُعدتْ

لشخصين. وللمرة الأولى منذ وفاة أمي رأيتُ ذلك البريق يعود لعينيْ أبي بينما يستعيد نوادره القديمة عن الزمن الذي كان فيه «موظفًا فخورًا لدى جلالة الملك». راح أبي يحكي في حيوية كيف أنه في عام ١٩٤١، وكان في الثانية عشر من عمره، التقى بالعم الأسطوري للملك: وهو جنرال قاد قوات العثمانيين في الحرب العالمية الأولى وكان يتحدث سبع لغات. صافح البطل القومي أبي بيدٍ أقرب إلى «مطحنة الأحجار»، وما هي إلا أيام معدودة ومات هذا الباشا في محاولة انقلاب، وسار أبي في مقدمة طابور الجنازة. كان التقارب الزمني بين الحدثين مبهرًا، وحينئذٍ، وبعد صمتٍ توقيته محسوب بكل دقة، كان أبي يضيف أن الباشا جعله يبكي في المناسبتين، مما يُوقظ ابتسامةً على وجه مُنى.

أدهشني سماع أبي يتحدث هكذا؛ فنادرًا ما كان يشيرُ إلى أمور السياسة.

وبعد ذلك الصمت المسموح به كل حين وآخر بين المعارف الجدد، قال أبي: «قبل أن ترجعي إلى لندن، لا بد وأن تأتي لزيارة القاهرة».

فقالت وقد توردت قليلًا: «ربما في وقتٍ آخر».

قلتُ: «لا، لا بد وأن تأتي الآن. لديّ الكثير لأريه لكِ».

«لا يمكن أن تقطعي كل تلك المسافة ولا ترين النيل والمتاحف والأهرام».

أنا وأبي كنا نشكّل جبهةً موحدة.

قالت وهي تميل برأسها جانبًا: «سأفكر».

قلت: «من غرفتي يمكنك رؤية الأهرام عن بُعد».

ولسببٍ ما جعلهما هذا يضحكان.

قالت وهي تمس يدي: «أتمنى هذا، ولكن يا حبيبي لن أستطيع تغيير تذكرتي».

فقال أبي وهو يجمع آخر حبات الأرز المتبقية على شوكته: «يمكنني الاهتمام بهذا الأمر».

وظهر في عينيها خجلٌ جديد.

قال: «سأتصل بسكرتيرتي لتعيد الحجز»، وأغلق شفتيه على الشوكة الممتلئة.

* * *

في الصباح التالي لم أجد أيًّا منهما في قاعة الطعام.

قال النادل، وهو يصب لي عصير البرتقال: «لقد تناولا إفطارهما من قبل».

خرجتُ راكضًا لأبحث عنهما. وجدتهما يسيران على الشاطئ، غير متشابكي الذراعين، لكن خطواتهما على أتم ما يكون من الانسجام. لم يبدِ أيٌّ منهما رد فعل عندما رأياني أقترب. سرتُ بجوارها لبضع خطوات، توقفت حتى ابتعدا قليلًا

ثم ركضت، وحين لم أجد مساحة بينهما، سرتُ إلى جواره هذه المرة. كان حديثهما مثل سيرهما يمضي عشوائيًّا بلا اكتراث. مارس أبي إحدى نظرياته القديمة عليها.

«كارافاجيو أكثر أهمية من مايكل آنجلو، لأنه كان يجازف أكثر».

«متى كان كارافاجيو؟ ومايكل آنجلو؟ فهمت. أمر مثير فعلًا».

غير أن هذا كان هدف أبي بالطبع: أن يثير فيها الرهبة والإعجاب. وكانت مُنى فريسةً سهلة، فلم تكن تهتم اهتمامًا حقيقيًّا بالفن.

جلسا مواجهين للبحر، ويداهما تستريحان على الرمل الجاف جنبًا إلى جنب، إصبعه الصغيرة فوق إصبعها الصغيرة. حاولتُ أن أتخيل الأصدقاء يفعلون هذا.

قال لها: «لا يمكنني أن أصدق أنك لم تزوري باريس من قبل».

«أعرف، أعرف»، قالت في استحياء، ولكن دون أن تسحب يدها.

قال: «هذه جريمة».

أطلقت ضحكة تختلف عن تلك الضحكات التي سمعتها منها قبل هذا. كانت هذه أكثر ارتفاعًا وتنطوي على الحواف القاطعة للجوع.

قلتُ: «لقد وُلدت في باريس».

قالت: «أعرف يا حبيبي»، ووضعتْ يدًا لامبالية على خدي، ثم تركتها تستريح من جديد على صدرها، وقد امتدت سبابتها لما تحت البلوزة.

قال أبي: «نوري، اذهب وأحضر لي مُفكرتي»، وحين ابتعدت لخطوات، أضاف: «والسجائر، من فضلك».

الفصل السادس

قبل ذلك بعامين كانت أمي قد تُوفيت.

أتذكر كيف اعتدتُ أن أتوسد حِجرها خلال ساعات الأصيل التي تبدو لا نهاية لها. كنت أنصت إلى إيقاع أنفاسها المنتظم، وصوت تصفح كتابها. وإذا ما غفوت كان الصوت يتحول إلى نسيم كسلان يخشخش بين أوراق شجرة، أو مقشة تمشّط الأرض. أحتفظ بذكرى لعظمة ترقوتها عند أعلى الصدر، وقد كنتُ أمد يدي نحوها كما لو أنني متسلق للصخور يمد يده نحو حافةٍ راسخة. كما أذكر شعراتها السميكة كالأوتار. كنت أمدّ إحدى شعراتها على جبهتي وعلى لساني، وأشعر بها تشتد كأنها شفرة. ولا شيء من هذا كان يصرف انتباهها عن القراءة. كنت أرقب الزهرتين الواسعتين لعينيها تمران بالسطور سريعًا، نفس العينين اللتين تشتد حدة نظرتهما كلما أمسكتُ بها تقف وراء ستارة ثقيلة حين نلعب الاستغماية أو حين أريها فراشةً مضيئة اصطدتها. ما أسرع ما تحمرّ وجنتاها عندئذٍ. كانت تتحدث بهمس دافئ قبل أن يغلبها الضحك حتى تبرز عضلات عنقها.

أنا الآن فوق الأرض، مندهشًا من نعومة جانب خدها المربع إذ أُريح جبيني عليه. أنظرُ نحو شكل أذنها. كانت شديدة القُرب مني كما لو كانت أُختًا لي.

ثم كانت هناك تلك الفجوات المفاجئة القاسية، تلك المواضع الغائرة وسط غابة حيث تقف وحدها تمامًا، دون أن تعرف كيف تعود منها. في تلك الأيام كان من المستحيل الوصول إليها، فتذوي عيناها، وتتطلع فيّ كأنها تتعرف بشخصٍ تعرفه نصف معرفة. في بعض الأحيان كنتُ أصحو ليلًا فأجدها هناك، تتفحص وجهي. وعندها كانت تفتعل ابتسامة وتغادر، تغلق الباب بهدوء وراءها، كما لو أنني شيء لا يخصها. في أحيان أخرى كانت ترقد بجانبي، رأسان يتقاسمان وسادة واحدة. وكانت يداها، بأصابعها الشاحبة الرفيعة غير الموحية بقوتها الحقيقية، كانت تصير عيدانا متجمدة من البرد، فتدسها بين ركبتيّ أو إذا كنتُ نائمًا على ظهري تُمررها على أسفل الظهر، الموضع الذي مازال يخصها.

في عامها الأخير ازدادت نوبات صمتها عمقًا وتكرارًا. في بعض الأيام لم تكن تغادر حجرتها. وعندما تنادي لا تنادي إلا خادمتها الوفية نعيمة التي تدعوها هي أيضًا ماما.

«حاضر يا ماما».

«حالًا يا ماما».

غالبًا ما كانت ترسل نعيمة إلى الصيدلية لشراء الأسبرين، والمنوم، والمسكنات.

بدت تعاسة أمي شيئًا قديمًا وعنيدًا بحيث لم أتوقف بالمرة للتساؤل حول سببها الحقيقي. لا شيء يُعد مقبولًا قدر ما نولد فنجده من حولنا.

* * *

أتذكَّر الليلة الأخيرة.

كان الوقت مساءً وقد غيرت نعيمة جلابية البيت وارتدت ثوبها الأسود ذا القماش الثقيل، وأحكمت لف طرحتها حول وجهها فأظهرت التكوين الرقيق لرأسها. وقد علقت في رسغها الشنطة المعتادة، التي تحتوي ثمرة أو اثنتين أو ثلاث على الأكثر من ثمار الفاكهة التي تظهر أشكالها المستديرة من وراء بلاستيك الشنطة. حسب تعليمات أمي، كان على نعيمة في كل ليلة أن تقترب من طبق الفاكهة الكبير الموضوع في منتصف مائدة الطعام الطويلة وتأخذ معها للبيت أية ثمار؛ جوافة أو مشمش أو تفاح، تكون قد فقدت شيئًا من طزاجتها. مانعت نعيمة وغالبًا ما كانت تحتج بأن الفاكهة مازالت طيبة. أربكتني ممانعتها هذه لأنني عرفت أن هدية أبويها لها في أعياد ميلادها كانت فقط تفاحة واحدة أو حفنة من التوت.

إنها تقف الآن هناك، عند باب غرفة أمي، صامتة ومترددة. رفعت يدها غير أنها لم تطرق الباب. همستْ قائلة: «حين تصحو، قل لها إني رجعت البيت. أشوفك بُكرة».

لا بد أنها استشعرت رغبتي في ألا تذهب، لأنها توقفت وسألتني: «هل غسلت أسنانك بالفرشاة؟».

كلما رفعت رأسي عن الحوض أراها في المرآة، تقف أمام الحمّام، شابكة يديها على وسطها كأنها تصلي. تبعتها حتى الباب ووقفت حافيا على الرخام البارد. تفقّدت صورتها المضببة في الزجاج الطويل الضيق لباب المصعد، وبحركة عصبية من يديها أخفت الشعرات النافرة داخل طرحتها. لم تشعر أبدًا بالاعتياد والطمأنينة تجاه مشوارها الطويل لبيتها. في المرات التي يسمح لها والداها بأن تمضي الليل معنا، كانت نعيمة تواصل مهامها في المنزل بحماسة متجددة، مُصرة على أن تزيل الغبار عن رفوف الكتب من جديد، وأن تمسح الحمامات مرةً أخرى، وطوال ذلك الوقت تروح تطلق نكاتًا لا تُضحك أحدًا، فكان السكوت الذي يلي تلك النكات يثير فيها الخجل الشديد.

«ادخل أنت الآن، وإلا أصبت بالبرد».

لكنني لم أتحرك حتى وصل المصعد، لأنني أعلم، بصرف النظر عن كلامها، أنها راضية عن ذلك التعلّق الحميم. دائمًا ما كان هناك شيء مراوغ ومُحير في احتياج نعيمة لتأكيدي على إخلاصي لها أكثر من مجرد الاهتمام بها، كما لو كانت تخشى أنني في يومٍ ما سوف أخذلها.

انتظرتُ مجيء أبي ولم أجرؤ على الدخول إلى حجرة أمي إلا مرة واحدة. كانت راقدة على جانبها ولم تتحرك حين لمست أذنها. ذهبت إلى حجرتي ووقفت على مقعد المكتب الخاص بي مواجهًا صورة فوتوغرافية لأمي التقطتها لنفسها مؤخرًا. كانت هي من أرسلت لوضعها في إطار وعلقتها هناك. حدقت عيناها فيّ بثبات، ولكن نصف وجهها الأسفل كان مغبشًا وباهتًا قليلًا، وكأنها كانت تبزغ تدريجيًّا من سحابة. أحببتُ هذه الصورة لأنها تقريبًا كانت بالحجم الطبيعي لوجهها.

لم أعرف عندئذٍ لماذا كانت تظهر أمي أفضل حالًا في الصور الملتقطة قبل مولدي. لا أعني أنها أصغر سنًّا وحسب، بل أكثر بهاءً في المجمل، كما لو كانت نزلت توًّا عن لعبة «دوامة الخيل»: شعرها غير مُستوٍ بعد وعيناها تترقبان المزيد من البهجة. وفي تلك الصور يمكن للمرء أن يسمع نوعًا من الموسيقى المرحة في خلفيتها. ثم تغير كل شيء بعد أن أتيتُ أنا. قبل أن أطّلع على الحقيقة، بقيتُ لفترة طويلة أظن أن العنف البدني للولادة هو ما سلبها ذلك الميل للسرور والمرح. غير أن منظورها السعيد للحياة كان يبزغ من جديد بين الحين والآخر، توقظه ذكرى قديمة، مثلما حدث حين روت لي حكاية أبي وهو ينزلق ويقع على مؤخرته في واحد من الأزقة شديدة الانحدار بالمدينة القديمة في جينيف.

كانت تقول والضحك يكاد يمنعها عن الكلام: «انطبع بياض الثلج على مؤخرته، ونادى عليّ وهو يكاد ينزلق فوق الناس المتسوقين لعيد الميلاد».

تبدل وجه أبي وأبدى تعبيرًا من الوقار يوحي بأنه شعر بشيء من الإهانة، وهو ما جعل الأمر كله أظرف. ثم قال أخيرًا: «أوشكتُ أن أكسر رقبتي ساعتها».

فقالت هي: «نعم، ولكن أباك كان دائمًا مثالًا للملّاح المستكشف العظيم». وانفجر كلاهما بالضحكات.

لا أذكر أنني تذوقت مثل هذه السعادة في أي وقتٍ آخر.

* * *

صحوتُ على صوت أبي يـردد: «يا لطيف، يا لطيف»، وسمعتُ خطواته الواسعة القلقة.

وقفتُ على عتبة غرفتي، بهر عينيّ الضوء المتوهج لنجفة الرُّدهة. كان يوجد آخرون غيره، رجلان في ثياب بيضاء، أمسكا باب الشقة مفتوحًا بينما يهرع أبي نحوهما، وأمي تتدلى من بين ذراعيه. كان شعرها الطويل المشعث يهتز مع كل خطوة يخطوها، وبدتْ إحدى قدميها المتدليتين تتأرجح أسرع من الأخرى. ركضت وراءه نازلًا الدرج. وتذكرتُ حين تحداني ذات مرة في نزول تلك السلالم، قائلًا إن بوسعه نزول الطوابق الثلاثة أسرع مما سأنزل أنا بالمصعد، وحين كان المصعد يصل للطابق الأرضي كان يفتح الباب وهو يحاول إخفاء أنفاسه اللاهثة، وعيناه تومضان بالرضا عن النفس، أما الآن حين رآني أنزل وراءه بسرعة، توقف صائحًا:

«نوري».

كانت عيناه مُحمرّتَيْن، وأمي منطرحة في سكون على ذراعيه، وجفناها صلبين كأنهما صدفتان. توقفت للحظات فلحق بي الرجلان بزيهما الأبيض. صاح أبي: «نوري»، فنظر كلا الرجلين إليّ. مازال يفزعني التعبير الذي ارتسم على وجهيهما.

رحت أصعد السلالم من جديد، متوقفًا عند كل بسطة، ناظرًا للأسفل من بئر السلم. ثم جريتُ نحو شرفتنا، متشبثًا بالدرابزين المعدني البارد فوق رأسي. رأيتُه يحملها إلى سيارة الإسعاف، كاد أحد ثدييها أن ينفلت من فتحة قميص نومها الرمادي الساتان. وحين حاول أحد الرجلين بالزي الأبيض أن يحملها، هزّ أبي رأسه رافضًا وصاح قائلًا شيئًا ما. وضعها على النقّالة وعدّل وضع جسمها ثم غطاها، وأمسك بشعرها الساقط ولفه حول قبضته كأنه حزام ثم دس كتلة الشعر تحت رقبتها. وانطلق صوت سارينة الإسعاف. عاد أبي إلى داخل البناية مسرعًا، من بين الأجسام المتصلبة لعم سمير البواب وأبنائه. كان نور الفجر قد طلع لتوه، ولا بد أنهم أيضًا انتُزعوا من نومهم فجأة. لسبب ما لم تظهر عليهم علامات الدهشة؛ كما لو أنهم قد توقعوا أن تحل مصيبة «بالأسرة العربية التي تسكن في الدور الثالث». وجعل نهر النيل يتدفق عفيًّا وغير مبالٍ، دون نسمة هواء واحدة تقريبًا تهزّ حشائش الخيزران التي تغطي ضفتيه. تدلت أوراق أشجار الموز نحو الأرض، وبدت رءوس النخلات ثقيلة كأنها من قطيفة.

سمعتُ صوت باب الشقة ينغلق بشدة.

«أين يأخذونها؟».

جلس على ركبتيه فصار وجهه قبالة وجهي.

قال: «إنها بحاجة للراحة.. في المستشفى»، ثم توقف قليلًا كما لو كان يكتمُ سُعالًا.

ـ «لماذا؟ نستطيع أن نرعاها هنا. أنا ونعيمة يمكننا أن نهتم بها. لماذا تركتهم يأخذونها؟».

ـ «ستعود قريبًا».

انبعثت منه رائحة السجائر، وروائح أشخاص آخرين. بدا كأنه لم يغمض له جفن بالمرة. تبعته حتى حجرتهما، وحين أشعل ضوء السقف انتشر فيها جوٌّ مذهلٌ من الوحشة والخواء. كان شكل بدنها مازال منطبعًا على المرتبة، بينما كان جانب أبي من الفراش بلا مساس. بدت الغرفة وكأنها مكان شهد مواجهة رهيبة، أو معركة خاسرة.

الفصل السابع

قضى أبي معظم الأيام التالية في المستشفى، وأبي الذي لم يهتم أبدًا بأمور رعايتي، صار لحوحًا في سؤال نعيمة إذا كان ابنه قد أكل أو إذا لم يكن حلّ موعد نومه بعد.

«هل استحم؟ تأكدي من أنه يغسل أسنانه بالفرشاة».

صار فجأة يتحدث عني بضمير الغائب، تحولتُ إلى سلسلة من المهام. أدركت أن أبي كان ساخطًا لاضطراره أن يتحمل تلك المسئولية المنزلية. وفي كل مرة أبكي طلبًا لأمي التي لم أنفصل عنها من قبل أبدًا. كان يبدو على الفور خائفًا ومرتبكًا.

كان ينادي: «نعيمة»، بصوتٍ أعلى من اللازم.

طلبتُ أن يأخذوني إلى المستشفى.

ـ «الأطباء يقومون بكل ما في وسعهم، ولا يمكن لأي منا أن يقدم لها أي شيء آخر».

ـ «فلماذا إذن تقضي اليوم كله هناك؟».

راقبت نظراته العصبية.

بعدها بيومين أخذنا لزيارة أمي. في إحدى إشارات المرور، اقترب صبيٌّ، لعله في مثل عمري، وإن بدا مع ذلك أصغر مني لفرط نحافته، وطرق على زجاج نافذتي. وقد التفتْ حول ذراعه عقودٌ من الفُل. كان يرتدي تي شيرت أحمر منقوشًا ذكرني بواحدٍ يشبهه كان عندي من قبل.

سألتْ نعيمة، وقد تصلبتْ خجلًا: «ممكن نشتري منه؟ الست بتحب الفل جدًّا».

مع أن نعيمة لم توجه كلامها لأبي مباشرةً، كان من الواضح أنه كان المقصود بالسؤال. غالبًا ما تكون حذرة ومتحفظة في حضوره، واعتادت أن ترسلني أنا إليه لأسأله إن كان بحاجة لفنجان قهوة أو شاي، إن كان ينتظر ضيوفًا على الغداء، وإذا كان يحتاج أي شيء آخر قبل أن تغادر.

أنزل أبي زجاج نافذته، فتدفقت إلى داخل السيارة حرارة النهار الغليظة. فأسرع الصبي إليه، اشترى أبي منه الفُل كله، وتوقفت عيناه قليلًا على تي شيرت الصبي. ناول الفُل لنعيمة ورفع زجاج النافذة، وبقيت عيناه على المرآة الخلفية للسيارة، محاولًا أن يلتقط لمحةً أخيرة من الصبي.

راحت نعيمة تخلط العناقيد على حجرها.

«كده العقود هتتشبّك ف بعضها». هكذا قلتُ لها، وسرعان ما ندمت حين وجدتها تتطلع متوترة إلى المرآة الخلفية.

سأل أبي: «مش دي الهدوم اللي خدناها دار ابن علي؟».

فنظرت نعيمة للخلف، وهي مُطمئنة الآن، راقبنا الصبي يجري من بين السيارات حتى اختفى أثره.

قالت: «صحيح يا باشا، كأنه نفس التي شيرت».

كانت دار ابن علي إحدى دور الأيتام التي اعتاد أبي زيارتها بين الحين والآخر، وكثيرًا ما كان يصحبني معه أنا ونعيمة، لتوزيع الطعام أو الثياب أو تقديم تبرعات مالية. كانت هناك كذلك دور أيتام عبد المطلب والسيدة عائشة والرضا.

قالت له نعيمة: «ماتضايقش نفسك، مهما عملت مش هيبطلوا يشتغلوا».

فقال: «لكن الولد صغيّر جدًّا». مكتبة سُر مَن قرأ

فقالت في رقةٍ بعد سكوت أطول من اللازم: «ما أنا كنت قده كده لما اشتغلت».

* * *

قبضتْ نعيمة على يدي بشدة بينما نوغلُ في متاهة الممرات المضاءة بالنيون، وقد تدلت عقود الفل في ذراعها الأُخرى بعناية. لفرط قسوة رائحة المستشفى على نعيمة، كانت بين اللحظة والأخرى تضع السحابة الصغيرة من الزهور البيضاء أمام أنفها. جذبت ذراعها، فسمحت لي أن أفعل كما تفعل.

كان أبي يتقدمنا بأمتار، وأضواء النيون تخطط كعبي حذاءيه مع كل خطوةٍ يخطوها.

وجدنا أمي ترقد تحت مصباح أزرق بارد. أغطية الفراش مطوية تحت ذراعيها، وحول أحد رسغيها سوار بلاستيكي أصفر، وصوت أزيز يضرب الصمت التام.

وضعت نعيمة الفُل عند طرف الفراش وغطت وجهها.

«ألم أُحذرك؟!»، قالها أبي، ثم جرها إلى خارج الغرفة.

بقيتُ بمفردي مع أمي. أردتُ أن أسحب الوسائد المسطحة لأسويها وأنفشها لها. صار لون جلدها رماديًّا، وقد أغمضت عينيها بحسمٍ مروّع، وقد امتد بللٌ ما بين جفنيهما. فكرتُ أن ألمسها ولكنّ استحالة هذا أخافتني. خطرت في بالي ذكرى بعيدة، حين كنتُ في سن الرابعة أو الخامسة. كانت تستعد للذهاب إلى حفل. كنتُ رابضًا تحت الشوفونيرة، جنب قدميها: كعبان أسودان عاليان، وجوارب بلونٍ يجعل بشرتها وكأنها مرشوشة بالبودرة. تردد خيطُ ضوءٍ رفيع حيث يلتقي الجلد الأسود للحذاء والجوارب. وهم بصري، لكنني تتبعته ورحت أمحو ضوء النيون وأعيد رسمه بإصبعي. ثم تحركتْ، فتطلعتُ نحوها، معتقدًا أنني دغدغتها بإصبعي، لكنها كانت فقط تقترب من المرآة حتى تنعم النظر في دقة رسم طلاء شفتيها.

كان أبي على حق: لا يُمكن لنا أن نُقدم لها شيئًا.

* * *

بعد ذلك بأيام قليلة عاد أبي للبيت من المستشفى في وقتٍ أبكر من المعتاد. توجه إلى غرفته مباشرةً، وقفتُ أمام الباب لدقيقة أو اثنتين قبل أن أطرقه.

قال: «ليس الآن يا نوري»، كان صوته متهدجًا.

دقائق معدودة ثم سمعتُ صوت جريان الماء في حمّامه. تذكرت ما كانت أمي تقوله له كلما وجدت مزاجه معتلًّا: «خذ حمّامًا باردًا. هكذا كان يفعل الرسول، عليه الصلاة والسلام، كلما تلقى أنباءً سيئة». وتذكرتُ أيضاً كيف كان أبي يهز رأسه رافضًا، ولكن ذلك حين لم يكن بحاجةٍ إلى الله.

عندما خرج من الحمّام استدعى نعيمة.

«ادخلي واقفلي الباب وراءك. أين نوري؟».

«أستاذ نوري في أوضته»، هكذا قالت رغم أنها تراني أقف خارج الغرفة وتمرر أصابعها خلال شعري وهي ترسم ابتسامة قبل أن تدخل.

بدأ يتحدث هامسًا، ثوانٍ معدودة وسمعتها تطلق صرخة مبتورة. هل وضع يده على فمها؟

ظلت أصابع نعيمة ترتعش خلال بقية اليوم.

امتلأت عيناها بالدموع حين سألتها: «إنتِ بخير؟ إنتِ مريضة؟ أصب لك كوكاكولا؟».

كل ساعة أو نحوها كانت تأتي لتسأل: «لسه بابا ماتكلمش معاك؟».

بقي أبي في غرفته، يتحدث في الهاتف. وعند الغروب دعاني إليه.

«اجلس. هات يدك»، وبعد لحظات قليلة نطق باسمي، ثم عبارة: «ماما لن تعود إلى البيت».

وبعد وقفة أخرى تابع الحديث.

«لن تعود أبدًا».

سحبتُ يدي. لم أصدقه. ألححت أن يأخذني إلى المستشفى.

«لم تعد هناك».

أمسك بي، وحملني إلى غرفتي وأغلق الباب علينا. وفي الخارج راحت نعيمة تبكي، متوسلة أن يسمح لها بالدخول. فتح أبي الباب وفي نوبة حنان مذهلة ضمها إلى صدره وقبَّل رأسها. وضمني أنا أيضًا إليه، وراح يغمغم قائلًا إنه من الآن لن تعود الحياة كما كانت فيما سبق، وإن الله قطع شجرته الوحيدة وملجأه الوحيد. تطلعتُ لعينيه مفتشًا عن دموع ولكنني لم أجد شيئًا منها في كلتا العينين، وما كان هذا ليدهشني؛ ذلك أنني لم أر أبي باكيًا مطلقًا.

الفصل الثامن

في اليوم التالي وصل إلى البيت خمسة وسبعون مقعدًا خشبيًّا، من ذلك النوع الأكثر انتشارًا في المقاهي المصرية، بصورةٍ لرأس نفرتيتي مطبوعة على ظهرها. أحضر عمّ سمير البوّاب، وأبناؤه الصامتون، مكبرَيْ صوت عملاقين. خلعوا شباشبهم على عتبة الباب، وتأرجحت أجسامهم المتصلبة تحت الثقل، ثم وضعوهما في منتصف الصالة، وكان المكبران أطول من أبي. الزاوية التي واجه بها المكبران أحدهما الآخر أوحتا بحالة من الشجار. ثم حمل البوّاب وأبناؤه كل قطع الأثاث الموجودة في الصالة وأخذوها إلى غرفة السُّفرة. وُضعت كراسي الفوتيه مقلوبة فوق السُّفرة، وقد رُصت وسائد الكراسي تحت السفرة. شاهدتُ قدميْ عم سمير الداكنتين الجافتين وهما تغوصان في السجاد، وكل ظفر من أظافر أصابع قدميه يتقوّس منغرسًا في الصوف السميك، وكل عُقدة فيهما متوّجة بكتلٍ جلدية صغيرة رمادية اللون، وكل كعب كأنه طرف شومة سميكٍ. تساءلت، متى ستصير أقدام أبنائه مثل قدميه. وحين لاحظ عم سمير متابعتي

له، وضع يدًا ثقيلة على رأسي، وبعد لحظة تردد، انحنى عليّ وقبّل جبيني. نظر نحو أبي، وارتأى أبي أن يمنح عم سمير القبول الذي يطلبه، فقال له: «شكرًا». تبع أبناء عم سمير أباهم إلى خارج الشقة برءوس محنية.

بدرجة متساوية تقريبًا استسلمتُ أنا وأبي ونعيمة لإحساس بالحزن وضرورة التحرك السريع. رحنا نرتب المقاعد معًا، وعند نقطةٍ ما سأل أبي نعيمة عن رأيها:

«أين سنضع مكبّري الصوت؟».

قالتْ وهي محرجة: «عند مدخل الشقة»، وحين ترددَ أعادت رأيها في إصرار. «بس الناس كلها بتعمل كده يا باشا».

فقال: «يمكن في حارتكم».

مسّ طيفُ ابتسامة وجهيهما.

«عشان الناس تسمع وتيجي تعمل الواجب، مش هي دي الأصول؟».

قال لها: «خلاص، ارفعي»، ثم حملا مكبري الصوت معًا إلى الموضع الذي اقترحته هي، حيث وضعا كل واحدٍ منهما على جانبٍ من جانبي المدخل.

نظمنا الخمسة والسبعين مقعدًا على طول الجدران في صمت متآمر. حين انتهينا منها وقفنا في منتصف الغرفة، وتمنيتُ أن يكون هناك شيء آخر لنقوم به، ولكن عندئذٍ اختفى أبي بداخل غرفته وعادت نعيمة إلى المطبخ.

تُرك باب الشقة مفتوحًا، وأخذتْ صالة الاستقبال تشبه غرفة انتظار. لم أدر أين أذهب فجلستُ على أحد المقاعد المستأجرة. وأخذت أحصيها بعد أن انتصبت الآن في سلسلة. أول مرة كان العدد أربعة وسبعين، وفي المحاولة الثانية صار سبعة وسبعين. فقط في المرة الرابعة أو الخامسة توصلت لعدد خمسة وسبعين. ثم رأيت جارنا في نفس الطابق من العمارة يخرج من المصعد. راح ينظر مترددًا. لم نكن أدرنا شرائط القرآن بعد؛ لذا كان يمكنه الظن بأننا نستعد لحفل. ولكن لا بد أن شيئًا ما فيّ قد أوحى له بالخبر المؤسف. ذهبتُ إلى نعيمة في المطبخ، فتقدم داخلًا خلفي.

ـ «أهلًا يا أستاذ مدحت».

ـ «ماذا جرى؟».

ـ «المدام.. تعيش أنت».

قالت له نعيمة، وما إن نطقت حتى ظهرت الدموع في عينيها.

عندها حدّق أستاذ مدحت فيّ بعينين أوسع من فناجين القهوة. تحركتُ لأقف وراء نعيمة.

ما هي إلا دقائق حتى عاد من جديد ومعه أسرته كلها. خرج أبي لهم مرتديًا جلبابًا أبيض. لم يكن يرتدي جلبابه إلا عند النوم؛ لذا فقد بدا وكأنه يتجول خارجًا من حُلم. جلس بجانب جارنا، دون أن ينطق بشيء تقريبًا، وقد غطت الشعيرات القصيرة خديه.

قدّمت لهم نعيمة القهوة التركي السادة وطلبتْ مني أن أمر عليهم بطبق لوز.

لوّح أبي نحوي لأقترب.

همس لي: «القرآن، شغّل القرآن».

* * *

بحلول الأصيل توافد المزيد من الجيران، ناس لا نكاد نعرفهم، وعند أول المساء امتلأ المكان عن آخره بالمعزين الصامتين. لم يسبق لي أن رأيتُ بيتنا مزدحمًا هكذا ومع هذا هادئًا للغاية. انضم إلى نعيمة جيشٌ من الخادمات، وقد أعارتهن لنا الجارات، فراحت تديرهن بشعورٍ جديد بالسُّلطة.

أخذتُ المصعد نحو السطوح لأهرب. كانت المدينة تتمدد في جميع الاتجاهات، ويصدر عنها همهمة وخشخشة كأنها موتور يهدرُ في الليل. تتلوى الشوارع وتتقاطع في عقد هنا وهناك. ولا حتى النيل بقادر على تلطيف المشهد. تمنيت لو استطعتُ أن أمحوه، أن أمسحه تمامًا. لم أشعر أبدًا من قبل ولا من بعد بمثل ذلك الميل الجامح نحو العنف. وحينها استشعرتُ حضور أحدهم ورائي. إنها نعيمة، بعد أن لاحظت غيابي، رغم واجباتها التي لا حصر لها.

* * *

في الصباح جاء من بلادنا أشقاء أمي الثلاثة، خالتي سعاد وخالتي سلوى وخالي فاضل. لم يسبق لي أن التقيتُهم ولكني تعرفت عليهم من الصور الفوتوغرافية. ظلتْ خالتاي تبديان إعجابهما بمدى شجاعتي، ورموشي الطويلة بشكلٍ عجيب، ويسخران من لهجتي القاهرية، ومن بشرتي السمراء. قالتا بما أنني أكثر سُمرة من أبي وأمي فإنني أشبه جدي لأبي، والذي كان في نفس درجة سُمرتي بكل المقاييس. راحتا تدغدغان قدميّ وحين أضحك تحتضناني، وتدفعان وجهيهما في عنقي وتستنشقان عميقًا قبل أن تُقبلاني. في الليل كانتا تتناوبان الرقاد إلى جواري، وحكي الحواديت لي في الظلام. حواديت غالبًا ما يكون فيها شلالات مياه أو شجرات رمان أو نخلات بلادنا. إذا قمتُ في الليل لأشرب، كنتُ أجد إحداهما ورائي تسألني إن كنتُ بخير.

دلّلوني باسم تحبّب هو أبو النور، ينادوني به كلما رأوني شاردًا صامتًا. كل شيء يثير قلقهم عليّ: الصمت، العزلة، طلوع السطح، أخفّ الإشارات على التفكّر. إذا تأخرتُ في الحمام أطول قليلًا من المعتاد أسمعُ صوت إحدى خالتيّ تهمس: «أبو النور، حبيبي، إنت بخير؟».

ترك أبي لحيته تنمو. وأدهشني كم تخللها الشيب؛ كان في التاسعة والثلاثين من عمره فقط وشعر رأسه أسود بالكامل.

ذات مرة، عانقه خالي فاضل، متحدثًا إليه بمهابة في شيءٍ من الإلحاح. بدأ أبي أخيرًا يومئ بطريقة مذعنة، وقد ظلّت عيناه مثبتتين في الأرض.

في وقتٍ آخر كان باب غرفة نومه مواربًا، ورأيته محاصرًا بين خالتيّ.

كانت خالتي سلوى تقول: «إنه منطوٍ بدرجة غير معتادة بالنسبة للأولاد في سنه».

وأضافت خالتي سعاد: «اسمح لنا أن نأخذه معنا. سيكبر بين أبناء أخواله وخالاته».

قالت خالتي سلوى: «سوف نرعاه كما نرعى أبناءنا».

«هكذا، حين تعود البلاد إلينا، يمكنه أن يلعب فيها دورًا».

تحدث أبي بعد صمت طويل.

«لا أستطيع أن أفعل هذا بنعيمة. لن تسامحني أبدًا».

الفصل التاسع

قبل فترةٍ طويلة، حين أصيبتْ نعيمة بالبلهارسيا، أخذني أبي لزيارتها تحت إلحاح أمي. أخذنا ساعة تقريبًا بالسيارة للوصول إلى متاهة الحواري الضيقة في حيها. لكن سائقنا؛ عبده، حرص على أن يخبر أبي بأن الرحلة إلى هناك بالمواصلات العامة ستأخذ ساعة ونصفًا على الأقل.

«تلات ساعات رايح جاي يا باشا».

لم يُبدِ أبي رد فعل.

في كل مرة كان عبده يخفض زجاج نافذته ليسأل عن الاتجاهات، كان الشخص العابر ينحني نحو النافذة ليُمعن النظر إلى وجوهنا جميعًا. عثرنا على شارعها في النهاية، كان في غاية الضيق بحيث بالكاد اتسع لمرور السيارة.

«انتبه»، يقول أبي هامسًا تقريبًا وهو يمسك بمقبض الباب فوق نافذته.

«ماتقلقش يا باشا»، يرد عبده، هامسًا هو أيضًا.

في منتصف الطريق تتلوى مجارٍ طافحة، وتمر بانتظام بين العجلات. طلب أبي من عبده أن يرفع زجاج نافذته، ولكن عندها كانت الرائحة النتنة قد دخلت السيارة. من فوقنا ارتخت حبال الغسيل تحت ثقل ما تحمله وحجبت وجه السماء إلا قليلًا. بين الحين والآخر كان عبده يضغط بوق السيارة، فبدا كأنه صوت انفجار في الحارة الضيقة. واضطر الناس عندئذٍ للعثور على مدخل أحد البيوت للوقوف به، وحتى بعدها كنا نتقدم ببطء شديد من بين زحام الأجساد. شاهدتُ إبزيم حزام أحدهم، أو قطعة من قماش، وبين لحظة وأخرى وجه طفل. هؤلاء الذين اصطفوا على جانبي الطريق وقفوا ساكنين وقد تدلت أذرعهم بجانبهم. كنت متأكدًا أنهم يستطيعون من زاوية نظرهم رؤية ركبتيّ العاريتين فوق جلد كسوة المقاعد بلونه البيج.

كانت نعيمة ووالداها وأشقاؤها السبعة يعيشون جميعًا في شقة من غرفتيْ نوم في مبنى عند زاوية ذلك الشارع. كان جانب المبنى ذي الطوابق الأربعة مغطى بطلاء أحمر باهت رسمتْ عليه كلمة «كوكا كولا» متكررة مرةً بعد أخرى. انتظرنا عبده في السيارة. سبقنا الأطفال صاعدين السلم، وهم يصيحون معلنين وصولنا، وبين وقت وآخر يتوقفون متضاحكين ولاكزين بعضهم بعضًا بالمرافق، قبل أن يعاودوا ركضهم صاعدين. على كل بسطة سلم وُضعت أكياس بلاستيكية صغيرة منتفخة

بالقمامة، وأغلبها مثقوب وممزق، ومن حولها راحت ذبابات بأحجام النحل تتطاير في خمول.

«لا تلمس شيئًا»، قال أبي، وعلى الفور رفعت يدي عن درابزين السلم، ووضعتها في راحته المبسوطة، ولم يُفلت هو يدي حتى صرنا أمام باب الشقة.

استقبلنا والد نعيمة على البسطة مرتديًا زيه الرسمي كحارس في أحد المتاحف. بدا متوترًا. بكت الأم حين رأت أبي، فأمرها زوجها أن تذهب وتعمل الشاي. الصالة خالية من قطع الأثاث تقريبًا، سجادة واحدة صغيرة كأنها سجادة صلاة، ملقاة هناك في منتصف الأرضية المبلطة كأنما لتخفي تحتها عيبًا ما أو طريقًا سريًّا. كانت نعيمة راقدة على مرتبة في الركن، فجلستُ بجانبها. أمسكت بيدي، فاحترق جلدي في قبضتها. لم تبتسم ولم تبكِ، لكنها راحت تتفرس فيّ بنظرة حنانٍ فريد، كأنني غذاء لها من نوعٍ ما.

قال أبوها: «ولا حاجة يا باشا. أصل أمها مدلّعاها حبتين. مش كده يا نعيمة؟». سألها بصوتٍ عالٍ.

ولم ترد نعيمة.

قال لأبي: «هتخف وتبقى زي الفل على طول»، متوترًا وعيناه تطرفان.

قال له أبي إنها لا بدّ وأن تأخذ كل الوقت اللازم لتتعافى، وإننا ما جئنا إلا لنطمئن عليها ونتمنى لها السلامة.

عادت الأم وهي تحمل طبقًا ووضعته على السجادة الصغيرة: جبنة بيضاء قريش وشرائح طماطم غاطسة في زيت له صُفرة البول. توقفتْ قليلًا ثم نظرت نحوي أنا ونعيمة.

قال الأب: «مش كده يا أم نعيمة؟ إنتِ اللي مدلّعاها بس؟».

انتظرت الأم ثواني معدودة قبل أن تتكلم.

قالت لأبي: «بتحبه زي ما يكون ابنها».

فقال لها: «صحيح».

رغم أن نعيمة لم ترفع عينيها عن وجهي، فقد انتبهتْ لذلك الحوار. ضغطتُ على يدها. فكرت أن أقول لها شيئًا، وبدلًا من ذلك وضعتُ يدي على خدها. فاحتفظتْ بها هناك، وقلتُ لنفسي ربما تخفف عنها برودة يدي حرارة بشرتها. غير أن الدموع تدفقت من عينيها عندئذٍ.

قال أبوها: «وبعدين يا بت، ماتخافيش»، وفي صوته أثر من الخوف.

وهكذا تبددتْ دموع نعيمة فجأة.

أصر الوالدان أن نأكل. هزّ أبي رأسه. تمنيت لو أنه يستطيع إخفاء هذا العُبوس من صفحة وجهه. ناولنا والد نعيمة رغيفي خبز. كان رغيفي ناشفًا ومبقّعًا، بحصواتٍ مُتكتلة من الطحين. صبّتْ الأم سائلًا أسود ثقيلًا، وحين سألتُ ما هذا، قال أبوها:

«شاي، طبعًا»، فأيقنت عندئذٍ أنني أسأتُ إليه بسؤالي هذا. استقرّ في قاع الكوب سنتميتران تقريبًا من تفل الشاي. انحنى أبي على ركبتيه قليلًا وقطع لقمة خبز من رغيفه وغمسها في الطبق الوحيد الموضوع على الأرض.

«أَهه، ألف شكر».

انحنيت نحو الأرض حيث ترقد نعيمة، وأنا أشعر بالدم يتجمع في رأسي، ثم قبّلتُ جبينها الساخن.

الفصل العاشر

بدا أن خالي فاضل لم يأتِ إلا ليرافق المرأتين، فكونه رجلًا يُمثل خطورةً أكبر عليه بأن يتم التنكيل به لزيارته أقاربه «الرجعيين، الخونة». كان مرتبكًا ومُحرجًا بطريقة غريبة، ويجلس أغلب الوقت ليدخن. كلما جلستُ بجانبه يضغظ أعلى ذراعي النحيل ويقول: «شدّ، شدّ».

بعد وصولهم بثلاثة أيام قال لخالتيّ إنّ وقت العودة قد حان. «حتى لا تظن السُّلطات أننا بدأنا نستمتع بالإقامة هنا»، هكذا قال بحاجبين مُقطبين من الضجر والتوتر.

وقفتُ أنا ونعيمة نراقب عم سمير وابنه الكبير جمال يربطان الحقائب فوق سقف العربة. لوّحنا لهما عندما بدأت السيارة تتحرك ثم صعدنا من جديد. حين وجدتُني في حجرتي وحدي، محاطًا بروائح خالتيّ، بكيت.

* * *

كافحتْ شقتنا لاستعادة سيرتها الأولى بلا جدوى. نعيمة تتحرك بلا صوت، تنظف أسطح أثاث غير مبالٍ، وتعد لنا وجبات خالية من البهجة. وتسري في جسدي رعدة كلما سمعت رنين وقعقعة الأواني في مطبخ أمي. وأصبح أبي مرتبكًا ومتوترًا في حضوري. حلق لحيته، وأغلب الوقت إما يقضيه بالخارج أو ملازمًا لحجرته. لم تعد نعيمة تنام في بيتهم، صارت ترقد على أرض غرفتي. وسادَ الجو اضطرابٌ غامض.

أنقذنا من هذا الجو مجيء كلٍّ من حيدر وطالب؛ صديقَيْ أبي القديمَيْن من باريس. اصطحب حيدر معه زوجته نفيسة، وكانت ترفع من صوتها كلما تحدثت إليّ. تخلى أبي عن حجرته لحيدر ونفيسة، وحين مانعا، قال لهما: «اسألا نوري، واللهِ نادرًا ما أنام فيها. أحب الكنبة أكثر، بأمانة».

ثم أصرّ على أن يأخذ طالب فراشي.

«هذا الرجل يعرفك من قبل أن تُولد».

أومأ طالب في خجل.

نمتُ على الأرض، في مكان نعيمة، وعادت هي إلى أرضية المطبخ، حيث اعتادت لفترة وهي أصغر سنًّا أن تقضي الليل في الشتاء، حيث تُعتم السماء مبكرًا وتخشى أمي عليها من المشوار الطويل لبيتهم.

استمتع أبي بحريته الوليدة، لم تكن أمي تميل لاستقبال الضيوف، وخصوصًا هذين الصديقين، وهو ما مثّل مصدرًا

متجددًا للخلافات بينهما. أما الآن فيمكنه أن يسهر مع صديقيه يشربون الويسكي حتى ساعة متأخرة. كنتُ أسمع طالب وهو يخلد إلى الفراش. أظن أنه لو لم يحرص كل هذا الحرص على ألا يصدر صوتًا لكان أقل إزعاجًا لي. وسرعان ما تملأ أنفاسه جو الغرفة برائحة الكحول.

* * *

بطريقة أو بأخرى، كان جفاء أمي نحو صديقَيْ أبي القديمَيْن والمقيمَيْن في باريس ليس سوى جزء من توتر عامٍّ ساد علاقة أبي وأمي بتلك المدينة، لم أستطع إلا التسليم بهذا. لم يتحدثا إلا نادرًا عن أيامهما في باريس، وفي تلك المناسبات النادرة التي تروي فيها أمي كيف وُلدتُ هناك، كانت دائمًا ما تبدأ بأن تروي لي كيف أتت نعيمة لتخدم الأسرة. لم أفهم أبدًا عندئذ أهمية جزئيةٍ كهذه في القصة.

حكتْ لي كيف أتت هي وأبي إلى القاهرة خصيصًا لتوظيف خادمة. وكيف كانت نعيمة ذات الثلاثة عشر عامًا تبكي بلا انقطاع تقريبًا، طوال يومين استغرقتهما رحلة العودة بالسيارة لبلادنا. ولكن في كل مرة حاولا فيها العودة بها، كانت ترفض.

«بل إنها عند نقطةٍ ما بدأت تتضرع بأن نواصل، وهكذا واصلنا طريقنا».

لعلّ أمي ظنتْ خطأً أن صمتي اعتراض على السن الصغيرة لخادمتها،فقالت: «أردت واحدة صغيرة السن حتى تعتاد على أسلوب حياتنا، وتكون مثل ابنتي». ثم سكتت قليلًا، ناظرةً نحو أناملها، وحين رفعت بصرها مجددًا انتبهت أن الدموع تملأ عينيها.

بعد أن قام والداي بتوظيف نعيمة بثمانية عشر شهرًا فقط، تم جر ملك بلدنا جرًّا في ساحة قصره حيث أُطلق الرصاص على رأسه. في هذه المرحلة كان أبي وزيرًا في الحكومة، وحتى لا يخاطر بأن يتلقى معاملة سيئة أو الاعتقال أو حتى القتل، قرر أن يهرب إلى فرنسا. كانت نعيمة آخر من صعد إلى متن المركب، بعد والديّ مباشرةً وعبده السائق يسحبها من يدها. وقفوا جميعًا يشاهدون الشاطئ ينجرف بعيدًا والدخان يصعد.

حين وصل المركب «مارسيليا»، كان طالب يقف على رصيف المرفأ بانتظارهم. هل كان يبتسم، هل كان يمص طرف سيجارته بنهم، هل لوّح لهم؟ لم تكن أمي تحب الحديث عن طالب.

ـ «لماذا؟ أهو شخص سيئ؟».

ـ «كلا، مطلقًا».

لم يبدُ أبدًا أن ما تشعر به نحوه هو الغضب، لكنه شيء أقرب إلى الخزي. وأعتقد أنها كانت تفكر بنفس الطريقة في باريس وفي الوقت الذي قضياه هناك. لذلك كانت بي لهفة شديدة أن أسأل طالب، وأن أتبين ما الذي حدث بعد وصولهم.

قال لي: «مسكينة نعيمة، كانت ساقاها تحملانها بالكاد، وقد ظلت تتقيأ طوال الرحلة. لكن أمك كانت حازمة، لم ترغب أن يقيموا في «مارسيليا». لم أفهم ذلك أبدًا. لم ترغب حتى في أن يستريحوا ولو ليلة. أصرت على أن نتوجه مباشرة إلى محطة القطار ليأخذوا أول قطار إلى باريس».

تصورتها تسيرُ بعزم في المقدمة وتخيلتُ أبي وراءها، مسرورًا بعنادها، مسرورًا لأن هناك شخصًا ما على الأقل يعرف ما الخطوة التالية.

ـ «وكيف كانت على القطار؟».

ـ «من؟ أمك؟ مثل أبي الهول. كنت أحكي النكات لهم، ولكن كان من الواضح أن كلها نكات سخيفة».

ـ «ونعيمة وعبده؟ هل عادا إلى القاهرة؟».

وهنا تطلع طالب فيّ كما لو أنني فجأة أصبحتُ أقف على مسافةٍ بعيدةٍ للغاية منه. بدا وكأنه يقدر هذه المسافة، وما إذا كانت فكرة سليمة أن يعبرها.

ـ «كان عبده يعود من وقتٍ لآخر، ولكن نعيمة لم تعد بالطبع».

ـ «أين عاشوا؟».

ـ «في باريس».

بدا أنه فقد اهتمامه بالحديث. رحت أفكر كيف أجذبه من جديد.

ـ «أُنكل طالب!».

ـ «نعم».

ـ «منذ متى تعيش في باريس؟».

مكتبة
t.me/soramnqraa

ـ «منذ الجامعة. زمن طويل».

ـ «هل تحبها؟»

ـ «وما أهمية هذا؟ يبدو أنها هي تحبني».

ـ «هل أقام بابا وماما معك؟».

ـ «لا، وجدتُ لهما شقة في «ميريه». لم تكن مثالية، ولكنها قريبة من المستشفى. مكانٌ لطيف ولكنه خطوة كبيرة للأسفل مقارنةً بما اعتادا عليه».

ـ «ليس فندقًا؟».

ـ «كانت فترة ستة أشهر أطول من أن يقضياها في فندق. وفي النهاية أقاما سنة كاملة».

قلتُ: «حقًّا؟ لقد ظننت دائمًا أنهما أقاما هناك شهرين أو نحو ذلك».

«لقد تنفستَ هواء باريس خلال أول ثمانية أشهر من حياتك، يكفي هذا ليُفسدك إلى الأبد».

أحببتُ طالب. فعلى عكس نفيسة، لم يكن وراء تعاطفه إحساسٌ بالتفضل والتفوق. اصطحبني إلى أماكن لم أذهب إليها

من قبل. ذات مرة، وبينما أتبعه خلال أقواس مسجد ابن طولون، سألته: «أُنكل طالب!».

ـ «نعم».

ـ «بأي مرضٍ ماتت أمي؟».

توقف ونظر إليّ تلك النظرة مرةً أخرى، غير أنه لم يقل شيئًا.

* * *

بعد أن عاد طالب إلى الفراش ذات ليلة في وقتٍ متأخر، وأنا نائم على الأرض، والغرفة سوداء مثل بئرٍ يفوح برائحة الويسكي، تحدّث فجأة.

قال: «يكون من الأفضل أحيانًا ألّا نعرف».

وثبَ قلبي في صدري، ولكنني أرجعتُ ذلك جزئيًّا إلى أنه انتزعني بكلماته من النعاس.

«بعض الأشياء يصعب ابتلاعها».

تذكرت مشهد كلبٍ في شارعنا كان مختنقًا بعظمة دجاجة. راح يسعل ويتنفس بصعوبة مطلقًا صوت صفير، حتى رقد على جانبه في النهاية مستسلمًا وعيناه تطرفان نحوي.

قال: «بصرف النظر عن أي شيء، لا بدّ أن تعرف أنها كانت غاية في الإنسانية»، وكانت الكلمة جديدة عليّ تمامًا. رحتُ أرددها في عقلي ـ الإنسانية، الإنسانية ـ بحيث يمكنني البحث

عن معناها في القاموس فيما بعد. «لم يتغير أبدًا حنانها تجاه نعيمة، التي كانت بريئة بطبيعة الحال. في نهاية الأمر، كان الجميع أبرياء، بمن فيهم أبوك». وبعد فترة صمت طويلة، بالضبط عندما ظننتُ أنه قد استغرق في النوم. تحدّث طالب من جديد:

«لا يمكنك أن تتخيل كيف كان شأن أبيك هناك في بلادنا. من الصعب حين تنظر إليه الآن أن تصدق أنه نفس الشخص وأن العالم هو نفس العالم. وقد كان يريد ابنًا يرث كل شيء».

كنت أتفرس في الظلام بحدة. تذكرت حين كنت جالسًا مع والديّ في إحدى المحطات على ارتفاع كبير في جبال الألب الجليدية. كنت وراءهما وقد بدا ظهراهما أسودين في مقابل الهاوية البيضاء للوادي. كانت الريح جبلية شديدة، تتوقف ثم تهب من جديد، يدل عليها وشاح أمي. عندما تحدثا كانا يهمسان.

قالت له: «هذا ما كنت تريده دائمًا».

مرّ صمتٌ طويل. تابعا برأسيهما منطادًا. التفت أبي نحوي ويده تشير نحو المنطاد. حين رأى عينيَّ على الهدف، اضطجع في المقعد الخشبي الطويل، فاتخذ القماش السميك شكل جسمه من الوراء.

قالتْ: «وهل كنتُ أملك خيارًا آخر؟».

ولم يُجبها.

* * *

في اليوم التالي طار كلٌّ من طالب وحيدر ونفيسة عائدين إلى باريس. ورغم أن نعيمة غيّرت ملاءات السرير، ظللت أشم رائحة رأس طالب على وسادتي. طلبتُ من نعيمة أن تغير كيسها.

فقالت وهي تضغط الوسادة على وجهها: «ليه؟ دي نضيفة زي الفُل».

الفصل الحادي عشر

جاء الفرج مع بداية المدرسة، وبدا أبي مسترخيًا. عاد إلى التحدث على مائدة الطعام، حتى إنه بدأ يتحدث عما قد نقوم به في الصيف التالي. ولكن عندما حلّت الإجازة الصيفية لم يذكر شيئًا عن الأمر. وأنا لم أهتم؛ فقد كان غريبًا على أي حال أن نسافر بدون أمي. سمعت نعيمة تقول له ذات صباح: «ليس من الجيد لصبي صغير أن يبقى في البيت طول اليوم».

في مساء اليوم نفسه طلب مني أن أحزم بعض ثياب الشاطئ. «سنذهب إلى الإسكندرية».

قاد عبده السيارة بنا في الصباح التالي، وعلى الرغم من أن الإسكندرية لا تبعد أكثر من ثلاث ساعات، أصرّ أبي لسببٍ ما على أن ننطلق في السادسة صباحًا. كان فندق «ماجدة مارينا» مكانًا مثيرًا للسأم والإحباط مقارنةً بالأماكن التي اعتادت أمي أن تأخذنا إليها. رحتُ أتلهف على انتهاء فترة أسبوعَي الإجازة حتى نعود إلى القاهرة. ولم يختلف الأمر كثيرًا عن ذلك في الصيف

التالي، الصيف الذي التقينا فيه مُنى، حين كنت أدعو الله أن يدوم كلُّ يوم بلا نهاية.

كان عمرها ستة وعشرين عامًا، وأبي واحدًا وأربعين، وأنا اثني عشر.

يفصل بينهما خمسة عشر عامًا، ويفصل بيني وبينها أربعة عشر. لا يُعد أنسب لها مني إلا بالكاد. ولم تغب عني حقيقة أن أمي كانت في السادسة والعشرين عندما تزوجا. كما لو أن أبي يحاول إعادة عقارب الساعة للوراء.

في أول خريف ذلك العام، بعد صيفنا الأول مع مُنى، أمر نعيمة بأن تجمع متعلقات أمي. وحين لم تستجب على الفور كرر الأمر عليها، مستخدمًا نفس الكلمات ومتحدثًا بنفس اللهجة، وهو ما كان أمرًا رقيقًا وحازمًا في الحين نفسه. ما إن بدأت تعمل حتى حلّ بالغرفة نوعٌ جديد من الصمت. وقف بالقرب منها، يتظاهر بالنظر إلى بعض صفحات متفرقة من الورق. رحتُ أراقب في قلة حيلة الصناديق الكرتونية ترتفع في صالة الشقة.

سألته: «ماذا ستفعل بها؟».

لم يرد.

قلتُ: «لا يمكنك أن تأخذها بعيدًا عن هنا».

نظر إليّ وعرفت أنني لو أشحتُ بنظري بعيدًا فإن أشياء أمي سوف تختفي في أحد المخازن بعمارتنا.

بعدها بيومين أمر أحد النجارين بصُنع خزانة ثياب في أحد أركان غرفة مكتبه. وتم استخراج أشياء أمي من جديد ووُضعت هناك.

ثم سافر إلى لندن؛ حيث تزوج هو ومُنى. لم أحضر الزواج المدني، والذي أكّد لي أبي أنه سيكون «مناسبة هادئة لا يحضرها إلا والدا مُنى، وربما، قليل من أقاربهما». كانت المدرسة بالطبع هي الحجة التي تبرر عدم سفري معه. ولكني فيما بعد، حين رأيت صورهما تحل محل صور أمي تدريجيًّا، اكتشفت كذلك أن من بين المدعوين في ذلك اليوم حيدر ونفيسة وطالب، وأشخاصًا آخرين لهم ملامح عربية، لعلهم منفيون عن بلادنا، وزوجاتهم وأطفالهم يقفون إلى جانبهم.

أول وهلة لم يعلق أبي بشيء حين رآني أحدق في الصور. ثم أتى إلى غرفتي. «هؤلاء الأشخاص الذين رأيتهم في الصور: كانوا مارين بالمصادفة بلندن». ثم عاد يقول: «وما الضرر في دعوة بضعة أصدقاء لحضور مناسبة سعيدة؟».

* * *

كنتُ قد ذهبت مع عبده لنأخذهما من مطار القاهرة الدولي. في الطريق توقف عبده أمام محل زهور.

«نوري باشا، أظن أنها ستكون لفتة طيبة منك أن تأخذ لهما زهورًا. سيقدر السيد والدك لك ذلك».

فكرتُ في أي عذر أخبره به. وحتى أحسم ترددي، اشتريتُ باقة ضخمة مرّت مروحتها الكبيرة إلى صندوق السيارة بصعوبة. حملها عبده سائرًا خلفي في قاعة الوصول، وروائح الياسمين والسوسن البرتقالي والورد تتنافس فيما بينها على السيطرة. ثم ظهرت مُنى وأبي، ومن وراء جسديهما المضمومين يسير رجلان، كل منهما يدفع عربة صغيرة ترتفع فوقها الأمتعة.

انتقلت معنا لتعيش معنا في شقة الزمالك؛ الشقة التي اختارتها أمي لإطلالتها الحميمة على النيل. أوشكتُ خلال تلك الأيام القليلة الأولى أن أنسى أوقاتنا في «ماجدة مارينا». يأخذ أبي سيارته كل صباح نحو موعد ما أو اجتماع ويصحبني عبده للمدرسة بالسيارة. أما مُنى، الأكثر ارتياحًا في عالمٍ لم تشعر أمي بالارتياح نحوه في أي وقت على الإطلاق، فكانت تقضي أغلب وقتها في نادي الجزيرة، حيث تلعب البولو والتنس وتشرب الشاي مع أشخاص لم نتعرف عليهم أنا وأبي أبدًا. اتسمتْ مُنى بتلك الشيمة الإنجليزية في وضع الأشخاص الذين تعرفهم في حجيرات منفصلة بعضها عن بعض، كما لو كانت تخشى من أن يلوث بعضهم بعضًا. ولم يمضِ وقتٌ طويل حتى كوّنت دائرة واسعة من الصداقات. وفي نهاية الأمر صار لزامًا عليَّ أن أنقم عليها.

* * *

في نوفمبر من ذلك العام، وبحجة الاحتفال بعيد ميلادي الثالث عشر، أخذنا باخرة في النيل إلى الأقصر، فاشتعلت النار من جديد. الجوع الحزين ذاته، لكنه الآن أكثر عتمة واحتماله أكثر صعوبة.

كانت الباخرة تتحرك بلا صوت. وكان بوسعي أن أرى من النافذة الصغيرة لقمرتي المياه تنشقّ خلفنا، تتسع بشرة الأمواج المنفصلة كأنها بشرة مضغوطة، وتتسارع ثم تنهار برفقٍ على ضفتَي النهر اللينتَيْن بحشائشهما الكثيفة. كان هذا نهارنا الأول على متن الباخرة إيزيس، وقد صارت القاهرة الصاخبة بعيدة وراءنا الآن. راح نهر العاصمة الممتلئ يذبل ويرقّ إلى مجرى مائي ريفي، تقاربت ضفتاه وهكذا بدا أكثر تحفظًا بطريقةٍ ما. كنا نسافر عكس تيار المياه، جنوبًا نحو قلب القارة. الأولاد الذين يظهرون بين الحين والآخر يركضون على الشط بنفس سرعة الباخرة، ويلوّحون ويُخرجون ألسنتهم ويكشفون عن مؤخراتهم، بدت أجسادهم أعمق سُمرة قليلًا، في مثل سُمرة نعيمة. بعد أربعة أيام سنبلغ المياه الشفافة للأقصر، وهناك، وفقًا لما أخبرنا به القبطان عند ركوبنا، تصفو المياه حتى يمكن للمرء أن يرى قاع النهر العتيق. فكرتُ أن أتساءل: هل سنرى الجواهر وحطام السفن وغير ذلك هناك في القاع؟ ولكن بدا لي التكلم مستحيلًا، من حيث كنت أقف على سطح الباخرة الضيق والمصقول بالورنيش وراء مُنى وأبي وحقيبتيهما العملاقتين.

لم أستطع النوم تلك الليلة. تسببت الحركة المهتزة للباخرة والأصوات السعيدة المكبوتة الصادرة من القُمرة المجاورة لقمرتي في أن أظل ساهرًا مؤرقًا معظم الليل. لم ينم العروسان الجديدان حتى اكتسى سطح النهر بلون الفضة: قهقهة، ثُم تشجيع على الهدوء: شششش، ثم صمت مشحون، ثم ضحكة مفاجئة. عند لحظةٍ ما، في هذيان الإنهاك والغيرة، فكرتُ أنهما يتعمدان هذا؛ يتعمدان تعذيبي.

صرنا الآن أكثر توغلًا في الجنوب، وكشفتِ الشمس عن وجهها بجرأةٍ وجسارة. كنتُ راقدًا بلا غطاء، غير مستعدٍّ للصباح الذي يأتي مثقلًا بالحرّ. قميصي القطني وسروالي القصير ملتصقان بجلدي من العرق والرطوبة، وفكي متدلٍّ على الوسادة، حين دخلت مُنى دون أن تطرق الباب. أغمضتُ عينيّ لكنها لم تقتنع.

«لقد حاولتُ بكل طريقة. الساعة تجاوزت التاسعة وهو لم يصحُ بعد!».

دخلتِ الحمّام، وتركت الباب مفتوحًا. دون حاجة إلى التحرك أمكنني أن أرى جانبًا من فخذها. سمعتُ صوت بولٍ يتدفق في الماء ـ أقرب إلى نبعٍ صغير منه إلى نافورة، صوت مسح بالورق. غسلتْ يديها، وشطفت وجهها بالماء، وهي تشهق تحت الماء البارد. جلستْ على الفراش. استدرت وواجهتُ الكساء الخشبي للجدار، مستغرقًا في قراءة خطوط تجزّعاته. وضعتْ هي يدها على ظهري.

الفصل الثاني عشر

ما حسبتُه وقتها فتنة وهيامًا لم يكن إلا ولع مُنى بأن تكون مصدرًا للفتنة والهيام. أتخيل أنها كانت تجد في عذاب الصبي المعجب واكتشافه البطيء تسلية وإطراءً وبؤسًا مثيرًا للشفقة معًا في الآن نفسه. أرى هذا الآن بينما أتذكر ما جرى فيما بعد.

كنا نتناوب نحن الثلاثة الغطس في مياه النهر المتدفقة، ثم نسرع للّحاق بالباخرة. كان الاثنان الآخران يهتفان ويهللان للسابح منا وهو يلاحق السُّلم. كانت سرعة الباخرة هينة، ولكن حماستنا افتعلت خطرًا لا وجود له. كلما كان من يسبح منا يقبض على الدرجة الأولى للسلم كان الآخران يصفقان. وضعتْ مُنى إصبعيها السبابة والإبهام في فمها وأخذت تصفر صفيرًا عاليًا. تمنيتُ لو أستطيع أن أصفر كذلك. ومنذ ذلك الحين صرتُ أتطلع إلى من يستطيعون القيام بهذا باعتبارهم من الصفوة المختارة. في لحظةٍ ما رفعها أبي بين ذراعيه وقبّلها. كنا مشهدًا جديرًا بالفرجة. وقف المسافرون المرتدون لثيابهم منحنين على الحاجز، يراقبوننا. كانوا يصفقون بينما نتسلق السلّم إلى سطح

الباخرة. تطلع الأطفال نحوي. كان ذلك عرضًا عامًّا، وكنا عارفين بذلك. وحثّنا الإحساس بأننا غرباء على تقديم المزيد من الأداء، واستمتعنا بحيرة الآخرين والتساؤلات التي يثيرها بداخلهم مظهرنا ولكنتنا، وألسنتنا التي تنتقل بسهولة من العربية إلى الإنجليزية إلى الفرنسية. صاح أبي بالفرنسية من سطح الباخرة: «أليس انتعاشًا حقيقيًا؟».

فأجبته وأنا أفهم مقصده تمامًا، بالفرنسية: «آه، نعم، إنه بديع».

«You must always remember, son, that life is for the living».

ارتمى أبي على مقعدٍ من نوعٍ قابل للطي، كان صدره يرتفع وينخفض من المجهود، ولاحظتُ الخشب الداكن من تحته يزداد دُكنة. كان القبطان يقف بالقرب منه ناظرًا إليه. غالبًا ما كان أبي ينتزعُ هذا النوع من إعجاب الرجال الآخرين. وشرع كلاهما في الحديث على النحو الذي يندفعُ إليه الرجال حين يكون الصمت غير محتمل.

ذهبتُ أنا ومُنى إلى غرفتينا. كانت تسير أمامي، وقطرات الماء المتلألئة تتعلق بنهاية ظهرها، وحين دخلنا الممر الضيق حيث تصطف الغرف المرقمة، بدا جلدها ساطعًا وأخضر اللون كأنه حجر يَشْم مصقول، إلى أن اعتادت عيناي على النور الكهربائي. فكرت: هذه اللحظة ثمينة، وسرعان ما سوف تمر، وسيكون عليّ أن أجلس معهما بينما يحتسيان الآبارتيف ـ وهو ما يفعلانه يوميًّا قبل تناول العشاء.

قالت: «أراك على السطح»، وهي تفتح الباب مبتسمة.

تساءلتُ في نفسي، ما الذي يجعل هاتين الشفتين تومضان هكذا؟ ولماذا يندفع دمها فيهما على هذا النحو؟

دخلت غرفتي بنية أن أستحم، وعندما لم أجد أي شامبو عندي ذهبتُ إليها. كانت دخلت لتستحم بالفعل عندئذٍ. تذكرت ما شعرتُ به من إثارة حين تسللتُ إلى غرفتها تلك المرة الأولى في «ماجدة مارينا». كم كان ساحرًا أن أجدني في الموقف نفسه مرة ثانية. وقفت أمام منضدة الزينة، أنظرُ إلى قواريرها وحليها. أمسكتُ بالعقد وتركتُ حباته تتساقط واحدةً بعد الأخرى في قبضة يدي الأخرى، ثم أدنيته من أنفي، أصابني عطرها بوخزةٍ آلمتْ موضعًا ما في صدري. دفنتُ وجهي في الوشاح الحرير فأحسست بالعطش. كانت تلك هي الأشياء التي تحيطُ بها. حين سمعتُ صوت الماء يتوقف، تسارعت نبضات قلبي وفكرت أن عليّ الخروج قبل أن تراني. أعدت كل شيء كما كان في موضعه. انبعث من لآلئ العقد صوت ناعم يشبه سقوط قطع الدومينو.

قالت: «حبيبي، لم أحسب أبدًا أن السباحة في النهر قد تكون ممتعة إلى هذا الحد».

كان من الغريب أن تظنني أبي. لم يكن فيما قالته أي شيء حميمي، ولكن نبرتها هي ما أدهشني. فكم كان صوتها سحيقًا كأنه بلا قاع.

واصلتْ تقول: «لن أنسى أبدًا هيئتك. وتلك الغطسات الخرافية، وصدرك».

بعد صمتٍ قصير لم أعرف خلاله هل يتوجب عليّ أن أتحدث أم أن ألوذ بالهرب، ظهرت لا يسترها إلا منشفة ملفوفة حول خصرها. جعلني مرأى ثدييها العاريين أشيح ببصري للناحية الأخرى.

ـ «أحتاج بعض الشامبو».

ـ «لستَ مضطرًا لأن تدير رأسك للحائط؛ أنا في سن تتيح لي أن أكون والدتك».

كانت تجلس عند نهاية الفراش، ممسكة بفرشاة الشعر. كان نهداها أكثر شحوبًا من بقية جسمها، وبدوا كأنهما يعمقان اللون الوردي في وجنتيها. رفعتِ الفرشاة إلى جانبها وولتني ظهرها.

«مشط لي شعري».

جلستُ فوق الفراش على ركبتيّ.

عندما شرعتُ في التمشيط، قالت: «لا، ابدأ من تحت».

رحتُ أعمل في صمت، وكلما قابلت الفرشاة شعرًا منعقدًا أتريث وآخذ وقتي.

قلتُ: «ليس صحيحًا»، ولم ترد عليّ كأنها تعرف ما أقصده. «لستِ في سن تتيح لك أن تكوني والدتي. لقد كنتِ في الرابعة عشر فقط عند مولدي».

ولم ترد مرةً أخرى، ولكن هذه المرة كان صمتًا دفاعيًّا وفطنًا، صمتًا أقرب للستار الذي يجذبه الطبيب ليقترب ويفحصك.

عندئذٍ دخل أبي الغرفة. أغلق الباب من ورائه بسرعة ووقف لدقيقة يشاهدنا. شعرتُ بجلدي يحترق ولم أجرؤ على النظر في عينيه. ركزتُ على شعرها وأخذت أمشطه بدأبٍ وعناية، كأنه نوع من الفروض المدرسية. دخل الحمّام دون كلمة وأغلق الباب بشدة من خلفه. فكّرتُ أن أطلب منه أن يمرر لي الشامبو؛ قلتُ لنفسي إن هذا سيفسّر سبب وجودي هناك. لكنني واصلت تمشيط شعرها. فتح ماء الدش. جعلتُ أتفحص ظهرها، بالأسفل كانت المنشفة محكمة على جسدها، تشتد وترتخي مع كل نفسٍ من أنفاسها. وعلى الرغم من أنني كنت قد لاحقتُ كل العقد المشتبكة من شعرها وصارت الفرشاة تمضي الآن بنعومة، لم تطلب مني أن أتوقف. حين سمعتُ أبي يوقف المياه ناولتها الفرشاة وغادرت.

حين عدتُ إلى غرفتي ألصقتُ أذني بالجدار الفاصل، لكني لم أتبين الكلمات. كان أبي يتحدث بتلك النبرة المجافية والصلبة، وبين كل جملة وأخرى يحط صمتٌ ثقيل.

* * *

خلال بقية الرحلة، لم يوجه أبي إليَّ حديثًا إلا حين تكون مُنى معنا. وكلما صرنا وحدنا أنا وهو، كان يمدّ بصره بعيدًا أو يلتقط

كتابًا. ولكن بعد أن عدنا إلى القاهرة بشهور، وبينما يهلّ الربيع، دعاني إلى غرفة مكتبه.

«أغلق الباب».

جلستُ مواجهًا له.

«ما رأيك في الدراسة في إنجلترا؟».

هززتُ منكبيّ.

«أتتذكر لندن؟».

لم أقل شيئًا.

«لقد أعجبتك لندن. وسوف تعجبك إنجلترا. وقد صارت لغتك الإنجليزية الآن قوية بما يكفي. أنا ومُنى نعتقد أنها فكرة جيدة جدًّا».

لم أحتمل فكرة البكاء أمامه.

«أهذا كل ما هناك؟». قلتُ، ثم تنحنحت لكي أبرر صوتي المبحوح. وهكذا نحاني أبي جانبًا، بهذه الدرجة من الفعالية عديمة الرحمة. كان القرار محسومًا: كان قد سجل اسمي بالفعل في «دايلسويك»؛ مدرسة داخلية في شمال إنجلترا، ولم يكن هناك أي شيء بيدي حيال هذا. من الواضح أن مُنى قد اختارت المدرسة.

«واحدة من أعرق المدارس، أليست كذلك؟ يدرس هناك الملوك، صحيح؟». هكذا قال ذلك المساء ونحن نتناول العشاء، ناظرًا إلى مُنى.

أمّنت على قوله: «لا شك أنها واحدة من أفضل المدارس»، وقد تصلّب وجهها بتلك الكآبة المعتدة بذاتها التي تكسو وجوه الإنجليز كلما سمعوا مديحًا لإحدى مؤسساتهم.

غير أنني لم أنخدع؛ ورفضتُ أن أبدو مُتأثرًا.

قلتُ: «ماما»، وبدا أن الكلمة قد أخذت أبي على حين غفلة. «ماما كانت تقول لي دائمًا إنك انتقلت بنا إلى القاهرة حتى أنشأُ في دولةٍ عربية». ولكنني عندئذٍ، أضفتُ بصوتٍ أعلى مما انتويتُ: «ماذا جرى لهذه الفكرة؟». ثم جريتُ إلى غرفتي، حيث كان عليّ أن أنتظر وقتًا طويلًا، حتى انتهاء العشاء وتنظيف المائدة، لتأتي نعيمة.

* * *

كانت حقيبة السفر مفتوحة على الأرض، وجلست نعيمة متربعة بجوارها. كل قطعة ثياب أناولها لها كانت تطويها في حجرها، ثم تضغطها برقةٍ في موضعٍ بالحقيبة. بدتْ مثلي كأننا مرضى بالصمت. مُنى هي الوحيدة التي كانت تتحدث.

«أليس هذا مثيرًا للحماس؟ سيكون لك الكثير من الأصدقاء، أشخاص ستظل تعرفهم لبقية عمرك».

ثم فجأة طلبتْ من نعيمة أن تذهب لتعد الشاي. وحين صرنا وحدنا أمسكت معصمي وطلبت مني أن أنظر في عينيها.

«صدقني، إذا كان الأمر بيدي، لفضلت أن تبقى هنا. إنه والدك؛ يريدك أن تنضج بسرعة. ولكنني أعرف الآن، من شجاعتك في تقبل الأمر، أنك لم تعد ولدًا صغيرًا».

الفصل الثالث عشر

قبل الموعد المحدد لبداية دراستي في «دايلسويك» بأسبوع، سافر ثلاثتنا إلى لندن. ضاق حلقي بينما ندنو من مطار القاهرة الدولي في الصباح الباكر، وتساءلتُ: لماذا يجب أن تحدث كل الأمور الفظيعة في الصباح الباكر؟ كانا يعاملانني بتلك الرقة المكثفة التي نبديها نحو شخصٍ حلّت به كارثة. لم يدعاني أحمل حقيبتي، وإذا طالت نظرتي على موضوعٍ منشور في إحدى المجلات يُسارع أبي بسؤالي عمّ تتحدث.

قبل أن نتوجه إلى المدرسة أقمنا ليلتين في فندق «كلاريدجز» بلندن، وبما أن أبي كان يعلم مدى حبي لخدمة الغرف فقد اتصل بغرفتي ليلة وصولنا وأصرّ على أن أتصل لأطلب لي شوكولاتة ساخنة. قضينا أغلب الوقت نتجول في منطقة الـ«ويست إند» بوسط لندن. وكلما دخل كلاهما متجرًا ما كنت أنتظر بالخارج. طفنا بالجاليريهات وتنقلنا بين المتاحف. كنا في الـ«ناشيونال جاليري»، نقفُ قبالة لوحة للفنان «تيرنر» اسمها «ميناء كالاي»،

حين أتى أبي على ذكر أمي، في إيماءة حنان نادرة. وكانت مُنى قد سبقتنا بالفعل إلى القاعة التالية، فلم تكن معتادة على الوقوف أمام إحدى اللوحات لأطول من ثوانٍ معدودة. كنت ما أزال أتأمل الصورة ـ حلقات الموج الهائجة كثيفة الزَّبد، والسفن المائلة المكتظة بالناس، والأشرعة الحُبلى بالرياح، والسحب المتجمعة كالنسور، وقشعريرة البرد التي تحيط بالمشهد كله ـ حين قال أبي في لين، وهو تقريبًا شارد الذهن: «كانت أمك ستُعجب بهذه». ثم انتقل إلى الصورة التالية؛ عمل آخر لـ«تيرنر». أدهشني قوله هذا، وجاء غضبي مفاجئًا. لو لم يكن غضبي مفاجئًا وسريعًا سرعةً مربكة، ربما كنتُ قادرًا على التعبير عنه بقدر أكبر من الصراحة والوضوح. فما أخفقتُ فيه مرةً بعد أخرى، نجحتْ فيه لوحةٌ زيتية قديمة. وبدا كأن أبي لم يكن يتحدث إليّ بالمرة، كان من النادر للغاية أن يتحدث عن أمي على هذا النحو. لم أدر ماذا أقول، أردتُ أن أسأله عن أشياء كثيرة بشأنها، وخصوصًا كيف كانت تبدو قبل أن أُولد. وشعرتُ كأن نافذة قد انفتحت، وأن أبي دون قصدٍ منه يسمح لي بأن ألمح جزءًا منها، ولو للحظات. تظاهرتُ بالانتقال إلى اللوحة التالية وصرت بجانبه.

«بابا، بابا». رددتُ حتى سمعته يهمهم.

«لماذا تلك اللوحة؟».

«كانت تحب هذا الرسّام». وانحنى نحو النص المصاحب للوحة. «تيرنر. كانت مولعة بتيرنر هذا. لا أعرف ما المميز فيه». ثم أحاطني بذراعه مبتسمًا، كإشارة لبدء استدعاء ذكرى خاصة.

ـ «ذات مرة، حين كنا على متن قارب في مكان ما».

ـ «أين؟».

انتبهتُ أنني تحدثتُ بصوتٍ أعلى من اللازم، وخاصةً في معرض فني حيث يحرص الناس، لأسبابٍ لم أفهمها أبدًا، على التزام الصمت كأنهم في جنازة.

أدار بصره حولنا، فتساءلتُ إن كنتُ قد أزعجته، وإن كان سوف يتم قصته على الإطلاق، وإن كانت لهفتي قد أدت إلى دورةٍ أخرى من دورات صمته الطويل.

لكنه همس أخيرًا: «إسكيا».

قلتُ: «اسمها كأنه عطسة».

«إنها جزيرة في إيطاليا. كانت أمواج البحر التيراني عالية ومياهه مضطربة. وبدأ جسدها يرتجف. سألتها: «أأنت بخير؟». أومأت ولازالت تتطلع من النافذة بعيدًا عني. كانت الأمواج تتحطم على زجاج النافذة. ثم سمعتها تهمسُ قائلة: «يا للجمال». كان لأمك قلبٌ قوي». ضحك ضحكة صغيرة ثم نظر إليّ، وكرر: «قلبٌ قوي».

* * *

لم أعد أذكر الآن لماذا لم يصحباني طوال طريق رحلتي إلى المدرسة الجديدة، وقد تساءلتُ مراتٍ عديدة منذ ذلك الحين ما إذا كان السبب أن أبي لم يحتمل فكرة أن يتركني هناك، وأن حدود قوته انتهت عند رؤيتي أستقل القطار من محطة «سان بانكرس».

وقفت بباب العربة، من الداخل دُفعت النافذة الصغيرة للأسفل. قبضتُ بشدة على ورقة نقدية بعشرين جنيهًا أعطاها أبي لي من أجل ركوب تاكسي.

قال متطلعًا نحوي: «السيد «جايلبرث»؛ مدير القسم الداخلي، سيكون بانتظارك على الرصيف، ولكن في حال لم تجده، ستجد موقف سيارات تاكسي خارج المحطة».

قالت له مُنى: «لا تقلق، نوري يُعتمد عليه».

ثم انطلق الصوت المرتفع لصفارة قاطع الكُمساري.

اختبرني أبي لمرة أخيرة، طالبًا مني أن أكرر عنوان المدرسة.

ارتجّ القطار بالحركة، مندفعًا للأمام بثقله الطويل الحزين.

قال أبي من جديد: «اتصل بمجرد وصولك».

راحتْ مُنى تلوّح في حيوية، وبقي هو ساكنًا، بوجهٍ رزين. وعندئذٍ ـ لا بد أنهما اعتقدا أنني لم أعد أراهما ـ نظرت هي إليه ونظر هو بعيدًا.

* * *

حين رآني أنزل من القطار متعثرًا بحقيبتي اقترب السيد «جايلبرث» مني. ابتسم عندما تصافحنا. ناسيًا أنها بالأساس عادة عربية، بدأت أستعين بيدي اليسرى كذلك لكنها لم تستقر على اليد التي أصافحها بل على ذراعه، حول الكُم الخشن لسترته الصوفية.

«طلب والدك أن نتصل به بمجرد وصولك»، هكذا قال، ثم قادني إلى كابينة الهاتف.

«نعم يا سيد ألفي، إنه هنا بخير وسلامة».

لكن أبي أراد أن يسمع صوتي، أو هكذا عبّر السيد «جايلبرث» عن الأمر، فقال: «إنه يريد أن يستمع لصوتك»، وناولني سماعة التليفون وقد أدفأتها أذنه قليلًا. كان بوسعي أن أشم أنفاسه؛ رائحة معدنية حادة. ربما تكون رائحة من اتصل قبله، ولكنها بطريقةٍ ما خلّفت عندي شعورًا بأن في السيد «جايلبرث» شيئًا باردًا وجافًّا.

* * *

بعد أسبوعين، ودون إخطار مسبق، ظهرا.

دخل البواب الرئيسي إلى فصل الرياضيات، ونادى:

«الألفي، لديك ضيوف».

كل من بمدرسة «دايلسويك»، حتى الطلاب، ينادون بعضهم البعض بألقابهم العائلية.

تهامس الأولاد: «أووووه». قال البوّاب: «يُستحسن أن تجلب أشياءك معك».

جمعتُ كتبي، محمرًّا من الخجل طيلة الوقت، شاعرًا بالحرج أنني أستقبل «ضيوفًا» ولم أكد ألتحق بالمدرسة.

وجدتهما يقفان بجانب السيارة المستأجرة. فتحتْ مُنى ذراعيها. صافح أبي يدي، ولكن بعدها جذبني وعانقني عناقًا مرتبكًا، مُقبلًا وجنتيّ بشدة زائدة عن اللازم.

تجولتُ معهما لأريهما المكان، وأخذتهما إلى الدار التي نقيم بها وقدتهما حتى غرفتي. وقف أبي في معطفه ما بين الفراشَيْن الضيقَيْن الموضوعَيْن على جانبي النافذة المربعة، كانت رأسه تقريبًا تلامس الأفاريز المائلة. وبدا كأن ألواح خشب الأرضية تقرقع بصوتٍ أعلى تحت حذائه الجلدي اللامع. استقرتْ عيناه على الساعة المنبهة التي أعطاها لي. سألني: «أهذا سريرك؟». ثم غمس يده داخل حشية الفراش فأصدرت النوابض صوتًا رهيبًا. همس قائلًا لمُنى: «نوعية رديئة للغاية».

قالت مُدافعة: «هكذا هو الحال في تلك المدارس».

«مقابل كل تلك الأموال؟».

تظاهرتُ بأنني لم أسمع هذا الحديث. أحرجتني الغرفة؛ فالمرء يحب أن ينجذب من يحبهم إلى المكان الذي يعيش فيه. ولكن بينما كانت مُنى تتبعه لخارج الغرفة، التفتت نحوي

وغمزت. تحركت سريعًا للأمام وأكملت الجولة بهما. أخبرتهما عن الطقوس الخاصة بالمكان، وسرني الآن أنه كلما قابلنا أحدهم كان يحييني بلقب الأسرة.

«هنا الحمّامات. وهنا المكان الذي أعد فيه الإفطار في إجازات نهاية الأسبوع».

سألني أبي: «هل تعلمت الطهي؟».

قلتُ: «نعم، زميلي في الغرفة «آلكسي» علمني كيف أعد الأومليت»، قلتها على أمل ألا نلتقي بـ«آلكسي»، لأنه كان الشخص الوحيد في العالم الذي بحتُ له بمشاعري نحو مُنى.

بعد أن انتهيت من عرض المكان عليهما، لم أكن أطيق صبرًا على مغادرتهما. وحين جلسنا لتناول الغداء في حانة بقريةٍ قريبة ذات أجواء رثة، امتلكني نفاد الصبر وتلهفتُ على انتهاء تلك الوجبة. كأن وجودهما هناك كان في غير مكان بالمرة، لا في البيت الذي أتوق إليه ولا في المدرسة التي تفزعني.

حين كانا يغادران سمعتها تقول له: «أرأيت؟ ألم أقل لك؟ لقد اعتاد عليها بالفعل».

وكان يومئ موافقًا قبل أن تنهي جملتها.

عندئذٍ فقط أدركت أنني قد أظهرت للمكان حماسة زائدة عن اللازم.

الفصل الرابع عشر

كنت أعرف أن أبي يفتقدني، وأنه خالفَ صوت قلبه بإرسالي إلى مدرسة داخلية؛ وأنه تصرّف على غير رغبةٍ منه. غير أن الشوق الذي راح يشتد بداخلي مع مرور الأيام كان مُركزًا بالأساس نحو مُنى؛ التي احتلّت أفكاري تمامًا. أمر غريب؛ حيث أرى الآن أن كل قدرتي على الشوق والرجاء موجهة نحو أبي المفقود. هل يخون القلب نفسه على الدوام أم أنه يفتقر للإخلاص بطبيعته؟

كان عليّ أن أمنع نفسي من الكتابة إليها مراتٍ عديدة، وخصوصًا لأنها كانت نادرًا ما ترد على رسائلي أو ترد بالسرعة والأسلوب اللذَيْن سمحتُ لنفسي بتوقعهما. يفلح بعض الناس في الهرب من الالتزام الذي يفرضه عليهم تلقي رسالة صادقة، وكانت مُنى أحد هؤلاء. ولم تقدم لي أبدًا سببًا يجعلني أعتقد أنها تعتز برسائلي؛ فهي لم تأتِ على ذكرها بالمرة. لعلّ هذه كانت حكمتها، وإن كانت الحكمة كلمة فالقسوة كلمة أخرى. لا شك أنها كانت تعرف أنني سوف أيأس في نهاية الأمر. حين كانت

تكتب، لم تزد على خربشة كلمتين على ظهر بطاقة من البطاقات البريدية العديدة التي كانت تجمعها من متاجر المتاحف. كانت كلماتها على الدوام سريعة وغير معتنى بها، «مع أطيب أمنياتي» أو «دمتَ بخير»، لكنني حاولتُ أن أقرأ معاني عميقة بداخل تلك العبارات المبتذلة. كثيرًا ما كانت تضع في المغلف بتلة زهرة كاميليا أو نرجسة أو وردة بلدية ـ مازالت تفوح بعبيرها. قرأتُ تلك الإشارات الصامتة كتعبير لا إرادي عن رغبتها. واستحوذ عليّ هذا التناقض ما بين فتات الورود المضغوطة والبطاقات البريدية المكتوبة على عجل.

أما الرسائل التي كنتُ أرسلها فكانت محل عملية لا تنتهي من التحرير والمراجعة مرارًا، وغالبًا ما كانت مطوّلة للغاية. احتفظتُ معي بنسخة من المسودة النهائية، وبمجرد أن أُسقط المغلف في صندوق بريد المدرسة، كانت نسخته تكتسب قيمةً إضافية، كما لو أنها عندئذٍ سجل لما سوف تمسكه بين يديها قريبًا، فأعيد قراءتها لأكتشف المزيد من المبالغات والزيادات.

حلّ نوفمبر، وكان عيد ميلادي الرابع عشر يقترب مسرعًا. قلتُ لنفسي إنني سأتلقى الآن ولا شك ردًّا مناسبًا على رسائلي. في صباح ذلك اليوم، تطلعت لصورتي في المرآة وقررت أنني صرتُ أطول منها. انطلقتُ إلى صندوق رسائلي فوجدته خاويًا. لقد غادرت القاهرة منذ تسعة أسابيع ـ واحد وستين

يومًا بالتحديد. تلاشتْ علامات الصندل الصيفي من حول قدميّ الآن، وصار الجو شديد البرودة حتى إنني في أغلب الصباحات أرتدي زوجين من الجوارب بعضها فوق بعض، ومع ذلك أشعر بأصابع قدميَّ وكأنها كرات صغيرة من الثلج بين يديّ مع نهاية كل يوم.

هل نسيتْ مُنى ونسي أبي؟

في ذلك النهار كرهتُ جميع مَن في مدرسة «دايلسويك»، ولم أُخبر أحدًا، ولا حتى «آلكسي»، بأن اليوم هو عيد ميلادي. وقبل فصل الصباح جريتُ إلى مكتب الاستقبال.

«كلا يا سيد ألفي، لم يتصل بك أحد»، هكذا أخبرني كبير البوّابين.

وحينئذٍ، وقبل أن تدق الساعة العاشرة، فتح باب الفصل وقال للمدرس: «أرجو المعذرة يا سيدي، لكن السيد ألفي مطلوب في مكتب الاستقبال».

ومَن كان الذي وجدته واقفًا في الردهة، باسمًا وملتفًّا بمعطفه ووشاحه، غير أبي! أوشكتُ أن أبكي، لكنني تذكرت حينها ما قالته لي أمي عن ضرورة التعامل بحذر مع أحزاننا. توقعتُ أن أجد مُنى بالخارج تقف على ممر السيارات المغطى بالحصى بذراعين مفتوحتين. وحين لم أجدها هناك قلتُ لعلها في السيارة. غير أنها كانت في المنزل، في الطابق الثالث من شقتنا بشارع فيروز في الزمالك.

كان أبي قد نجح في إقناع السيد «جايلبرث» العنيد بأن يدعني أتغيب عن اليوم الدراسي بما أنه كان يوم ميلادي. كانت مُنى على حق: يستطيع أن يُقنع أي شخص بأي شيء. بل كان مسموحًا لي أيضًا أن أفوّت ساعة الدرس المسائية وبالتالي أُعفى من تسليم واجباتي في اليوم التالي. كان عليّ فقط أن أعود وقت إطفاء النور في الغُرَف. كان من الرائع أن أجلس على جلد الفرش الناعم والدافئ في السيارة طوال الطريق إلى لندن حين كان يُفترض أن أكون جالسًا على ذلك المقعد الخشبي الصلب ناظرًا للسبورة. حين انطلقنا بالسيارة، تمنيتُ لو تقع معجزةٌ ما فلا أعود أبدًا إلى ذلك المكان البارد مرةً أخرى. تركني أبي أختار الموسيقى.

«لقد طرتُ من جينيف لأقضي اليوم معك»، هكذا قال فجأة، وتساءلت: هل لمح عليّ خيبة أمل بسبب غياب مُنى؟!

سرنا في متنزه الـ«جرين بارك»، كانت الظلال كثيفة وحميمة ما بين الأشجار. كان أحد تلك الأيام الإنجليزية التي تقف ما بين الفصول: الهواء معتدل ومع ذلك مُفعم بأنفاس الشتاء الوشيك. بين الحين والآخر يُسمع هدير بعيد لمحرك سيارة تتجه صعودًا نحو الـ«بيكاديلي». فيما عدا هذا، كانت المدينة هادئة هدوءًا غير معتاد. بدأ مطرٌ ناعم في السقوط. بعد خطوات قليلة فتح أبي مظلته وغطتنا معًا. تمنيتُ له كل شيء طيّب في هذا العالم: أن يُحقق كل أحلامه وكل مخططاته السرية الغامضة. وفجأة شعرت بالسعادة لأن مُنى كانت من نصيبه هو، وداهمني رضا غريب بنظام الأشياء.

وصلنا شارع «ساوث مولتون». مررنا بمتجر «براونز»، والذي كان المتجر المفضل لدى أمي في لندن. رأيت في واجهته معطفًا، فقلتُ لأبي: «مُنى سيعجبها هذا»، فأصدر همهمة قصيرة.

دخلتُ إلى المتجر فتبعني.

كان معطفًا من الفراء بياقةٍ بديعة. كان بوسعي أن أراها ترتديه، وشعرها مطروح بطريقته المألوفة، وكأنها إحدى نجمات السينما في فيلم قديم.

«لا بد أن تشتريه لها».

برزت عينا أبي حين تفقد بطاقة السعر وخاطبني بالإنجليزية قائلًا: «إن سعره غالٍ بشكل مهول».، فشككتُ أنها عبارة موجهة لموظفة المتجر التي كانت تحوم بالقرب منا.

وكرر من جديد: «غالٍ إلى أقصى حد».

قلت، بالإنجليزية أيضًا، في سمت ولهجة صبي بلغ الرابعة عشر من عمره: «لا بد أن تشتريه؛ لأن ماما مُنى جميلة بشكلٍ مهول، وجميلة إلى أقصى حد كذلك».

دعوتُها ماما مُنى لأنني عرفت أن هذا سوف يسره.

فضحك، ثم تناول المعطف وأخذه إلى الكاشير.

تساءلتُ ما إذا كان سيذكر لها أنني أنا من وقعت عيناه على المعطف، أو سيُعيد عليها ما قلته عنها. وبينما ألاحظ السيدة وهي تطوي الفراء الأسود بداخل الورق الحريري النسيج أدركتُ أنه

على الأرجح لن يفعل؛ لأن الناس حين يشترون هديةً لشخصٍ ما يحبون أن تبدو الفكرة فكرتهم.

أكلنا في «كلاريسيز»؛ مطعم مُنى المفضل، اخترته لأنني كنت أعرف أنها ستختاره لو أنها كانت معنا. كانت ترى أنهم يُعدّون أفضل فوندو جبن في لندن، رغم أنها وافقتني حين قلتُ إنه لا يوجد مكان في جودة كافيه «دو سوليه»؛ وهو مطعم في سويسرا كنا نحبه كلانا ولكن لم نذهب إليه معًا بعد. وبالطبع طلبت الفوندو. طلب أبي قطعة لحم ستيك كبيرة كانت تنز دمًا كلما غرس السكين في اللحم الثخين.

في لحظةٍ ما، وحين عدتُ من الحمّام، رنوتُ إليه عبر المطعم. بدا رجلًا مختلفًا كل الاختلاف من تلك المسافة. تبددتْ كل ثقته، كان يميل مستندًا على المائدة بمرفقيه، وهو يهز إحدى قدميه باستمرار. حين اتخذت مجلسي أمامه، تطلع نحوي لبرهة قبل أن يتحدث.

ـ «هل تفعل هذا عادةً؟».

ـ «ماذا؟».

ـ «ما فعلته توًّا: هل تترك طعامك عادةً للذهاب إلى الحمام؟».

ـ «لا أدري».

مال نحو المائدة أكثر، وتحدث بسرعة هامسًا تقريبًا: «من الآن فصاعدًا، إياك أن تفعل ذلك. ولا تتردد على الأماكن ذاتها. لا تجعل من السهل على أي شخص أن يعرف تحركاتك».

تطلعتُ إلى وجهه: كانت عيناه مفتوحتين على اتساعهما، والتوتر يجعّد شفتيه. بدا أبي مثل طفلٍ رأى لتوه شبحًا.

«مفهوم؟»، سألني حين لم أجبه.

أومأت: «مفهوم».

قال: «جيد، جيد».

بعد أن أنهينا طعامنا طلبتُ آيس كريم، وطلب هو قهوة سوداء. وحين أتت قهوته أشعل سيجارة وراح دخانها يتطاير في اتجاهي. بدا أن أفكاره قد رحلت به إلى مكانٍ آخر. الآن، ومن هذا القُرب، يمكنني أن أرى ما الذي رأته هي فيه: ثيابه الأنيقة المفصلة خصيصًا له، أصابعه المشذبة بكل عناية، وذلك التحدي في عينيه. رجل لا يتبع إلا قانونه الخاص. وأردتُ أن أكون هو؛ أن أؤمن مثله بالملكية الدستورية وأن أخدم قضيتها. أردتُ أن أكره، بالقدر نفسه من الانفعال، ما اعتاد أن يسميها «تلك السفاهة الصبيانية التي يعتبرونها ثورة»، ثم أن أبزغ من جديد، وفجأةً تمامًا، ماركسيًّا، بكامل كياستي وتهذيبي، ذلك «لأن كل سن تتطلّب حلولها الخاصة». أردتُ أنا أيضًا لقاءات سرية في جينيف، وحُلفاء في باريس شاهدت معهم مسيرة التاريخ وعملت معهم على تغيير مساره. بينما أجلس هناك في مطعم «كلاريسي»، تمنيتُ لو أمكنني التعامل معه كأنني غريب عنه.

سألني: «هل تتشوّق للإجازة؟».

أومأتُ لأن فمي كان ممتلئًا.

«سوف نلتقي في «مونترو». الأغلب أنكما سوف تصلان إلى هناك قبلي. ربما أصل بعد يومٍ أو اثنين. ولكن عندئذٍ يمكننا جميعًا أن ننطلق إلى الجبال».

لم يكن التزلج يثير اهتمامي، وكل ما أمكنني التفكير فيه هو أن أكون وحدي معها.

«ماذا ترى؟ هل الـ«مونترو بالاس» هو المكان المناسب؟».

لم يكن من عادته أن يستشيرني في مثل تلك الأمور. وكان فندق «مونترو بالاس» هو المكان الذي نقيم فيه على الدوام. ما كان يسألني عنه في حقيقة الأمر هو ما إذا كنت أعتقد أن مُنى سيعجبها ذلك الفندق.

«نعم. أظن أن مُنى ستحبه كثيرًا».

بدا أنه استراح لهذا. «أظنها ستحبه، إنه جميل. سأتصل بـ«هاس» ليحجز لنا الغرف».

كان «هاس» هو محامي أبي السويسري وكاتم أسراره القديم، ورغم أن مقره كان في جينيف، فقد كان هو من يقوم بالحجز لنا في الإجازات. حتى حين كانت أمي لا تزال معنا، كان مكتب «هاس» هو من يعالج مثل تلك الأمور.

واصل أبي قائلًا: «ربما نقضي هناك أسبوعًا بكامله، ما رأيك؟ أم سيكون هذا مملًّا؟».

«لكن إجازتي أربعة أسابيع تقريبًا».

«أعلم»، قالها واحتسى رشفة بطيئة من قهوته. «سوف تقضي بقية الوقت في القاهرة. سأصحبها إلى باريس لبضعة أيام قبل أن نلحق بك في البيت».

هذا ما كان يتجنبه إذن، وحين أدركتُ أن هذا ما طبع بصمته على كل ما جرى من قبل، وجدتني أتخيله يفكر بالأمر في السيارة، وفي المتجر وحتى ونحن نتمشى عبر المتنزه.

«لم يسبق لها السفر إلى باريس أبدًا. وقد حان الوقت لأعرّفها بطالب وحيدر على نحوٍ لائق. ولا بدّ أن تعود إلى القاهرة لأن نعيمة تفتقدك. لم أخبرك بهذا من قبل، ولكنني ضبطتها تبكي أكثر من مرة».

أوصلني بالسيارة حتى دار المبيت الخاصة بالمدرسة، وأعطاني لفافة من مُنى. وقفتُ أراقب السيارة تستدير وتتسارع صاعدةً التل ما بين الأشجار. تتبعتُ أضواءه في الظلمة حتى بعد أن توغلت السيارة عميقًا في الغابة: كان الضوء يخبو ويومض مثل جذوة نار تخمد.

استدرت لأدخل الدار، ورأسي مشحون بكل الجدالات التي لم أخضها معه. في طريقي للغرفة نزعت شريط اللفافة. بيجامة نوم صنعة حسن الإسكندراني؛ الترزي القاهري الذي كان يخيط لنا كل بيجاماتنا وكذلك مفارش الأسرّة والمناشف. تصورتُها تدخل إلى محله وتختار القماش، وتناقش التفصيلة. لكنني عندئذٍ

عدتُ من جديد أتخيلها تتصل بالمحل تليفونيًّا وتطلبها منهم في اللحظة الأخيرة. وصلتُ قُبيل انطفاء نور الغرف وأولاد كثيرون يصطَفُّون بالفعل خارج الحمّامات وفي يد كلٍّ منهم فرشاة أسنانه وعلى شعرها امتدّ المعجون.

كان «آلكسي» في الفراش ولكنه مُفعم بالأسئلة.

«هل صحيح أن اليوم عيد ميلادك؟ كيف لم تخبرني؟ هل كان هذا هو والدك الذي أوصلك بالسيارة؟ إلى أين اصطحبك؟ لماذا لم تقدمني له؟».

كانت الساعة حوالي العاشرة والنصف مساء، وسمعتُ صوت خطوات السيد «جايلبرث» الثقيلة تقترب في الرواق الطويل. ارتديت بيجامتي القديمة ودخلت الفراش بسرعة. لم أكن أطيق صبرًا على كتابة رسالة جديدة لمُنى، غير أن السيد «جايلبرث» دس رأسه من خلال فتحة الباب وقال ما يقوله كل ليلة ـ «ليلة سعيدة يا بنات» ـ وأطفأ النور.

الفصل الخامس عشر

في تلك الليلة عاتبتُ الإله نفسه الذي حمدتُه مراتٍ لا تُحصى على مُنى. كان لا بدّ أن يجعلنا في العُمر نفسه. ثم تحوّلت أفكاري إلى أمي، وأصابني الذعر عندما لم أستطع أن أتذكر أين وضعت صورتها آخر مرة. قبل زواج أبي اعتدتُ أن أضعها في جيبي طيلة الوقت.

«عمَّ تبحث؟». همس «آلكسي».

«لا شيء. عد لنومك».

لكني رأيته في الضوء الكابي يعتدل جالسًا. ولم يعد للنوم حتى عدتُ إلى فراشي. جذبت البطانية وغطيتُ نفسي بها تمامًا وأدرت له ظهري. حين غلبتني الدموع لم أشهق، ولكن عند ذاك فضحتني سلسلة من الأنفاس العميقة. لم يقل شيئًا. اطمأننتُ فأطلقت العنان لبكائي الآن حتى انفكتِ العقدة الصلبة. ومر صمتٌ طويل قبل أن يتحدث.

«أتعلَمُ ما أفضل شيء في سن الرابعة عشرة؟».

كان «آلكسي» يكبرني بعام، ولم أكن في مزاج يسمح بتلقي النُّصح.

«إنه الاحتلام. لقد احتلمتُ لأول مرة العام الماضي. إنها أحلامٌ خلابة. لا أدري إن كانت البنات يحدث لهن الأمر نفسه، وأظنه لا يحدث لهن في الأغلب. يرى الرجل في المنام امرأة أحلامه، المرأة التي سوف يتزوجها ذات يوم. هكذا أخبرني أبي، وهذا حقيقي».

لم أستطع النوم بعد ذلك. وبعد أن توقف «آلكسي» عن الكلام بفترةٍ طويلة، اضطررتُ أن أوقظه لأستعير منه الكشّاف اليدوي الصغير بحجم القلم، والذي كنا أنا وهو نسميه كشاف «جيمس بوند»، لكي أستطيع أن أكتب رسالتي تحت الأغطية. كان عليّ أن أحترس لأن هذا وقت خروج السيد «جايلبرث» ليفسّح كلبه «جاكسن»، في الحقول المحيطة بالدار. أوحشتني مُنى وحشةً قاسية إلى حد أنني اضطررتُ للتوقف عن الكتابة وغطَّيت براحتي الألم الذي أحسسته في صدري نحوها. أغمضتُ عينيّ وحاولتُ أن أرى عينيها، وأن أسمع صوتها، وأن أشم رائحة ذلك الموضع من رقبتها التي قالت لي إنه ملكي أنا ولا يخصُّ أحدًا غيري. وفي هذه الحال أخذني النعاس.

* * *

في السادسة وأربعين دقيقة صباحًا كنت بكامل الزي الرسمي للمدرسة ولكن تحت الأغطية، أخوض جولة أخرى مع تلك الرسالة. كان الجو أشد برودة رغم طلوع النهار،

فالسماء الزرقاء، إن كانت ما تزال هناك، انحبستْ تمامًا وراء غيومٍ كثيفة ومضطربة، وفروع الأشجار سوداء عارية من كل ورقٍ. حين أتتْ مُنى إلى هنا مع أبي، بعد أسبوعين من التحاقي بـ«دايلسويك»، قالت كم أنها تعشق الريف الإنجليزي، وكم يكون رومانسيًّا في الشتاء، وكم تفتقد إنجلترا. وحين قلتُ إنه كئيب قالت إن تلك الكآبة تحديدًا هي سر رومانسيته، وطلبت مني أن أقرأ «مرتفعات وذرنج»، عند ذلك، وبعد أن قرأت الكتاب بقيتُ لا أفهم ماذا كانت تقصد. كان يوجد بمدرسة «دايلسويك» أولاد كبار حتى سن الثامنة عشرة؛ فهل ينتوي أبي الإبقاء عليّ هنا طوال كل هذه الفترة؟ بدأت بشكرها على البيجامة، ثم سألتها إن كانت تعرف الأحلام الساخنة، وما إذا كانت تراها هي أيضًا خلابة. سألتها عمّن تراه في أحلامها، وما إذا كان أبي. ثم كان عليّ أن أتوقف عن الكتابة لألحق بموعد الإفطار.

* * *

كان عالم «آلكسي» جديدًا عليّ كليًّا. ورغم أنه كان يميل للتباهي، فحين كان يتحدث لا أكاد أريده أن يتوقف عن الحديث. كنت أرقد على فراشي، شابكًا يديَّ تحت رأسي، وأراقبه كمن يتابع فيلمًا.

ـ «بابا في «هامبورج» حاليًا».

ـ «وماذا يفعل في «هامبورج»؟».

فيجيب «آلكسي» متفاخرًا: «إنه القائد الرئيسي للأوركسترا السيمفوني».

دار هذا الحوار في وقت مبكر من تعارفنا، وكنت قد وصلتُ توًّا إلى «دايلسويك»، وقد مضى على وجود «آلكسي» هناك عام كامل، غير أنه ما زال لديه لكنة ألمانية غليظة.

ـ «قبل هامبورج كنا في يينا، وهناك كان قائد الأوركسترا الفيلهارموني، وقبل ذلك كنا في «شتوتجارت» لأنه كان يقود الأوركسترا السيمفوني لإذاعة «شتوتجارت». ثم عُرض عليه عمل القائد الرئيسي لأوركسترا «فانكوفر» في كندا، لكنه لم يرغب أن يعيق دراستنا. ولهذا السبب كان عليهم إرسالنا أنا وأختي إلى مدارس داخلية في النهاية: أختي «آناليزا» كان عليها الذهاب إلى مكانٍ ما بالقرب من «دوسلدورف»، المسكينة».

ـ «هل تفتقد ألمانيا؟».

ـ «أفتقد «آناليزا». أحيانا تكون مزعجة جدًّا، ولكن أيضًا مرحة حقًّا. تعرف أسماء النجوم».

ـ «نجوم السينما؟».

ـ «كلا، بل نجوم السماء التي تضيء فوقنا. وأفتقد بابا أيضًا. كل صباح كان دائمًا هو من يستيقظ أولًا ثم يوقظنا، وإذا تكاسلتُ كان يحك ذقنه غير الحليقة بوجهي. وماما طبعًا. أفتقدها كثيرًا، غناءها بالذات».

وتطلع إليّ عندها بعينين دامعتين قائلًا: «لا أعرف لمَ أقول ذلك كله».

واستطرد بعد وقفة طويلة: «اختار اسمي تيمنًا بـ«آلكسيفسكايا»؛ إنها محطة مترو في موسكو حيث تبادل ماما وبابا قبلتهما الأولى. يقول هو إن ركبتيه كانتا ترتعشان، وتقول هي إنها لم تلحظ أي ارتعاش. التقيا في موسكو حيث كانت أمي أيضًا تعمل بالموسيقى، كانت مغنية.**لكنها لم تعد تعمل.** واختارا اسم «آناليزا» على اسم «آناليزا سيما»، «ملهمة» الشاعر الإيطالي «يوجينيو مونتالي» ـ وملهمته يعني التي تلهمه كتابة قصائد جميلة. كان والداي يعشقان قصائد «مونتالي». هل سبق لك أن قرأت شِعره؟».

لا يكف بعض الأولاد في «دايلسويك» عن محاولة استعادة الماضي، يود كلٌّ منهم أن يخبرك عن حياة تركها خلفه، تلك الحياة التي صار الآن مُستبعدًا منها. غير أن مثل هؤلاء عادة ما يكونون مملين، ولا يعرفون مقدار ما كان يعرفه «آلكسي» عن الشِّعر والموسيقى. وكنت أناديه بـ«صاحبي آلكسي» هناك، لأنه وسط ازدراء الإنجليز الطفيف ولكن المتواصل كذلك، شكَّلنا أنا وهذا الفتى الألماني حلفًا. وسَرّنا أن نعرف حقيقة أن العربي والألماني هما موضع استهجان هنا بالقدر نفسه، وهو ما وثّق ما بيننا من ألفة وما شعرنا به من ولاء بعضنا تجاه بعض. ولهذا أصررنا أن نتعامل بأسمائنا الأولى مجردة.

ـ «هل لاسمك معنى في لغتكم؟».

ـ «معناه النور الخاص بي. اختاره أبي».

ـ «ماذا يعمل والدك؟».

لم أكن أبدًا واثقًا كل الثقة من إجابة هذا السؤال. حين كنت أُسأل هناك في القاهرة، اعتدت القول بأنه وزير متقاعد، لأن هذا ما أخبرتني أمي أن أقوله. ولوقت طويل ظننتُ أن وزيرًا سابقًا مسمّى حقيقي لوظيفةٍ ما. عرفت أن أبي لم تكن له أية وظيفة، وأنه لم يكن مضطرًا أن يعمل لكسب المال، وأنه قد ورث ثروة لا بأس بها عن أبيه، والذي كان بدوره الأخير في سلسلة طويلة من تجّار الحرير: هناك كتاب على الرف بقلم الرجل الذي بدأ الحكاية كلها؛ مصطفى باشا الألفي، يؤرخ فيه لرحلاته الطويلة البطيئة إلى الصين قبل نحو ستة قرون. وافترضتُ بطبيعة الحال أن جميع الآباء مثل أبي: خلال الوقت القليل الذي يقضونه في البيت يميلون للراحة مثل محاربين في هدنة، للاسترخاء والقراءة في غُرف المكتب، قبل أن يعودوا مجددًا إلى ذلك الهاجس السري الذي كرّسوا له حياتهم. ورغم أنه لم يتحدث أبدًا عن ذلك الهاجس المسيطر، فقد كوّنتُ طَوال الوقت مفهومًا مُبهما حوله وما عساه أن يكون. لعلها تلك النوبات من الصمت التي تغلفه كلما ذكر أحدهم، عادةً ما يكون ضيفًا، أمامه الدكتاتورية العسكرية التي تحكم بلادنا، أو حين يقول أحد أقاربنا في زيارةٍ

عبارات من قبيل: «الطريق الذي تسير فيه ليس له إلا نهاية واحدة». هذا كله جعلني أفهم، حتى بوعي الصبي الصغير، أن أبي ألزمَ نفسه بخوض حربٍ ما.

«حسنًا!» ألحّ «آلكسي».

قلتُ: «هو أيضًا كان قائدًا مثل أبيك».

ـ «حقًّا؟ يا لها من مصادفة! أي أوركسترا؟ كنت أعلم أننا أشقاء بطريقةٍ ما، كنت أعلم. إذن أي أوركسترا؟».

ـ «لست متأكدًا».

ـ «ماذا تعني «لستُ متأكدًا» هذه؟ كيف يمكن أن تكون غير متأكد؟ لا يهم إن كانت أوركسترا صغيرة، قل لي وحسب».

ـ «لا أستطيع أن أتذكر». قلتها وأنا أشعر بوجهي يحترق تحت حملقته.

ـ «أم أنك تعني أنه قائد حافلة عامة؟ أو ربما قائد كتيبة؟ أو قائد روحيّ؟».

وراح يضحك فرأيتُ أن الأسلَم أن أضحك معه.

الفصل السادس عشر

قبل يومٍ واحد من الموعد المحدد لسفري إلى «مونترو» لقضاء إجازة الكريسماس، دس السيد «جايلبرث» رأسه من الباب، وقال: «سيدة اسمها مُنى على الهاتف».

اندفعتُ كالطلقة وتجاوزته، كنت أنزل جريًا على السلالم، طاويًا ثلاث درجات في كل وثبة، ولم أتوقف حين صاح بي: «على مهلك!».

قالت: «لا أطيق صبرًا على رؤيتك يا توتة».

كان الشوق حجرًا في فمي.

قالت: «أنا نزلت في الفندق، لَكَمْ أحبه. سأراك في المطار»، ثم أغلقت الخط.

بدت رحلة الساعتين حتى «جينيف» وكأنها امتدت إلى الأبد، كم أكلني نفاد الصبر ناظرًا كل لحظة إلى عقارب ساعة يدي.

لعلّ أبي كان في «زيورخ»، أو «بيرن» أو «جينيف»؛ لم يكن هذا واضحًا بالمرة. أمامنا أنا ومُنى يومٌ أو اثنان، بل ربما ثلاثة، وحدنا تمامًا. ذلك كل ما كان يهمني.

* * *

بدا كأن اللون الوحيد في صالة الوصول الرمادية يشعّ من وجنتيها المتوردتين من البرد. لم تكن ترتدي معطف الفراء. قلت لنفسي لا بد أنه لم يخبرها بأنني من اختاره لها. جلسنا نراقب الطريق نفسه في القطار إلى «مونترو». ومرةً بعد أخرى غرستُ أصابعي في فخذي خلسةً.

حين وصلنا الفندق كان عليّ أن أترك أمتعتي مع الخادم عند المدخل لأن مُنى شدتني نحو المصعد فورًا. وبمجرد أن انغلق الباب حتى شبكت ذراعها في ذراعي وأحاطت بأصابعها ذلك الجزء ما بين مرفقي ورُسغي. راقبتُ صورتنا المضببة منعكسة على نحاس الأبواب المصقول. أخطأتُ التقدير: لم أكن قد بلغتُ طولها حتى الآن، لكنني أكاد. دائمًا ما كانت هناك تلك الخفة في إمساكة مُنى بي، كما لو أنها ليستْ هناك حقيقةً. وفي المقابل، كانت أمي دائمًا ما تقبضُ على يدي بشدة، وكلما نبهتُها لذلك كانت تعتذر وتُرخي قبضتها، لتعود وتنسى بعد قليل وتعتصر أصابعي مرةً أخرى كما لو أنها جدائل حبلٍ مُراوغ يكاد يتفلّت منها.

اقترحتُ على مُنى أن نتقاسم أنا وهي جناحها حتى يصل أبي. نظرتْ نحوي كما لو كنتُ طلبتُ منها أن تخلع عنها ثيابها.

قلت مُفسرًا: «لتوفير المال».

فضحكتْ: «منذ متى وأنت تهتم بتلك الأمور؟»، قبَّلتني أسفل صدغي، ثم أخذتني إلى غرفتي. وقفنا معًا على الشرفة المطلة على البحيرة الزرقاء المشرقة، كان سطحها مرآةً تعكسُ زرقةَ السماء والسُّحب العابرة، وصارَ ضوء الشتاء الضعيف أدكن قليلًا.

قالتْ: «الليلة، سنأكل في كافيه «دو سوليه»، ونبقى هناك حتى يطردونا للخارج».

حين دخل خادم الفندق بالأمتعة تركتْ يدي وتنحنحتْ، وما إن غادر حتى ضحكت ضحكة خبيثة.

* * *

لشدّ ما يخجلني أن أعترف بأن المأساة التي وقعت فيما تلا ذلك لم تستطع أن تُفسد الذكرى العذبة لتلك الأيام الثلاثة التي قضيتُها في «مونترو» أنا ومُنى فقط. بل إنها ما تزال تومض في عقلي بإشراقة جوهرة سوداء، وربما تحديدًا بسبب ما وقع بعدها.

سرنا لفترات طويلة على طول البحيرة، فاصلين بين نزهة وأخرى بوقفات في المقاهي لتناول الشاي والكيك والآيس كريم. كنت دائمًا متأهبًا للإمساك بمعطفها بينما هي تدس ذراعيها

العاريتين بداخل بطانته الساتان السوداء. كانت تحب معاطف الفراء لأنها تتيح لها أن ترتدي من تحتها بلوزات سوداء أنيقة بلا أكمام.

ـ «أين معطفك الجديد؟».

ـ «أحفظه حتى يكون كمال هنا».

بدت زوجةُ أبي ذات السبعة والعشرين عامًا أصغر من سنها، وحتى أنا كنتُ أترك الانطباع بأنني أكبر سنًّا. لم تكن السنوات الأربع عشرة التي تفصل ما بيننا ظاهرةً كلها للعابر الغريب. تعمدتُ ذات مرة، وأنا واعٍ بالاهتمام الخاص بنا من المائدة المجاورة، أن أميل نحوها وأرفع خصلة شعر شاردة وأطويها وراء أذنها. ابتعدت هي. حاولت أن أتخيل ما تثيره أُلفتنا من أسئلة: هل يظنونها فاجرة لامبالية منشغلة بعشيقها الشاب؟ وحين غادرنا استمتعتُ كذلك بنظرات الحسد والتهنئة التي تلقيتها من أولاد في مثل عمري يسيرون عند البحيرة في مجموعات صغيرة. أي مراقب مدقق كان سيلحظ ولا شك ما يسببه لي جمالها من توترٍ وارتباك، غير أنني أصررتُ على خداعي المتعمد والمخزي لنفسي ، وهو ما كانت تجد على الدوام طريقة لتشجعه. كانت تعقد ذراعها في ذراعي، وتستند بكتفها إلى ظهري فأكون أمامها قليلًا، مثل ضابطٍ يتقدم المسير. ما هي إلا خطوات معدودة حتى تترك ذراعي وتتقدمني، تتأمل المياه، وهي تتساءل بالتأكيد لماذا لم يتصل أبي هاتفيًّا، وشعرها يتطاير بخفة في نسيم ما بعد الظهر.

في طريق عودتنا مررنا بعاشقَيْن مستغرقَيْن في قُبلة. لا أظن أنني كنت أحملق فيهما، ورغم ذلك قرصتني وهي تقول: «توقف، أنت صغير للغاية على تلك الأمور». ولكنها بعد ذلك أصرتْ على أن أقيس سترة وربطة عنق رأتهما في واجهة متجر بالقرب من الفندق. وعندما جربتُهما هزتْ رأسها قائلة: «لا، يليقان بالأكبر سنًّا».

* * *

في كل مرة كنا نعود للفندق كانت تسأل مكتب الاستقبال إن كان هناك أي شخص اتصل، وكانت الإجابة دائمًا لا. وبعد أن نأخذ المصعد، كانت تطيل النظر نحو الأرض أو تقول: «لا أدري لماذا لم يتصل»، أو «إنه لا يخبرني أبدًا أين هو».

كان تأخر أبي أشبه بسحابة تتكاثف مع كل يوم يمر. وبحلول مساء اليوم الثالث حتى أنا كنت أريده أن يأتي أو يتصل. أيقظني في تلك الليلة الضوء الأبيض الناصع للبدر، والذي احتوى الغرفة بعينه المحدقة في برودة وقسوة. سمعتُ خفقان قلبي مُدويًا. اتصلتُ بغرفتها وتركت الهاتف يدق حتى ردتْ.

ـ «كمال؟».

ـ «لا، إنه أنا. ألم يعد؟».

ـ «لا يا حبيبي، عُد لنومك. سيكون هنا غدًا».

* * *

لكي تستعيد مُنى لغتها الفرنسية قبل أن تتآكل، تعهدتْ بأن تقرأ صحيفة «لا تربيون دي جينيف» كل صباح على الإفطار. ولولا هذه الجزئية الصغيرة لما كنا علمنا في الصباح التالي بخبر **«عاشقان يفترقان بالقوة في منتصف الليل»**، فأنا لم أكن معتادًا حينذاك على قراءة الصحف.

الفصل السابع عشر

لم تترك الجريدة إلا حين جذبتُها منها.

كانت قد قالت: «أوه، رباه».

للحظة بدت الشرفة التي كنا نجلس فيها سوف تنقلب وتُطيح بنا في عمق البحيرة المعتمة. تطلعتُ للأعلى فرأيت المظلات الهوائية لا تزال هناك، مُعلقة ما بين السماء والأرض.

قالت: «هيّا بنا، علينا أن نغادر. اتصل بالشرطة. لماذا لم نسمع بهذا؟ هيّا». ثم وقفتْ واتكأت للحظات على مائدة الإفطار.

هَرَعَتْ نحو المصعد، وأنا أتبعها.

في الغرفة بَدَأَتْ في حزم الحقائب. كانت حركاتها مفعمة بالغضب والحنق. وبين الحين والآخر تمسح دموعها ثم تواصل العمل.

حاولتُ أن أقرأ الموضوع. ولم تكن الصعوبة تقتصر على لغتي الفرنسية الضعيفة ولكن لأن عينيّ لا تكادان تستقران على الكلمات، كأن كل حرف في كل كلمة مشحون بطاقة مُحرّكٍ صغيرٍ بداخله.

«اليوم، في الساعات الأولى من الصباح، تم اختطاف الوزير السابق والمعارض البارز كمال باشا الألفي من شقة تمتلكها «بياتريس بيناميور»، إحدى ساكنات جينيف».

بدت الآنسة ـ أو لعلّها المدام ـ في عُمر أبي على الأقل، ونظرًا لميل أبي نحو النساء الأصغر سنًّا، شعرتُ أنها أكبر سنًّا وهَيْبة بشكلٍ ما. كما كان لاسمها رنين مخادع في أذنيّ. ظهر تعبيرُ الحزن على وجهها في صورة الأبيض والأسود المنشورة تحت العنوان مباشرة:

«Un couple séparé de force au milieu de la nuit».

أثار هذا سخطي، فلم يكن هناك دليل على وجود «**عاشقان يفترقان بالقوة في منتصف الليل**»، لماذا يكونان عاشقَيْن وليس مجرد صديقَيْن، أو زميلَيْن، أو شريكَيْن، أو حتى عدوين؟ وقد اشتدت تلك الشكوك فقط حين قرأت أنه إلى جانب ساعة يده وسجائره وولاعته الفضية، كان من الواضح أن أبي قد ترك دبلة زواجه على المنضدة المجاورة للفراش. كان أبي ينام على الدوام والدبلة في إصبعه، كانت هذه جزئية مهمة، فبقدر ما فهمت كانت تلك المتعلقات الشخصية هي الدليل الوحيد على وجوده في هذه الغرفة من الأصل. يمكن لأي شخص أن يشتري أشياء مُطابقة لها ويزرعها هناك لكي يُلفق قصة اختطاف.

كانت مُنى عندئذٍ تُقلب صفحات دليل الهاتف في عصبية.

ربما يكون أبي هو نفسه من «قاد» مسألة الاختفاء هذه، لتضليل متعقبيه أو ليهرب من وضعٍ لا يريده. لعله كان بحاجة لأن يرسل لنا رسالة أو لعله في طريقه إلى الفندق الآن بينما نُحضّر الحقائب.

قلتُ: «يجب ألا نغادر مع ذلك، ليس الآن؛ فقد يأتي أبي فلا يجدنا».

نظرتْ إليّ فشعرتُ بالحاجة لأن أفسر مقصدي. ولكن طرق أحدهم الباب لحظتها فركضت إليه. كان خادم الفندق يُمسك بمغلف صغير. كان به رسالة تليفونية وردت الليلة السابقة.

سألتْ مُنى بلهجة حادة: «لماذا لم أتسلمها قبل هذا؟».

قال الخادم: «لقد وصلتْ في وقت متأخر يا سيدتي».

وقفتُ بجانبها وقرأنا الرسالة القصيرة معًا:

«اتصلي بي على الفور. تشارلي هاس، جينيف». ثم تضمنتْ رقم هاتف.

جَلَسَتْ مُنى على حافة الفراش، والهاتف في حجرها. جلست بجانبها، متلهفًا على سماع كل كلمة، فسمحت لي ولم تنقل سماعة الهاتف إلى أذنها الأخرى. كل ما قاله محامي أبي هو: «لا بد أن تحضرا في أسرع وقت».

* * *

على القطار المتجه إلى جينيف لم نكد نتحادث. رحتُ أتطلع من النافذة إلى النهار الفضي. ظهر من الأسفل طريقٌ نحيل، ثعبانٌ أسود يظهر ويعود يختفي وسط الحقول الكثيفة. على التلال العابرة ثمة منازل تنفث مداخنها نفخات من الدخان. كيف لم أتوقع أمرًا كهذا؟ بل توقعتُه. ألم أعلم أن له أعداء أصحاب نفوذ، وأنه كان مُراقبًا أغلب الوقت؟ ما الذي سيفعلونه به؟ هل سأراه ينظر إليّ بعد ذلك أبدًا؟

كل ما كنتُ أجهله بشأن أبي ـ حياته الخاصة، أفكاره، لماذا تم اختطافه ومن فعلها؟ ماذا فعل حقًّا ليثير مثل تلك الأفعال ضده؟ أين كان في هذه اللحظة؟ هل يُعد من بين الأحياء أم في عِداد الموتى؟ ـ كل ذلك كان مثل قناع أختنقُ وراءه. أحسستُ بالذنب، ومازلتُ أحس به حتى اليوم، لأنني أضعتُه، ولعدم معرفتي كيف أعثر عليه أو أشغل مكانه. كنتُ أخذل أبي في كل يوم.

لم أعد أطيق وجود المرأة التي تجلس الآن بجانبي، مُخفية عينيها وراء نظارة سوداء، وأرنبة أنفها تلمعُ بالحُمرة. لا أستطيع أن أفهم لماذا تزوجها أبي. مددتُ لها يدي فناولتني ذلك المقال من جديد.

* * *

وراء «بياتريس بينامیور» نافذة لا تُظهر أي علامة على النهار، مجرد مستطيلين أسودين يفصل بينهما إطار أبيض رفيع.

كانت عيناها؛ المرهقتان من أثر النوم والصدمة، تحدقان خارج الصورة. كان شعرها مستويًا مفرودًا، وحين قرّبتُ الجريدة من وجهي صار بوسعي أن أرى علامات النوم على وجنتيها، تلك العلامات التي تخلّفها طيات القماش. لا شك أن المصوّر قد وصل إلى المكان بسرعةٍ غير معتادة. وفجأة بدا لي من المعقول أن يقرر أبي خلع دبلته، احترامًا لزوجته، قبل أن يرقد بجانب هذه المرأة السويسرية. وربما لم يكن على سبيل الاحترام بالمرة وأنه كان يأخذ حمّامًا أو يُعد وجبة. والاسم كذلك، «بياتريس بينامیور»، الذي كان له رنينٌ مُلفق، بدا الآن مُصدّقًا تمامًا، كما بدا مصدقًا وطبيعيًّا تمامًا أن تصاب بالهلع إذ تستيقظ بغتةً على رجال ملثمين يقيدون ذراعَي الرجل العربي المطارد، والراقد إلى جوارها، ويكممون فمه، وصدره العاري يعلو ويهبط بسرعة، ويبقى موضعه من الفراش دافئًا لوقتٍ طويل بعد أن يأخذوه، تضع يدها عليه، ولدقائق عديدة تظل عيناها غير مصدقتين ما جرى أمامها للتو، سُرعة الأمر، تستعيدُ ما أخبرها به أحيانًا عندما تبدي ضجرًا من وضعهما معًا: «كل شيء يمكن أن يتغير في طرفة عين يا حبيبتي»، عبارة كان المقصود بها، من دون شك، أن تُوقد شعلة الأمل. أو على الأقل هذا ما نسجه خيالي، بينما أجلس ما بين مُنى والنافذة على متن قطارٍ إلى جينيف. لأنه في حدود ما أعلم، لم ينادها أبدًا بكلمة «حبيبتي»،

وهي لم تُبدِ ضجرًا تجاه «وضعهما». ثم رأيته يقف ويمضي، مُسيرًّا فقط بإشارة، إمالة من أحد الرءوس الملثمة. تخيلتُ هذا على الرغم من أن المقالة أكدت «وجود علامات جلية على المقاومة»، وأنه «وُجد دمٌ على وسادة الضحية» وأن «المصباح المجاور لجانبه من الفراش قد تهشم».

الفصل الثامن عشر

لسببٍ غامض، تخيلتُ السيد «هاس» رجلًا قصيرًا له وجهٌ مدور ويضع نظّارة. وبدلًا من ذلك، حين توقف القطار في محطة جينيف، أشارتْ مُنى نحو شخصٍ طويل نحيل يقف على الرصيف.

«ها هو».

شاهدته من نافذة عربة القطار، ولم يكن قد رآنا بعد. كانت ملامحه توحي بالجدية والصرامة. كان رأسه مغطى بشعرٍ أسود سبْط، ثبّته للوراء مستخدمًا نوعًا من الدهان. قَبّل وجنتيْ مُنى.

قال: «أنا في غاية الأسف».

حين صافحني تريثتْ نظرته عليّ أطول قليلًا مما يجب.

كانت بدلته سوداء، ومعطفه أسود كذلك، وربطة عنقه بلون الرماد الحجري الخشن، منقطة بنقاط بيضاء صغيرة للغاية.

«هذا الطريق». هكذا قال وتبعناه.

كان يسير بسرعة، والذيل المنفصل لمعطفه يرتفع قليلًا مع خطواته. لم يتحدث إلا حين صرنا بداخل سيارته.

ـ «رأيته ليلةَ ما حدث. كان كل شيء على ما يُرام».

ـ «متى علمت؟».

ـ «ليلة وقوع الأمر».

ـ «لماذا لم تتصل إذن؟».

ـ «اتصلت».

ـ «اتصلتَ في المساء التالي!».

فقال، بعد وقفة طويلة: «كنت بانتظار أي شيء جيّد أبلغكما به».

حجز لنا غرفة لشخصين في فندق ثلاث نجوم، من نوعية الأماكن التي لا يمكنني أن أتخيل أبي يقيم فيها. بعد أن سجلنا نزولنا بالفندق قادنا بسيارته إلى قسم الشرطة. أنصتَ الرجل الواقف وراء النضد إلى «هاس»، ثم أسلمه استمارة ليملأها. قال «هاس» إن المفتش سوف يتصل بنا.

حين أوصلنا أمام الفندق، قال: «سأترككما تستريحان».

أمضينا أنا ومُنى فترة العصر في غرفة الفندق، بجوار الهاتف. عند المغيب اتصلت مُنى بقسم الشرطة. راحوا يحولونها من موظفٍ إلى آخر حتى خذلتها لغتها الفرنسية فاستسلمتْ، ثم حاولتُ أنا، والأمر نفسه حدث معي. بعد برهة قصيرة دق جرس الهاتف. كان «هاس». تحدثتْ إليه مُنى بصوت خفيض للغاية فلم أتبين بوضوح ما تقول.

قالت: «سوف يمر بنا في الصباح الباكر».

بحلول أول الليل جررنا أنفسنا من الغرفة جرًّا. كنا نسير ببطء وبلا هدف متباعدَيْن بضع خطوات بعضنا عن بعض. مررنا بكافيه «دو سوليه» ولم ينطق أحدنا بكلمة. في نهاية الأمر دخلنا أحد مطاعم الوجبات السريعة وجلسنا تحت إضاءة سيئة ورحنا نأكلُ صامتَيْن.

* * *

في الصباح التالي كنا نسير وراء «هاس» الذي يمشي أسرع من أي شخصٍ آخر عرفته، متوجهين إلى قسم الشرطة. وقفنا في مواجهة نفس الموظف. هذه المرة أومأ برأسه وأشار نحو المقاعد المصطفة بحذاء أحد الجدران. همس الموظفُ متحدثًا في الهاتف، وبعد دقائق قليلة ظهر رجلٌ آخر، مرتديًا بدلة، خارجًا من باب على الجانب الآخر من النضد. وقف بجانب الموظف، وراح يقلّب بعض الصفحات. كانت مُنى قد نهضت واتجهتْ الآن نحو النضد. مدّ لها الرجل يده مصافحًا.

قال: «المفتش مارتن دوراند».

حينئذٍ عرّف «هاس» نفسه باعتباره: «محامي الأسرة».

فكّ المفتش مزلاجًا خفيًّا ثم رفع النضد، فمررنا من خلاله أنا ومُنى و«هاس». قادنا إلى داخل غرفة خالية إلا من منضدة وأربعة مقاعد. اعتذر لأنه لم يستطع مقابلتنا قبل هذا. طلب منا أن نروي

عليه ما نعرفه، فقلنا له إننا لا نعرف أي شيء، إننا لا نعرف أكثر مما قرأناه في الصحيفة.

«ماذا كنتم تفعلون في سويسرا؟».

تكلمتْ مُنى، فراح يكتب وبين الحين والآخر يرفع نظره عن أوراقه. كلما طرح سؤالًا كان رأسه يشرع في الإيماء حتى قبل أن تجيبه مُنى. وفي كل مرة تأتي على ذكر مكانٍ ما كان يكرر اسم المكان بصوت مسموع: «القاهرة»، «مدرسة دايلسويك»، «فندق مونترو بالاس»، حتى بدا الأمر وكأن تلك الأماكن مُذنبة على نحوٍ ما، أو على الأقل يقع عليها جانبٌ من اللوم. ربما لهذا شعرَ «هاس» بأن عليه توضيح الأمر:

مكتبة
t.me/soramnqraa

«لقد كانوا هنا يقضون إجازتهم».

قال المفتش: «مفهوم».

سألتُ أنا: «أيمكننا أن نرى المرأة؟».

تطلعَ نحوي: «أي امرأة؟».

« بياتريس بينياميور».

لم تقل مُنى شيئًا، كانت نظرتها ثابتة على حافة المنضدة.

«هل تعرفين بياتريس بينياميور؟».

كان سؤال المفتش مُوجهًا إلى مُنى، غير أنها لم تجب.

«إذن فلا أظنها ستكون فكرة جيدة»، هكذا قال متوجهًا نحو «هاس» الذي بقي وجهه ساكنًا كالجدار.

وفجأة أعلنت مُنى احتجاجها، ارتفع صوتها في نقمة وغضب. ولكن «دوراند» استمع إليها وهو يكرر بصرامة ، محركًا يده:

«لن تكون فكرة جيدة».

لم يتدخل «هاس».

بعد صمتٍ قصير، تحدث المفتش من جديد.

«إننا نقوم بكل ما في وسعنا في ظل ظروفٍ صعبة. هذه قضية معقدة، ولم يكن في صالحنا وصول ذلك الصحفي إلى المكان قبلنا، وبالتالي كشف عن أدلة كان يُفترض بها السرية. ولكنني أؤكد لكِ أننا نضع الأمر على رأس أولوياتنا. والآن، إذا سمحتِ بالمجيء معي إلى مكتب الاستقبال يمكنكِ استلام المتعلقات الشخصية لزوجك».

تسلمنا كيسًا بلاستيكيًّا صغيرًا مختومًا يحتوي على ساعة أبي، وسجائره، وولاعته الفضية، ودبلة زواجه.

قال: «وجدناها على المنضدة المجاورة لفراشه». فنظرتْ مُنى نحو المفتش. عرفتُ أنها تفكر بأن فراش أبي ليس في جينيف، بل إن فراشه هو فراشهما في القاهرة.

* * *

بعد عودتنا إلى الفندق جلستْ مُنى على حافة الفراش ودفتر عناوينها الصغير إلى جانبها، تقلّب صفحاته ببطء.

قالت: «هل تحتاج للحمّام؟».

انتظرتُ حتى سمعتُ صوت الماء يتدفق من الدُّش، ثم بحثتُ عن رقم «هاس» واتصلتُ به.

«لماذا لا تسمح لنا الشرطة برؤية بياتريس بينياميور؟».

قال: «إنها لا تعرف أكثر مما تعرفان». وبدا أن الصمت الذي تلا ذلك يزعجه هو الآخر. أضاف: «كان وجودها هناك مجرد مصادفة».

اتصل بنا بعدها بفترة قصيرة، وردتْ مُنى. ظلت صامتة لبُرهة، منصتةً إليه. رحتُ أتساءل عمَّا يخبرها به.

قالت: «تحدثتَ إليها؟ فهمت. وماذا قالت؟ ماذا، الآن حالًا؟ لا بأس، امنحني نصف ساعة»، ثم وضعت السمّاعة. «إنه في طريقه».

«ماذا قال لكِ؟».

«إنها مستعدة لرؤيتنا».، ثم كررت لنفسها: «مستعدة لرؤيتنا».

بعد ثوانٍ معدودة لم أعد قادرًا على تحمّل هدير مجفف شعرها، فانتظرتُ في بهو الفندق، وبين الحين والآخر أخرج إلى الشارع، فأسيرُ جيئةً وذهابًا أمام مدخل الفندق.

* * *

في السيارة رحتُ أراقب قفا مسيو «هاس» بينما يقود، وأنا أتساءل عما يعرفه، وعما يفكر فيه في تلك اللحظة. بدا وكأن شعره الأسود الأملس المصفف للوراء جزء من الجهد المبذول لكتمان ما يعرفه. كما أوحى عنقه القوي بشيءٍ صارم وصلب. ومن هذه المقربة كنت قادرًا على تمييز رائحة المسك المألوفة لنفس كريم ما بعد الحلاقة الذي يستخدمه أبي. جلستْ مُنى إلى جواره متطلعة للأمام، وقد اختبأت عيناها وراء نظارة الشمس. وبدا عنقها الرشيق المتيبس كأنه مهددٌ بأن ينقصف في أي لحظة.

سألتُه: «هل التقيت بياتريس بينراميور؟».

كانت عينا «هاس» هي كل ما يمكنني رؤيته من وجهه في مرآة السيارة، وقد أبقاهما ثابتتين على الطريق. بدت عيناه، بمعزلٍ عن بقية ملامح وجهه، أنثويتين تقريبًا.

«نعم»، قال بعد ثوانٍ قليلة من انعطافه إلى شارعٍ أصغر وأهدأ.

توقعتُ من مُنى رد فعل، ولكنها لم تَفُه بكلمة.

لاحظتُ اسم الشارع: شارع «مونيير» ـ من الغريب تشابهه مع اسم والد مُنى: مُنير.

سألته: «ما سبب وجودها هناك؟».

لم يُجب، ولم يتكلم أحد حتى أوقف السيارة وأطفأ المحرك.

«أهذا هو؟». سألتْ مُنى بصوت مسموع بالكاد.

أجاب: «نعم».

لم يتحرك أيٌّ منهما. ولعلّ «هاس» كان يأمل أن نغير رأينا أنا وهي، ونطلب منه أن يعود بنا إلى الفندق.

قالت مُنى: «نوري، أيمكنك الانتظار خارج السيارة دقيقة؟».

خرجتُ من السيارة، ورفع «هاس» زجاج نافذته. لم أستطع سماع أي شيء مطلقًا من حديثهما. وبعد مرور بضع دقائق مشحونة بالتوتر خرجا. عبرنا الشارع إلى بنايةٍ ذات مدخل مقوس يحفُّ به من جانبيه تمثالان من الجص لأطفالٍ منتفخي البطون. ضغطَ زر جهاز التنبيه الخارجي، فرنّ طنينه عاليًا في الشارع الخالي.

«أهذا مكان سكنها؟». سألتْ مُنى ـ ولا شك أنها هي نفسها كانت تعلم أنه سؤال بلا معنى.

ظل متطلعًا باتجاه الباب.

شعرتُ بأن ريقي يجف عن آخره. مجرد الوقوف أمام المبنى الذي أُخذ أبي منه يمثل لي خطرًا حقيقيًّا ومنطقيًّا، خطر التعرض للاختطاف أو لطلقة في الظهر أو الانسحاق تحت شيء كبير يسقط من إحدى النوافذ بلا صوت. أردتُ أن أقول لهما: «هذا خطر»، أو أن أجذبهما من أكمامهما، لكنني بقيت متجمدًا في موضعي، ولم أنتبه إلى أنني أرتجف إلا حين لاحظتُ نظرة مُنى عليّ. اقتربتْ مني، مسّ كتفها كتفي، ثم شعرتُ بحرارة يدها على ظهري.

قال «هاس»: «لقد اتصلتُ بها، لا أدري إلى أين ذهبت». ضغط الزر من جديد، وفي هذه المرة بدا الشارع وكأنه يضخم الرنين الفظيع ويضاعفه بصوتٍ أعلى وأشد. لم يصدر من داخل المبنى أي صوت. تغير إيقاع تنفس مُنى. ظننتُ أنها على وشك قول شيء ما، لكنها فقط ظلت تُحدق بتركيز على الباب الموصد أمامنا.

الفصل التاسع عشر

بينما يقود «هاس» السيارة عائدًا بنا إلى الفندق، أخذ يتحدث من تلقاء نفسه:

« كانت قد غادرتِ المدينة، ذهبت إلى مكانٍ ما في الجبال عندما حدث ما حدث. لكنها قالت إنها ستأتي اليوم لتلقاكم. لا أدري ماذا جرى. سوف أواصل الاتصال بالرقم الذي لديَّ».

قالت مُنى فجأة: «أعطني الرقم».

بدا أن طلبها ضايق «هـاس»، فقال: «حسنٌ، أظن أنه من الأفضل إذا اتصلتُ أنا. إنها مذعورة للغاية، والأمر ليس بهذه البساطة؛ ففي كل مرة أضطر إلى التحدث مع أشخاص عديدين حتى أصل إليها. كما قلتُ إنها مذعورة للغاية».

أوصلنا حتى الفندق ثم ذهب. وما إن صرنا بالغرفة حتى اشتد انفعالُ مُنى وقلقها.

«لا شيء من هذا يقبله العقل». قالت، بينما تشعل سيجارة وتلقي بالولاعة على الكومودينو المغطى بالزجاج. «ومن تكون

تلك المرأة على أي حال؟ وكيف تعرف الصحيفة بالخبر قبل أن نعرف نحن؟».

ذكّرتها بما قاله مفتش الشرطة من أن صحفي «لا تربيون» كان أول من وصل إلى مسرح الأحداث.

«نعم، ولكن من اتصل به؟».

خلال الساعات القليلة التالية راحت تتصل بأصدقاء أبي. لم تجد طالب في منزله، ولكن حيدر أجابها. تحادثا لوقتٍ طويل. وما إن وضعت السماعة، وقبل أن تتاح لي الفرصة لأسألها عما قاله لها، رن جرس الهاتف، وكان المتصل هو طالب. وتحدثا حتى وقتٍ متأخر من الليل. ونمتُ بينما أسمع صوتها تحكي له ما جرى، وما قاله «هاس»، وما قالته الشرطة. رن جرس الهاتف لاحقًا في الليلة نفسها، ولا بد أنه كان شخصًا آخر لأنه كان عليها أن تكرر القصة بكاملها من جديد.

* * *

في الصباح قالت: «لا أحتمل هذا المكان».، وأصرّت على أن نتناول الإفطار في أي مكان آخر غير الفندق. وجدنا مقهى قريبًا، ورغم برودة الجو أرادت أن تجلس بالخارج.

وحين جلسنا، دون أن نخلع معطفينا، إلى مائدة مستديرة صغيرة على حافة الرصيف الخالي، قالت: «هكذا أفضل، ففي كل مكان آخر أشعر كأنّ الناس تُنصت لما نقول».

ثم راحت تحدق بثبات في نقطةٍ بعيدة. بدا عليها الحزم والتصميم. وكنتُ أتساءل تُرى ما الذي قاله لها كلٌّ من طالب وحيدر وذلك الذي اتصل في منتصف الليل ـ ما رأيهم فيما حدث لأبي، وما رأيهم فيما يجب عليّ أنا وهي أن نفعله.

من بعيد تناهت أصواتٌ خفيضة لقرع طبول وآلات «ترومبيت» غير متناغمة. الآن صارت الموسيقى على مبعدة شارع أو اثنين.

قالت: «إننا بحاجة لشخصٍ صاحب نفوذ».

ثم رأيناهم: فتيات وفتيان بزي مُوحد أزرق له شراشيب ذهبية، يقرعون الصنوج، وينفخون الأبواق النحاسية التي ومضت بلونٍ أبيض في النور الشتوي. خرج إلى الرصيف من كانوا بداخل المقهى ووقفوا وراءنا. مالت مُنى نحوي وصاحت في أذني:

«نحتاج وزيرًا أو شخصًا كهذا».

أطلّ الناس من النوافذ هنا وهناك مصفقين وملوحين. وظهرتْ الابتسامة على كل وجه. لم تكد الساعة تقترب من التاسعة صباحًا بعد. لسببٍ ما بدا مشهدُ هذه الفرقة الموسيقية الجوّالة بين تلك البنايات الرمادية مثيرًا للضيق والقلق. حين التفتُّ إلى مُنى وجدتها تدفنُ وجهها بين كفيها، وقد انضغطت أصابعها بعضها إلى بعض بشدة. هل كانت تبكي أم تضحك؟ صار الصوت الآن يصمّ الآذان؛ ورزح فوق صدري بثقله. بعض العازفين الشباب ابتسموا لنا، وكانت فكرة أن أبادلهم الابتسام

مستحيلة. وحين عدتُ بنظري نحو مُنى من جديد كانت قد اختفتْ. ولم تكن حقيبتها هناك أيضًا. لم أستطع رؤيتها في أي موضع. تطلعتُ للفرقة الموسيقية من جديد. كانت الآن تمر الطبول الجهيرة الضخمة. وضعتْ إحدى الفتيات يدها على ذراع الفتى المجاور لها ومست كُمه مسًّا خفيفًا، فابتسم دون حاجةٍ لأن ينظر إليها. مر الصف الأخير، بظهورٍ مربعة زرقاء تقطعها الأحزمة البيضاء للطبول البرميلية الضخمة، ثم اختفى عند منعطف الشارع. اختفت الرءوس المطلة من نوافذ المساكن بالأعلى، وعاد الرصيف خاليًا مرة أخرى. ومع ذلك لم يظهر لمُنى أي أثر.

سألتُ النادل إن كان قد رآها.

«في الحمّام». قال ثم أضاف: «لا تقلق، ستعود».

تساءلتُ إن كان يسخرُ مني.

بعد بضع دقائق كانت تقف بجانبي، وحقيبتها على كتفها، متأهبة للذهاب.

* * *

عُدنا للفندق.

حين كنا نأخذ مفتاحنا قال موظف الاستقبال: «أتى سيدٌ ما وسأل عنكما... كلا يا سيدتي لم يترك اسمه. انتظر لدقائق ثم انصرف».

كنت متأكدًا أنه «هاس»، لكنّ أملًا ضئيلًا تردد بداخلي.

لم أطق الصبر حتى تغسل مُنى وجهها، فطلبتُ رقمه.

ما إن سمع صوتي حتى قال: «حمدًا لله، لم أستطع أن أجدكما في أي مكان. لم يكن لدى موظفي الفندق أية فكرة عن مكانكما؛ وقالوا إنكما لم تتناولا إفطاركما، فذهبت إلى قسم الشرطة وقيل لي إنكما لم تذهبا إلى هناك».

«ها هي مُنى»، قلتُ له حين رأيتها تخرج من الحمّام. «إنه هاس».

قبضتْ بيدها على السماعة بإحكامٍ شديد حتى غاض الدمُ من مفاصل أصابعها.

همستْ تسألني: «هل كان هو من جاء سابقًا؟». فأومأتُ لها.

قالت دون أن تقول هالو: «هاس، أكنت أنت من أتى للفندق؟ كنت أرغب في السيْر وحسب. اسمع، لقد كنتُ أفكر بالأمر»، مضت تقول موليةً وجهها إلى حجرها: «أريد أن أرى الصحفي.. ماذا تقصد بالداعي لذلك؟ الداعي أنه كان هناك قبل أي شخصٍ آخر». وتوقفتْ فجأة كما لو أنها قوطعت.

نظرت إليّ ثم أشاحت قليلًا بوجهها. راقبتُ أعلى صدرها يرتفع ويهبط.

«ما الذي تخشاه؟! إذن فلتتصل بالصحفي اللعين». هكذا قالت قبل أن تضع السماعة، محتفظةً بيدها عليها.

تناولتْ نظارتها الشمسية، ودفتر العناوين، والسجائر، وألقت بها جميعًا داخل حقيبتها بإهمال. قالت: «هيا، سنعود إلى قسم الشرطة».

في بهو الفندق توقفتُ وعدت راكضًا إلى الغرفة. وضعتُ الكيس البلاستيكي الذي يحتوي أشياء أبي بداخل حقيبتي، دسستُه عميقًا أسفل الثياب.

وفيما أسير بجانبها في الشارع ساورني القلق مما تعتزم فعله تاليًا. كان شعورًا غريبًا: كنت أخشى عليها دون أن أعرف ما أخشاه بالتحديد.

لم يتركنا المفتش «مارتن ديوران» ننتظر. قادنا من جديد إلى الغرفة شحيحة الأثاث نفسها.

سألَتْه مُنى: «هل قمتم بتوزيع صورته على نقاط عبور الحدود؟».

قال «مارتن ديوران»: «إننا نبذل أقصى ما في وسعنا».

ـ «أيًّا كان من اختطفه فهو يحاول أن يأخذه للخارج».

ـ «لقد تم إخطار شرطة الحدود».

ـ «ليس هذا بكافٍ. عليكم أن تعطوهم هذه الصورة».

ـ «أعرف أن الأمر بلا شك فظيع بالنسبة لكِ. لا يمكنني أن أتخيل. ولكن لا بد أن تعلمي أننا نقوم بكل ما في وسعنا».

وضح لي أنه رأى في اقتناع مُنى بأن مختطفي أبي سيرغبون في أخذه إلى خارج سويسرا أمرًا مثيرًا للريبة.

قلتُ: «هناك احتمالٌ كبير أن من أخذوه من بلادنا، أعني مَن يحكمون البلد الآن».

فقالت مُنى بسرعة وعنف: «ليس احتمالًا كبيرًا، بل مؤكد بنسبة مئة في المئة».

نظر المفتش إليها، ثم إليّ.

الفصل العشرون

اتصلتْ مُنى بخدمة الغرف وطلبتْ لنا ساندوتشات للغداء. بينما نأكل اتصلتْ بمكتب السيد «هاس» ثلاث مرات على الأقل، وفي كل مرة كانت سكرتيرته المهذبة تخبرها أنه في اجتماع. طلبتْ مني أن أتصل، متظاهرًا بأنني شخص آخر. وتلقيتُ الرد ذاته. بعد بضع دقائق رن الهاتف فرددت.

«أيمكنني التحدث إلى مدام مُنى؟»، أوحى صوته بالإرهاق، ومن تلقاء نفسه أوضح قائلًا: «أنا آسف، كنتُ مشغولًا».. ما إن أمسكتْ مُنى بالسماعة حتى قالت: «في أي مكانٍ اختفيت؟!»، وقبل أن تتاح له الفرصة للشرح، واصلت تقول: «حسنٌ، لا بأس، اسمع. هل توصلت إلى ذلك الصحفي؟ ماذا تعني، غادر المدينة؟ أليس من المفترض أنه مراسل محلي؟ في إجازة: ما أوفق هذا! وهل توصلت إلى تلك المرأة، أم أنها تبخرت هي أيضًا؟».

لم تكد تمر ساعة حتى اتصل بنا موظف الاستقبال قائلًا إن مسيو «هاس» موجود هنا. لم يكن بوسعنا دعوته إلى غرفتنا

الصغيرة، وهي تفوح الآن برائحة الطعام، وهكذا نزلنا. وجدناه يسير جيئةً وذهابًا ومع كل خطوة يصدر حذاؤه قرقعة حادة على البلاط. جلس ثلاثتنا في ركن قاعة الاستراحة بالفندق.

قالت مُنى بهدوء: «أنا وأنت نعلم أنه لم يُفقَد هكذا».

تطلع نحوي في قلق.

قالت مُنى: «نوري، أيمكن من فضلك أن تحضر لي دفتر العناوين من فوق؟».

عندما عدت اقتربتُ ببطء من وراء الأريكة التي يجلسان عليها، والتقطتُ طرفًا من حديثهما.

«إن مسئولية حمايته تقع عليهم. لا يمكنهم تجاهل الأمر كأنه لم يكن».

فقال لها: «لنرَ ما يمكنني فعله».

وحينما رأياني نهضا واقفين. قالت: «اتفقنا إذن، سوف تتصل بي».

«بمجرد أن أتوصل إلى صديقي».

تبعتها إلى المصعد، وقفت أمام مصراعي الباب الجرّار تمامًا. وحين انضمّا منغلقيْن تحدثتْ. قالت: «شخصٌ مهذب، ذلك الرجل، كل ما يحتاجه هو ضربة على رأسه».

انفتح مصراعا الباب، فمرّت من بينهما.

حاولتُ أن أفهم ماذا كان يجري. سألتها: «من الذي سيتصل به «هاس»؟».

ـ «شخص يعرفه يعمل في الإدارة الفيدرالية للشئون الداخلية».

ـ «وما تلك الإدارة؟».

ـ «إنها مرادف وزارة الداخلية».

ـ «ماذا، مثل الشرطة يعني؟».

ـ «أعلى من الشرطة».

رقدتْ، وقاطعت يديها فوق معدتها.

قالت: «سأغمض عينيّ لدقائق قليلة».

لم أدر إلى أين أذهب. فكرت أن بإمكاني التطلع من النافذة، غير أنها كانت تطل على منظر الجدار الخلفي للمبنى المجاور.

قالت فجأة: «الستائر»، وعيناها لا تزالان مغمضتين.

سحبتُ الستائر. أظلمت الغرفة على نحوٍ غريب، كما لو أن النور كان مادة سائلة حقيقية، وقد انسكبتْ خارج الغرفة لآخر قطرة. أغلقت على نفسي الحمّام الخالي من النوافذ، لكني لم أشعل النور. تلمستُ طريقي إلى البانيو ونزلت بداخل قالبه الأسود الجاف. بقيت هناك إلى أن سمعتُ جرس الهاتف فخرجت مسرعًا.

قالت وهي تنهض جالسةً في الفراش: «جيد، لقد توصلتَ إليه، لا يهمني أنه الكريسماس. علينا أن نقابله.. لمَ لا أتصل به إذن؟». وَقَفَتْ، ووَاصَلَتْ: «حسنٌ، حسن، فلتتصل به الآن وقل له إنني إذا لم يقابلني الوزير غدًا فسوف أتصل بكل جريدة في سويسرا وأحكي لهم أن حكومة بلادهم لا يَعنيها بالمرة أن يختفي إنسان على أرضها، إنسان لم يرتكب شيئًا سوى أنه طالب بحرية شعبه». أنصتت لوهلة، ثم ضحكتْ قائلة: «نعم، تمامًا، قل لهم إن زوجته مجنونة...حسنٌ، عظيم، سأنتظر بجانب الهاتف». ثم وضعت السمّاعة.

لسببٍ ما، شعرتُ بدوارٍ خفيف لدى استماعي إلى تلك الكلمات، وإلى الصوت السلس ولكن المنفعل الذي تكلمتْ به. جلستُ على الأرض، رأسي يتدلى ما بين ركبتيّ.

قالت: «ماذا بك؟».

هززتُ رأسي، وأنا أطرف عينيّ بقوة لأمحو البقع البيضاء الصغيرة.

أشعلتْ سيجارة، وسرعان ما امتلأت الغرفة بالدخان. جذبت الستائر بحركة واحدة لكنها لم تفتح النافذة.

حين انبعث جرس الهاتف من جديد تركَته يدق مرتين قبل أن ترد.

قالت: «مرحبًا»، ثم: «جيد، جيد. عظيم، لقد أفلح الأمر. متى نتحرك؟ حسنٌ، سننتظرك ظهيرة الغد. كلا، لا بدّ أن يأتي حتمًا. إنهم بحاجةٍ لأن يروا ابنه».

وضعت السماعة.

«أولاد الحرام،» همستْ لنفسها.

كان الضوء المنسكب من النافذة واهنًا. راحت تمشط شعرها.

قالتْ: «ماذا سنتعشى؟».

* * *

في الصباح التالي عدنا أنا ومُنى من جديد إلى قسم الشرطة. لم يخرج المفتش «مارتن ديوران» لرؤيتنا. وقفت وراء النضد امرأة ذات عنق غليظ وعينين صافيتين حتى إن بياضهما كان شاحبًا كالطباشير، قالت لنا أن نعود في وقتٍ آخر.

قالت مُنى: «أنا لن أتحرك من هنا حتى يخرج ويتحدث إليّ».

«ولكن مسيو «ديوران» ليس موجودًا هنا يا مدام».

«سننتظره». هكذا قالت مُنى وجلست على أحد المقاعد المصطفة بحذاء الجدار.

بعد عشر دقائق أو نحوها خرج المفتش، وتحدث إليها ووجهه يزداد حمرةً مع كل كلمة يضيفها: «أرجو أن تعلمي أننا نبذل كل ما في وسعنا. سوف نتصل بكِ. أعدكِ، ما إن نتلقى أي

خبر». وأيًّا كان ما تقوله مُنى راح يردد عليها كل مرة الكلمات ذاتها، بنبرةٍ أقل انفعالًا ولكن أكثر حسمًا، مضيفًا: «إني آسف»، في بداية جمله، وأحيانًا في نهايتها، وللغرابة في وسطها أحيانًا أخرى. إلى أن بدت مُنى قد سلمتْ أمرها وأُحبطت، وعندئذٍ فقدتُ زمام أعصابي:

«ألا تستطيع أن تدرك خطورة الأمر؟»، ورحتُ أكرر هذا بصوتٍ فاجأني تمامًا.

حدّق المفتش فيّ من وراء النضد.

قبضتْ مُنى على ذراعي وقادتني خارجًا نحو الشارع. كانت عروق رقبتها تبرز مع كل نفس تتنفسه، شاهدتها تبكي. بيدٍ شاحبة ضغطتْ على جبهتها. عيناها تحدقان بضراوة، وظل فمها مفتوحًا حتى انخفضت اليد التي على الجبين لتغطيه. نظرتْ إليّ في غضب، كما لو أن الذنب ذنبي، كما لو أنني قد أصبحتُ فجأة غريبًا عنها. لكن لا بدّ أنني أسأتُ تفسير هذا كله، لأنها وضعت يدها على كتفي وقالت: «لا تبكِ يا حبيبي».. وأخذنا نسير ببطء في الشارع. ضمّتْ كتفيها للداخل بشدة، كما لو أن جسدها سوف ينفلت منها ويتداعى نحو الأرض. حقيبتها ذات اللون الأحمر الطوبي والتي تستريح عادةً إلى جانبها دفعتها الآن للوراء بمرفقها، بينما يرطم جلدها الناعم ضلوعها بانتظام. وعندئذٍ، بدون أن تقول كلمة أو تلتفت نحوي لترى إن

كنتُ ما أزال بجانبها، انعطفت إلى أحد المقاهي. جلستْ إلى مائدة مربعة صغيرة بجانب عمود، تاركةً حقيبتها على المائدة. أخرجت سيجارة بيدٍ مرتعشة. اقترب النادل وظل واقفًا بلا حراك إلى جانبنا. لم تبدِ مُنى أي رد فعل. طلبتُ منه أن يأتي لها بقدح قهوة. رفعت عينيها إليّ، وتساءلت: «ماذا؟»، ثم تطلعت نحو النادل وقالت: «نعم، قهوة من فضلك».. تحوّل الرجل نحوي، فوجدت نفسي أقول: «مثلها»، رغم أنني لم أشرب القهوة قبل ذلك أبدًا. ببطء مرت دقيقة طويلة أو اثنتان، ثم تذكرتْ شيئًا ما، فتشتْ حقيبتها، ثم أخرجت دفتر العناوين وأخذته وتوجهت نحو الهاتف الموجود في ركن المقهى.

سألتُ: «بمن ستتصلين؟».

لم تنظر إليّ. كل ما أمكنني سماعه من حديثها حرف سين بين وقتٍ وآخر.

مع من كانت تتحدث: «هاس»، أم طالب، أم حيدر، أم واحدٍ من الأصدقاء والأقارب الآخرين الذين قدّمهم لها؟ وضعتِ السماعة ثم عادت للمائدة.

«ينبغي أن نغادر، على الفور. من الواضح أننا أيضًا معرّضون للخطر. قد يستخدموننا لإقناعه بأن يتكلم».

الآن بدأ الخوف الذي شعرت به بينما أقفُ أمام بناية «بياتريس بيناميور» يبدو مُبررًا. بالطبع ـ لمَ لا يرغب هؤلاء الذين خطفوا

أبي في خطف بقيتنا؟ قبل أن أتمكن من سؤالها عمّن أخبرها بهذا، كانت في طريقها من جديد للهاتف. طلبتْ رقمًا، وأشارت للنادل ثم سألته عن شيءٍ ما، وبصبرٍ نافد ناولته السماعة.

قالت، وهي تعود لمقعدها وتشعل سيجارة أخرى: «تشارلي في طريقه».

«تشارلي مَن؟».

«هاس».

أشارت للنادل من جديد. «هل أعطيتَه العنوان؟».

«نعم يا مدام».

«جيد»، قالت وهي تعطيه بعض النقود. «أرجوك أحضر الباقي بسرعة».

دقائق معدودة وكان «هاس» يدخل إلى المقهى.

قالت له: «لا بد وأن نكون على متن أول طائرة للخارج».

ومَضتْ عيناه بالحياة وبنوعٍ من الذكاء العملي. كنتُ واثقًا أنه كان يبـدو على هذه الهيئـة كلمًا كلّفه أبي بمهمة ذات شأن.

نهضت مُنى واقفة، غير أنه أشار لها بأن تجلس، وطلب لنفسه قهوة.

سألته: «ماذا تفعل؟».

ودون أن ينطق بكلمة توجّه نحو الهاتف.

حين عاد قال: «دقائق معدودة».

راح يحسو قهوته في صمت. ثم انطلق رنين الهاتف في ركن المقهى. أجاب النادل وناول السماعة إلى «هاس».

«وجدتْ لكما سكرتيرتي مقعدين في رحلة منتصف الليل. على هذا النحو سيكون لدينا وقت لموعدنا».

أوصلنا بسيارته إلى الفندق وانتظرَنا هناك حتى حزمنا حقائبنا. قالت لي مُنى أن أرتدي قميصًا أبيض.

الفصل الحادي والعشرون

استغرق الطريق إلى «بيرن» بالسيارة ساعةً ونصفًا. بقينا جميعًا صامتين أغلب الطريق، كما لو أن كلًّا منا يحاول أن يريح صمامًا مُنهكًا في رأسه. حين دخلنا مدينة «بيرن»، مال «هاس» قليلًا نحو مُنى وقال لها بصوت يقارب الهمس: «كما قلتُ لكِ، الوزير مشغول، ولكننا سنقابل مساعدته وصديقي عضو البرلمان». ثم أضاف خاطرًا تاليًا: «إنه مبنى مذهل».

أوقف السيارة في شارع جانبي صغير، ثم سرنا. وحين ظهر المبنى الضخم بأحجاره الداكنة، أشار نحوه في حماسة وهو يقول: «فهمتِ قصدي؟».

تطلعنا نحو الأقواس المتراكبة بعضها فوق بعض ربما بارتفاع ثلاثة أو أربعة طوابق. انتصب برجان مُربعان على كلا الجانبين، على رأس كلٍّ منهما راية حمراء. لم يبدُ مبنى مذهلًا بالمرة بل سخيفًا ومتكبرًا، كأنه حارس شخصي بصدغٍ مربع. اقتربتُ من مُنى، وقد أراحني أنها لم ترد على تساؤله.

كانت هناك امرأة تمسك دفتر أوراق بسلك لولبي وعلى غلافه ملصقات صغيرة براقة الألوان، قادتنا خلال ممرٍّ طويل ومصقول، وعبر سلالم كبيرة تتسع لمرور سيارة. وبين الحين والآخر كانت تنظر للوراء لتتأكد من أننا مازلنا خلفها. في نهاية الأمر، حلت أضواء النيون البيضاء محل النجف في ممرات يغطي جدرانها الخشب. وصلنا إلى حجرة لها هيئة الفصل الدراسي، حتى إنه كان فيها سبورة على أحد الجدران. جلس ثلاثتنا إلى أحد جانبي منضدة طويلة بيضاء موضوعة في الوسط. كان هناك دورق ممتلئ بالماء في مركز المائدة وبجانبه اثنان فقط من الأكواب الفارغة. كنتُ أشعر بالعطش ولكنني لم أصب لنفسي كوب ماء. بعد بضع دقائق دخلت مرة أخرى المرأة ذات الكشكول الطفولي، يتبعها رجل يرتدي بدلة داكنة الزرقة وربطة عنق حمراء برّاقة. قدم تحية دافئة لـ«هاس» بينما كانت المرأة تنظر وتبتسم.

قال «هاس» شارحًا: «كنا في الجامعة معًا».

قال الرجل لمُنى: «أنا في غاية الأسف لما حدث».

صافحني ولكن دون أن ينظر إلى عينيّ.

جلس هو والمرأة قبالتنا، وبينهما مقعدٌ خالٍ.

قال الرجل: «مساعدة الوزير في طريقها».

قالت مُنى: «إنه لطفٌ شديد منك أن تقابلنا بهذه السرعة».

قال: «إننا نريد أن نفعل كل ما في استطاعتنا».

وعندئذٍ دخلت سيدة طويلة، صافحتْ كلًّا منا واتخذت بسرعة مقعدها بينهما. نظرت نحو المرأة التي بجانبها، ففتحت تلك دفترها ورفعت قلمها على رأس صفحة بيضاء.

ـ «الوزير يعتذر. كان يريد أن يقابلكِ شخصيًّا بمجرد أن اطّلع على الأمر. ولكنه في غاية الانشغال، كما لعلكِ تقدّرين».

ـ «بالطبع». قالت مُنى في نبرةٍ لينة فاجأتني.

ـ «لقد قرأنا تقرير الشرطة والإفـادة التي قدمتِها للسيد «ديوران»؛ لذا لن أُجشمك عناء تكرار القصة، ولكننا، مثلك تمامًا، في غاية القلق بالفعل».

كانت لها قسمات نحيلة مستطيلة. كنتُ بطريقةٍ أو بأخرى واثقًا من أنها قد ورثت وجه أبيها. ذراعاها كانتا في بياض المائدة نفسها وملساوتين تمامًا بلا شعرةٍ واحدة. يتبدل هذا البياض عند اليدين تبدلًا ضئيلًا: ثمة لمسة من الأزرق في بطن الكفين، ومن الوردي في عُقَد الأصابع، أمّا أطراف الأنامل فكانت حمراء حُمرةً تعسة، كما لو كانت تقضي وقتًا طويلًا في غسل الصحون.

قالت مُنى: «يزورُ زوجي بلادكم بوتيرة منتظمة. وإذا حدث له شيء ستكون فضيحة».

لم تبدِ أيٌّ من الوجوه المقابِلة ردَّ فعلٍ على هذا.

«يُفترض بكم حماية زائريكم».

كررت مساعدة الوزير: «كما قلتُ إننا في غاية القلق، وقد تم إخطار شرطة الحدود وكذلك جهاز المخابرات».

في دورق المياه كانت هناك فقاقيع فضية دقيقة الحجم متعلقة بجوانبه. تساءلتُ كم من الوقت ظلّ موضوعًا بمكانه هذا: كم من الأيام أو الأسابيع أو حتى الشهور.

قالت المرأة التي تدوّن الملاحظات: «أتريد بعض الماء؟».

قال الرجل وهو ينهض: «صحيح، آسف، كان عليّ أن أسألكم من قبل».

لم يكن يضع حزامًا لبنطلونه، ورغم أن سحّابه كان مغلقًا، فقد أغفل المسافة القصيرة القريبة من الزر. اتسع السحّاب في هذا الموضع مثل فمٍ فاغر لسمكة صغيرة. صبّ الماء بسرعة، وقُبيل أن يبلغ الماء حافة الكوب يعدّل وضع الدورق على الفور. وضع كوبًا أمام مُنى والآخر أمامي. لم أستطع إلا أن أشرب رشفة واحدة من الماء، رغم نيتي أن أُنهيه كله مرة واحدة.

قالت مساعدة الوزير بينما تنظر إلى زميليها: «ما أراه هو أننا يجب أن نكون مستعدين لاحتمال أن يكون قد تم نقله إلى إحدى الدول المجاورة، إلى فرنسا أو إيطاليا مثلًا. فليس بالأمر النادر ألا يُدقق موظفو الهجرة لدينا في أوراق مَن يغادرون البلاد».

أصدرت مُنى صوتًا غريبًا أقرب إلى حشرجة قصيرة. لا بد أن جميع الآخرين قد لاحظوا هذا، ولكن أحدًا منهم لم يقل شيئًا.

سألتُ: «أذلك ما تعتقدون أنه جرى لأبي؟».

قال الرجل: «لا، نقولُ فقط إنه احتمالٌ وارد».

نظرتُ إلى مُنى لكنها بقيت صامتة.

ثم قالت أخيرًا: «هذا رابع يوم».

ولم يتحدث شخصٌ آخر بعد ذلك، حتى قالت المرأة صاحبة الكشكول، والتي كانت قد ملأت منه بضع صفحات حتى الآن: «إذن لإيجاز الأمر: سنحرص على أن تكون جميع مخافر النقاط الحدودية على اطّلاعٍ بالأمر وسوف نُخطر سُلطات الدول المجاورة كذلك».

* * *

في المطار أقدم «هاس» على فعلٍ غير متوقع منه، فبعد أن قبّل وجنتي مُنى، احتضنني. كانت حوافّ جفونه حمراء مثل جرحٍ جديد، في الموضع نفسه الذي تمدّ فيه النساء خط الكحل.

قال لها: «لا تقلقي، سأتابع الأمر مع الشرطة».

بعد أن ابتعدنا ببضع خطوات عنه، صاح قائلًا لنا: «اتصلا بي عند الحاجة لأي شيء، أي شيء على الإطلاق».

كانت رحلة طيران العودة للبيت غير مباشرة، فقضينا بضع ساعات في أثينا. حاولنا أن ننام على مقاعد المطار الطويلة. نظرت إليها وخدها مضغوط على رُسغها، فبدتْ عندئذٍ غريبةً عني، غريبةً مثل كل أولئك العابرين حولنا في استراحة المطار.

الفصل الثاني والعشرون

في الساعات الأولى من الصباح هبطت الطائرة في القاهرة. كانت الطرق الأسفلتية الرطبة تلمع تحت أعمدة الإنارة، والهواء مُثقل بالرائحة البشرية للمدينة القديمة المكتظة بسكّانها. لم تُساورني من قبل الحيرة بهذا العُمق. خطرت أمي ببالي، كان احتياجي إليها مُفاجئًا وغير مُحتمل وسحيقًا كأنه بلا غَور.

في الشقة، وقبل أن ننام، فتحتْ مُنى علبة تونة وسخّنت رغيفين من خبزٍ مجمَّد في الثلاجة، فكادا أن يحترقا. أكلنا في صمت. لم أكن مشغولًا بالسؤال الواضح وهو: ما الذي حدث لأبي؟! ولكن بالحاجة المادية المحضة لأن أكون بجانبه.

في الصباح، وما إن أتت نعيمة حتى سألت: «فين الباشا؟».

«يعمل». قالت لها مُنى.

«هو بخير؟ لأن مدام سعاد ومدام سلوى؛ عمّتا الأستاذ نوري، امبارح بس اتصلتا يجي عشر مرات على الأقل. قالتا إنهما سمعتا أخبارًا مش حلوة، بس ماقالوليش هي إيه».

فيما بعد، خلال هذا اليوم نفسه، سمعتُ نعيمة تفتح الباب لشخصٍ ما، هرعتُ لأرى من يكون فوجدتُ طالب يقف في الصالة.

أخذته مُنى إلى غرفة الصالون.

«النظام..». هكذا قال ثم قطع حديثه، وحين استأنف كان يتحدث بسرعة وفي همسٍ تقريبًا، كما لو كان لا يطيق صبرًا حتى يصل إلى الجانب الآخر. «النظام أصدر تصريحًا يقول إنه لديهم، وإنه عاد إلى العاصمة، بإرادته الحرة. لكنهم لم يُظهروه. لعلهم يخادعون. هذا ممكن».

بينما كان طالب ينطق بتلك الكلمات انحنى قليلًا باتجاه مُنى، وعندما وجدها لم تتكلم ولم ترفع عينيها عن يديها، نظر إليّ وقال: «أتيتُ بمجرد أن عرفت».

* * *

خلال بقية اليوم، وكلما صرت وحدي، كانت نعيمة تتبعني متسائلة: «إيه اللي جرى؟ فين الباشا؟ أنا عارفة إن فيه حاجة حصلت».

في النهاية أخبرتها. بان في عينيها الذعر والخوف، لكن صوتها بقي متزنًا وثابتًا.

ـ «اسمع، أبوك عمل كده كتير. ظروف شغله، ده حصل قبل كده».

ـ «بجد؟».

ـ «أيوة، مرات كثيرة. كان يغيب بالأيام، وأمك ـ الله يرحمها ـ ياكلها القلق عليه. ومافيش كام يوم ونلاقيه داخل م الباب ولا كأن فيه حاجة حصلت».

حاولتْ أن ترسم ابتسامة. احتضنتني فاستسلمت لها.

قالت فجأة: «لازم تتصل بعماتك».

أحضرتْ رقمًا مكتوبًا بخطّها الكبير.

قالت لي عمتي سلوى إن عليّ أن آتي فورًا لأعيش معهم، ثم راحتْ تبكي. أخذت عمتي سعاد السمّاعة.

«نوري، استمع إليَّ بانتباه يا حبيبي، اطلب من زوجة أبيك أن تضعك على أول طائرة إلينا، هنا بلدك الذي تنتمي إليه. لا تخشَ شيئًا، لن يمس أحد شعرة من رأسك؛ هم مهتمون بأبيك فقط. هذا بلدك».

قلتُ: «ولكن عندي مدرسة».

قالت: «أعطني زوجة أبيك».

جلستُ بجانب مُنى.

قالت مُنى: «أتفهّم قلقكم»، ثم انتظرتْ في صبر. «نعم، أفهم هذا». بدأ قلبي يخفق بعنف. «اسمعيني..»، قالت ولكنها قوطعت. لاحظتُ وجنتيها تكتسبان حُمرة. «عمتي، أرجوكي، كلامك غير معقول... لا، استمعي أنتِ إليّ. أعرف أنني في الثامنة والعشرين من عمري، لكنني قادرة على رعاية نوري. سيكون تعطيل دراسته

الآن تصرفًا غير مسئول بالمرة. شكرًا جزيلًا لك». هكذا ختمت كلامها ثم وضعت السمّاعة، وانتفخ من إيقاع تنفسها ذلك الشراع المربع من بشرتها في جذر عنقها. دقّ الهاتف مرة أخرى، فقالت لنعيمة: «لا تردي».

تبعتها حيث كان طالب يجلس إلى مائدة السُّفرة.

ـ «ما الأمر؟».

ـ «لا شيء». قالتْ وجلست.

وضعتُ يدي فوق يدها، آملًا أن تضمها بقوة.

* * *

عندما حانَ وقت النوم، وبصرف النظر عن إصراري، رفض طالب أن ينام على فراشي. وقفتْ مُنى بالقرب منا دون أن تقول شيئًا، ونعيمة أيضًا، ففهمتُ عندئذٍ أنه سيكون من غير اللائق، نظرًا لغياب أبي عن البيت، أن ينام طالب، وهو رجلٌ أعزب، في الغرفة المجاورة لغرفة نوم مُنى.

فردتْ نعيمة ملاءة على كنبة غرفة الجلوس وأحضرت له بطانية. رقد بثيابه. جلستُ على الأرض بجانبه وقلتُ له ما أخبرتني به نعيمة من أن هذا قد حدث سابقًا. وضع يده على رأسي لكنه لم يقل شيئًا.

ـ «أُنكل طالب، تعتقد متى يعود أبي؟».

ـ «لا أعرف».

ـ «أتعتقد أنها ستكون فترة طويلة؟».

ـ «لا أعرف».

أخذتُ أبكي.

قال: «أبوك شُجاع».

لم أفهم ما صلة هذا بأي شيء.

«يلزمك أن تكون شجاعًا مثله».

أمسك بيدي كما لو أننا على وشك أن نعبر طريقًا رئيسيًّا.

«كنتُ معه في المستشفى يوم مولدك. لم أره قبلها أبدًا يبتسم تلك الابتسامة الكبيرة. وضمني من كتفيّ، تقريبًا هشّم عظامي في حضنه. وفي كل مرة تجتاز امتحانًا، أو تمارس رياضة جديدة، كان يذكر الأمر في رسائله».

أدهشني هذا، فقد لازمني على الدوام ذلك الشعور العنيد بأنني كنتُ مخيبًا لآماله.

«كل ما يصدر عنك كان يُعجبه. حين قبلوك في تلك المدرسة الداخلية الإنجليزية الشهيرة، اتصل بي وكان فخورًا جدًّا بك».

مسحتُ دموعي. كان جفناي ثقيلين. بعد برهة شعرت بيده على كتفي.

«اذهب لتنام».

بعد أن غسلتُ أسناني عدتُ إليه وسألته: «ألا بد أن تسافر غدًا؟».

«نعم. ولكن إذا احتجت إليّ في أي وقت سآتي فورًا». وعندما لم أتحرك، قال: «خذ»، وناولني ورقة كتب عليها، بدقة وعناية، اسمه الكامل ورقم هاتفه وعنوانه.

الفصل الثالث والعشرون

في الليلة التالية، وبعد وقتٍ طويل من ذهاب طالب إلى المطار ومن مغادرة نعيمة إلى مشوارها الطويل للبيت، سمعتُ طقطقة في غرفة مكتب أبي، كأنه صوت بندقة تنكسر. وجدتُ مُنى تبحث في الأدراج، وقد نفد صبرها تمامًا. رحتُ أسير وراءها، أرتب الأوراق وأُحكم إغلاق بعض الأدراج، ثم توقفت. شاهدتُ جسدها ينحني ويلتوي من تحت قميص نومها. جلست إلى مكتب أبي، على كرسيه المبطن. ظهرُ المقعد الذي كان يصل لكتفيه يرتفعُ إلى ما فوق رأسي. وقع نظري على معطفه المعلق وراء الباب، كان قماشه يجسّد شكلًا شبحيًّا لكتفيْ أبي. غادرتُ الغرفة. رحت أسير في الكوريدور ذهابًا وإيابًا، ولما خَرَجَتْ من غرفة المكتب نظرتُ إليها متفرّسًا، فقالت بصوتٍ صلبٍ كالعصا: «لا، لن تفعل. لا يمكنك لومي على هذا».

* * *

كان «هاس» يتصل يوميًّا، في محاولته ليطمئننا مؤكدًا أنه مازال يتابع المسألة مع السلطات السويسرية.

«ذهبت إلى «بيرن» بالأمس من جديد». هكذا كان يقول أحيانًا قبل أن يطلب التحدث مع مُنى.

كنت أجلس بجوارها. وكانت تدعني أسترق السمع لتلك الاتصالات، بل ويسرها أحيانًا أن تميل قليلًا باتجاهي من أجل هذا. وفي أوقاتٍ أخرى كانت تضغط السماعة بشدة على أذنها وتشير لي نحو علبة سجائرها التي لم تكن في متناولها تمامًا، طالبةً مني إحضارها.

كانت مُساعِدة الوزير قد رفضت أن تعقد مقابلة مع صحفي «لا تربيون دو جينيف». «قالوا إنه يمكن تحقيق نتائج أفضل إذا تم تجنب العَلَنية الزائدة عن الحد». هكذا أخبر «هاس» مُنى، وأضاف أيضًا: «من الواضح أنهم يخشون التورط في أي نوعٍ من الأزمات الدولية».

وكان كذلك مازال يحاول تتبع أثر «بياتريس بينا ميور». لم يكن يتلقى أي رد كلما اتصل بشقتها أو برقمها الآخر الذي لديه.

قالت له مُنى: «الأمر واضح، لقد كانت جزءا من عملية الاختطاف».

لم يُعلق «هاس» بشيء.

* * *

مرات كثيرة، وبعد أن أرقد بغرفتي المظلمة وقبل أن أستغرق في النوم أتخيّل كيف أنني ذات يوم سوف أجد

«بياتريس بناميور» وأنتقم منها. مازلتُ أذكر أن صوت ضربات قلبي كان يُبقيني صاحيًا.

واصل الهاتف الرنين بلا انقطاع. وبعد مرور بضعة أيام صار أهدأ. الأقارب والجيران الذين لعلهم كانوا ملئوا المقاعد في الصالة إذ تُوفي والدي التزموا الصمت في مواجهة اختفائه. حتى عمتاي وطالب توقفوا عن الاتصال الكثير. حطّ فراغٌ كبير ليشغل مكان أبي، وأضحى سماع اسمه أمرًا لا يُطاق. ولا بدّ أن الحال كان هو نفسه بالنسبة لمُنى أيضًا، فنادرًا ما تذكره الآن. في بعض الأوقات يكاد يكون من الممكن تخيّل أنه لم يُوجد بالمرة. ومع ذلك ففي كل صباح، في اللحظة التي أفتح فيها عينيّ، أعتقد أنه هُنا وأنني سأجده جالسًا إلى مائدة السُّفرة، ممسكًا بفنجان قهوته معلقًا في الهواء بينما يقرأ بعينيه الجريدة المطوية على حِجره.

* * *

كما لو أن أبي توقع أن يختفي في أي لحظة، فقد كتب وصيةً دقيقةً دِقةَ جرّاح قلب. لم نكن نعلم بوجودها لا أنا ولا مُنى، وجدناها حينما نجحنا في فتح الخزانة الموجودة في ركن غرفة المكتب.

ساورتني في الخفاء أمنية أن نعثر على رسالة قصيرة تفسّر كل شيء: مسألة اختفائه، وتوجيهاته حول المكان الذي نجده فيه، وتوجيهاته حول كيف سأعيش. بل سمحتُ لنفسي أن

أتمنى أن أقرأ أخيرًا تفسيرًا لرحيل أمي المفاجئ. بدلًا من ذلك وجدنا وصيته داخل مظروف، كان مطبوعًا في منتصف رأس الصفحة شعار شجرة الزيتون الطافية، وجذورها متدلية في الهواء. عندما لم يعد بوسع أبي العودة إلى بلادنا أمر بنقش هذا التصميم وكان يختم به على مراسلاته وأوراقه. كانت الوصية سارية في حالة «الموت أو الاختفاء»، وتخص مُنى بثلاثمائة ألف جنيه إسترليني، «تُدفَع لها على عشر دفعات متساوية بقيمة ثلاثين ألفًا سنويًّا». أما بقية ثروته فمن نصيب «ابني الوحيد، نوري الألفي».

تساءلتُ: تُرى لماذا أضاف عبارة «ابني الوحيد»؟ هل ظنّ أنه قد يزعم أي شخص غير ذلك؟

المسيو «تشارلي هاس»، والذي لديه النسخة الأصلية من الوصية، كان «مسئولًا عن إدارة الميراث» حتى أبلغ الثامنة عشر من العمر، ثم «يقوم بإدارته جزئيًّا» حتى أبلغ الرابعة والعشرين، وعندها يكون لي «كامل التصرف في ميراثي». في الفترة ما بين بلوغي الثامنة عشر والرابعة والعشرين، ولكي أكون مُستحِقًّا لنصيبي من الميراث، ينبغي عليّ أن أنتظم في الدراسة حتى أنال درجة الدكتوراة «في أي مجال عدا إدارة الأعمال أو العلوم السياسية، لأن كلًّا منهما يمكن اكتسابه من الدراسة غير المباشرة». تذكرتُ كيف اعتاد أبي أن يقول: «يجب ألا ينخرط الرجل في أي عمل قبل أن ينهي تعليمه». لم يكن يستطيع أن يفهم

كيف تُشجع بعض العائلات ميسورة الحال أبناءها على العمل في العُطلات الصيفية. «كيف يمكن للشاب من هؤلاء أن يتعرف على نفسه إذا كان مطلوبًا منه أن يندفع إلى أول فرصة عمل تُعرض عليه؟ لا يُكتسَب التواضع من خلال الضِّعة». وهكذا لم يكن من حقي أن أمارس أي نوعٍ من العمل «تطوعيًّا أو غيره»، حتى سن الرابعة والعشرين، حيث يمكنني أن أفعل ما يروق لي أيًّا كان؛ وفقًا لوصية أبي.

* * *

أخفيتُ كيسَ الشرطة البلاستيكي الذي احتوى على أشياء أبي الأخيرة في صُوان ملابسي. خشيتُ أن تسألني مُنى عنه، لم أستطع حتى تخيل أن أفرّط فيه. لم تُواتني الجرأة على فتح الكيس من جديد، غير أنني أنفقتُ ساعاتٍ مع المقال المقتطَع من الصحيفة، أعيدُ قراءته، فاحصًا كل جزء من الصورة الفوتوغرافية، ليس فقط ملامح «بياتريس بينامیور» ولكن كل شيء آخر داخل الكادر. اكتشفتُ أشياء لم ألحظها من قبل. ثم رأيتُ شيئًا ما جعلني ألف وأدور حول نفسي لأيام بعدها. بدا أقرب إلى زاوية مهد لطفلٍ رضيع. أريته لنعيمة.

«بس ده كُرسي يا أستاذ نـوري»، هكذا قالت وواصلت التحديق في الصورة.

وأقنعتُ نفسي بحلول المساء أنها على حق. لم يكن سوى وشاح مفرود على ظهر مقعد له قضبان خشبية.

* * *

هناك ساعةٌ من نهار القاهرة تبدو فيها الشمس معلقةً في مكانها بلا حراك. في الأيام التي تلت، كنتُ أجلس بجانب مُنى على مائدة السُّفرة، متابعًا النور الذابل وهو ينسحبُ عن سطح النيل ويصبغ عنقها بالأحمر الناري. وفجأة يبدو جمالها مُحزنًا: ثمرة فاكهة تتغضن أمام عينيّ. تتدحرج الشمس خارج الأفق تاركةً النهر أخرس ورماديًّا. كان من الصعب ساعتها تخيّل أن الضوء قد يعود مرة أخرى. تمرُّ بالسماء سحابةٌ ملطخة بالدخان. تتسلل نعيمة بهدوء من الخلف وتُشعل نور المصابيح. عند ذلك وحسب تخفّ حدة الألم والحنين، فيكون من الممكن كذلك أن نلعب دُور كوتشينة.

صار لعب الكوتشينة هو طقسنا الليلي. ومعظم الوقت كنتُ أتركها تكسب، كانت سيئة للغاية في الشطرنج والطاولة، ولكن في البوكر كان بوسعها المنافسة. حين كان يبلغ بها الضجر والقلق مداه، كنت أغلبها في اللعب، فتأخذها حمية التنافس بصورة عجيبة فتطلب من نعيمة إحضار البراندي لها، رغم معرفتها أن نعيمة تكره أن تمسّ الزجاجة.

«لن أسمح لهذا الصبي بالتغلب عليّ».

مما جعل نَعيمة تتورد خجلًا وتقول: «ربنا يديم المعروف يا مدام».

ذات مساء، وبعد أن غسلت نعيمة أطباق العشاء، ووضعت على المائدة زجاجة البراندي ويدها مغطاة بخرقة مطبخ، ثم خرجت إلى رحلتها الطويلة لبيتها، تركتُ مُنى تفوز لعدة أدوار متتالية، بينما أشاهدها تغوص في رُبْع زجاجة البراندي. أدارت أغنية إنجليزية وأخذت ترقص في أنحاء الغرفة. ثم قالت: «تحب أن تتأملني، أليس كذلك؟». اقتربت مني، وهمست وهي تنظر في عينيّ: «أنت فتى غريب. وسوف تقضي بقية عمرك تتأملني لو تركتك تفعل».

لا بدّ أن وجهي احمرّ لأنها ضحكتْ؛ أخذت تضحك ولم أعرف إلى أين أنظر.

دخلت غرفتها، وتوقعتُ ألا أراها حتى الصباح، غير أنها عندئذٍ نادتني. ارتدت ثوبًا من تلك الثياب القطنية القصيرة التي تنام فيها، وبدتْ مثل بنتٍ صغيرة ترتدي تيشرت شخصٍ كبير.

قالت: «البس بيجامتك وتعالَ احكِ لي حكاية».

اخترعتُ حكاية، كانت حكاية عن أبي. استبعدتُ منها أي ذكر للمرأة التي لم تلتقِ بها مُنى قَط؛ غريمتها، أمي، رغم أنني شعرتُ بالذنب بسبب هذا. وعند نقطةٍ ما في قصتي، والتي كانت حول نزهة سير تجمعني وأبي في واحةٍ بالفيوم بينما نأكل العنب، وهو ما لم يحدث في أي يوم، عندئذٍ أغلقتْ عينيها وابتسمت.

قلتُ لها: «كانت الشمس ساطعة، ولكن غير حامية».

أومأت برأسها.

مع كل نَفَس تتنفسه كانت حلمتا نهديها تضغطان القماش القطني النحيل، وقد التمعتْ شفتاها الباسمتان تحت مسّ نور المصباح المجاور للفراش. لم يساورني شك. راح قلبي ينتفض كحيوانٍ وقعَ في فخ. غير أن أقصى مدًى لشجاعتي كان أن أمرّ بأصابعي على شفتيّ أنا. وهنا فقط فتحتْ عينيها ووقعت بكل ثقلها على شفتيّ. على عكس جسدي، لم يكن جسدها أبطأ من أفكارها. نهضت قليلًا وقبّلت شفتيّ. هل أخذها البراندي إلى حالة من الحلم؟ هل كانت تقبّل شفتي أبي؟ لم أعرف أبدًا أن اللذة والرعب قد يجتمعان بهذا القدر من العُذوبة والقوة. مدتْ يدها خلفها وأطفأت النور. شعرتُ بذراعيها تجذباني نحو صدرها، ثم لفحَ جبيني النفس الحار لتنهدها. للحظة أردتُ التراجع. لم تكن هناك نيران، ولم يكن المنزل مفعمًا بالدخان، لكنني أردتُ أن أدفعها بعيدًا وأن أجري إلى النافذة ليغسل الهواء رئتيَّ. غير أنني بقيت هامدًا وطيّعًا بين ذراعيها حتى مرت اللحظة وغلبني النوم.

في المرة التالية التي تنبهتُ فيها وجدت الليل وقد طوانا معًا أكثر، حيث التفّت فخذها العارية حول وسطي وامتدت فخذي ما بين ساقيها. وكل طرف من أطرافنا اتخذ سبيله

الطبيعي مثل فروع شجرة. ورغم أن الخزي كان هائلًا، فقد بقي نائيًا تمامًا. تحركتُ تجاهها فتحركتْ معي. لا شكّ أنها كانت ليلة غامت فيها السماء لأن الأضواء الصفراء للمدينة قد انعكست منها وتسربت للغرفة. وفي تلك الصفرة الباهتة رأيتُ عينيها تطرفان.

الفصل الرابع والعشرون

غير أن الشمس عادت بالفعل، وراحت تثقب النافذة طعنةٌ من النور، تطفو في مسارها جُزئيات لا نهائية وبلا حصر. في كل يوم تعود، هذه الشمس، وليدةً وشرسة. حمدتُ الله على طلوع النهار. أرقدُ بلا حراك مخفضًا من صوت أنفاسي، إلى أن دقتْ نعيمة جرس الباب.

جلستْ مُنى على جانب السرير، مرّرتْ يدًا في شعرها، ثم تلفتتْ حولها ونظرتْ إليّ. ذَهَبَتْ لتفتح الباب.

حضّرت نعيمة الإفطار ثم اختفت لترتب غرف النوم. لم يكن هناك إلا فراشٌ واحد لتسويه. تساءلتُ ماذا لو أنها واجهتنا، كيف عسانا أن نفسر ذلك. رَجَعَتْ إلى غرفة الطعام ورمتْ مُنى بنظرة سريعة. ساورني شعور الذنب طوال اليوم. صرتُ متحفظًا مع مُنى، وبدورها راحتْ تلعب دور الأم معي؛ تجلس على حافة فراشي وتسألني ألا يتوجب عليّ أن أقرأ كتابًا. ثم تستقر عيناها على أصابعي.

قالت: «أظافرك أطول من اللازم. تعالَ»، ثم تجري لإحضار قصافة الأظافر.

رقدتُ في فراشي تلك الليلة داعيًا الموت ليأخذني. في منتصف الليل كنتُ أهيمُ في الشقة، أخوض غمار ذلك السكون الغريب، الذي يبدو فيه كل شيء ممكنًا: صوت أمي، خطوات أبي. قررتُ أن أقترح على مُنى أن نغلق الشقة وننتقل إلى لندن أو جينيف أو الإسكندرية، أو حتى نوردلاند ـ أي مكان غير هذا.

ذهبتُ إليها فوجدتها مستلقية على ظهرها، تأخذ أنفاسًا طويلة وعميقة. راودتني فكرة أن أخنقها. ولكن عندئذٍ أردتُ أن أقبّلها، أن أقبّلها بعنفٍ قادرٍ على امتصاص كل نفَسٍ فيها. رقدتُ بجانبها، لكنها ظلّت نائمة. سحبتُ الغطاء علينا. اندسستُ بين ساقيها وهناك تكوّرتُ على نفسي إلى أقصى حدٍّ ممكن. كنت راقدًا على جنبي، رأسي قريبٌ من وسطها وركبتاي مضمومتان إلى صدري. همهمتْ لكنها لم تتحرك. الآن أشمّ رائحتها. وفاجأتني الرائحة: رطبة وناعمة، كراحتَيْ يدَيْن بعد ركوب درّاجة طوال يومٍ طويل حارٍّ. كانت ليلةً صافية، ومع هذا كنتُ بالكاد أتبين وجهها ينظر نحوي، بلا حيلة في الظلام.

* * *

على مائدة الإفطار في الصباح التالي لم أستطع منع نفسي من تأملها. بذلتْ كل ما وَسِعها لتتجنب نظرتي المحدقة فيها، بينما

تضم جناحيْ روبها المنزلي معًا بإحكام. زال الآن كل غموض يحيطُ بهذين النهدين. كانت حلمتاها مثل عنبتين ذابلتين.

هذه المرة لم تكتفِ نعيمة بالنظرات الموحية لكنها أيضًا راحت تضع الأطباق بخبطٍ مزعج.

ـ «ماذا بكِ؟».

ـ «كده غَلط يا أستاذ نوري»، ثم متوجهة لمُنى: «غَلط!».

جفلتْ مُنى.

لم أسمع نعيمة تصيح هكذا قبل هذا أبدًا. هرعتْ إلى المطبخ تبكي. ثم سمعتُها تقول: «الذنب ذنبي أنا. سامحني يا كمال باشا».

سألتُ: «ماذا بها؟»، وصِحت مناديًا: «نعيمة».

«اسمعني». قالت مُنى بصوتٍ خفيض.

«نعيمة، أناديكِ». مكتبة سُر مَن قرأ

قالت نعيمة، بهدوء، كما لو أنني هناك بجانبها في المطبخ: «لازم تعمل لي خاطر، يا أُستاذ».، الإقحام المتأخر لكلمة أستاذ في نهاية جملتها أضفى حزنًا عدوانيًّا عقدَ لساني وجعلني أود أن أهرع إليها، أن أُقبل يديها، وأن أتوسل غُفرانها.

كررت مُنى: «اسمعني».

غلبتني الدموع.

«أنا آسفة يا نوري، آسفة حقًّا. لا يمر شهرٌ واحد وانظر إلى مدى فَشلي. سأتحسن، أعدك بهذا. قررتُ أن أعود إلى إنجلترا؛ لأكون على مقربةٍ منك».

لاحظت نعيمة أنني كنتُ أبكي، فوقفت بجانب نُضد المطبخ تراقبني.

أخذت مُنى نفسًا عميقًا وفي الحال بدتْ أكبر عُمرًا من ذي قبل.

«سوف أنتقل إلى لندن. وسوف تزورني هناك».

«لكنك قلتِ إنك تحبين الريف الإنجليزي».

أسبلتْ جفنيها على عينيها بحركةٍ بطيئة مثل بابين يُوصدان. ثم نظرتْ جهة نعيمة، وقالت بعربيتها المكسّرة: «المرة دي مش هأغلط ومش هأفشل».

«يمكنني مساعدتك. يمكنني الانتقال إلى مدرسة في لندن. أنا أكره دايلسويك».

هزت رأسها نفيًا من جديد، وجاهدتْ لترسم ابتسامة.

* * *

بعد الإفطار أنصتُّ إليها بينما تستحم. وعند لحظةٍ ما راحت تدندن لحنًا، ثم توقفت. تساءلت إن كانت توقفت لأنها اضطرت أن تنحني لتفرك ساقيها أم أنها قالت فجأة لنفسها: اسكتي أيتها البلهاء؛ ليس هذا وقت الغناء.

عدتُ إلى مائدة الطعام، متظاهرًا بأني لم أغادر مقعدي. ظهرتْ في ثياب الخروج فوّاحة بالعطر، ومفاتيح الشقة تصلصل

في الميدالية المعلقة بيدها. دخلت المطبخ ودون كلمة واحدة احتضنت نعيمة إليها وقبلتْ خديها، فانحنت نعيمة بعفوية غريزية وقبّلت يد مُنى.

«أنحتاج أي شيء من المتاجر؟ سأعود سريعًا». هكذا قالتْ وخرجت.

بعد ثوانٍ معدودة اندفعتُ نحو الباب ولحقت بها وهي تخطو داخل المصعد.

«إلى أين تذهبين؟».

رفعتْ يدها فاهتز مصراعا الباب الجرار متراجعين. همستْ: «إلى الطبيب».

ـ «لماذا؟».

ـ «لا شيء يا تُوتة، مجرد صداع ثقيل».

* * *

ذهبتُ إلى غرفة مكتب أبي وشعرتُ بالذعر عند جلوسي في كرسيه. بدت الغرفة كأنها لم تُمس. لا بدّ أن نعيمة ـ أو لعلها مُنى، من يدري ـ أتت وأغلقت جميع الأدراج وأعادت كل شيء إلى موضعه الطبيعي. ترك أبي كتابًا على سطح المكتب، وإحدى الصفحات مطوية بعد رُبع الكتاب. فكرتُ أن بإمكاني استكمال ما فاته منه.

* * *

صباح يوم سفري، راحت نعيمة تدعك باب الثلاجة، رغم أنه كان نظيفًا تمامًا. لم ترد حين قلتُ لها صباح الخير، وكلما اقتربت منها كان جسدها يتصلّب. ضاق صدر مُنى بتصرّف نعيمة، وراحت تردد: «سوف ترينه قريبًا»، وهو ما كان كذبة وحتى نعيمة عرفت ذلك.

قالت مُنى: «دعني أودعك هُنا».

وقفتُ بجانب الحقيبة. عبده، بأسلوبه المتواضع والهادئ، تسلل دون صوت من الخلف وأخذ الحقيبة.

قالت مُنى عندئذٍ، وكأنما لنفسها: «لا، ليست فكرة جيدة».

ظلّت نعيمة واقفة، شابكةً يديها المكسوَّتين بالصابون. بدا جسمها متيبسًا ومتزعزعًا كأنه عود بوصٍ في تيار ماء. خطوتُ إليها فاحتضنتني. ولم يكن هناك أي شيء أكثر إقناعًا من حضن نعيمة.

جلستُ أنا ومُنى في المقعد الخلفي من السيارة. تطلعتْ خارج النافذة وتظاهرتُ أنني أفعل مثلها. كان عبده صامتًا هو أيضًا. شدّ على صدره حزام الأمان ونظر إليّ في المرآة الداخلية. ومن عينيه عرفتُ أنه كان يحاول أن يبتسم. وعند ذلك فقط سمعنا صوت نعيمة اللاهث يرجونا:

«استنوا».

دخلتْ وجلستْ في المقعد المجاور للسائق، وتلا ذلك الجدال المعتاد. لكن نعيمة في هذه المرة لم تمانع طويلًا، فعلتْ

ما طُلب منها وثبتتْ حزام الأمان. كل حينٍ وآخر كانت تستدير، وتتناول يدي وتقبّلها ثلاثًا أو أربعًا.

في صالة المغادرة كانت ألواح الرخام والزجاج تضاعف كل صوت.

قالتْ مُنى: «اتصل بي بمجرد وصولك».

سألتها بالإنجليزية: «ماذا سيحدث لنعيمة؟».

«سوف يستمر راتبها حتى نرى ما يكون، والحال نفسه بالنسبة لعبده».

وحين انتبهتْ لدمعةٍ تتجمعُ في عينيَّ، قالت: «هكذا أفضل. سآتي لرؤيتك ما إن أستقر في لندن، إن لم يكن قبل ذلك».

ورغم أني أدركتُ ما في مسلكها نحوي من رقة، رحتُ أسأل نفسي إن لم يكن هذا عقابًا على ما جرى تلك الليلة.

تعانقنا، أفلتت نفسها قبل أن أفعل، وعندئذٍ حاولتْ في ارتباك وحرج أن تحضنني من جديد.

قال عبده: «طيّب يا سِيد الشباب». وتصافحنا.

احتضنتني نعيمة بقوة شديدة. أمسكت بوجهي بين يديها فأحسستُهما باردتين بدرجةٍ عجيبة.

«اوعدني ماتنسانيش أبدًا».

دعكت رسغيها بيديها، ووضعت يدًا على عنقها وتركتها هكذا. استدارتْ نحو عبده، متطلعةً نحوه كأنها تلتمسُ نجدةً ما.

وأنا أقف منتظرًا في الطابور، كنت أشعر بتحديقات أعينهم تحط على ظهري، بكامل ثقلها. لمحتُ رجلًا قريبًا وراء حاجزٍ زجاجي، يجلس إلى مكتب فارغ ويتطلع خارج النافذة. ومن ورائه وأكثر بُعدًا عن النافذة، امرأة تجلس على مقعد بحذاء الجدار. وهي أيضًا كانت تتطلع خارج النافذة. جعل الضوء وجه كلٍّ منهما شاحبًا. كان في سكونهما شيء رقيق. ثم تحركتْ هي، وأخرجت ساندوتشين وناولته واحدًا. لعلها كانت زوجته أو ربما أخته تزوره خلال ساعة الغداء. كان لا بدّ من تقطيع العالم إلى ساعات نملؤها بشيءٍ ما، وإلا يمكن للإنسان أن يُجن من الوحدة. استدرتُ ورأيت أنهم قد ذهبوا. كانت طوابير المسافرين تمتد في كل اتجاه. شممتُ رائحة أبي: رائحة بشرته الدافئة المسكية. تلفتُّ حولي، ورغم أنه لم يكن هناك، فقد بقيت الرائحة في عِناد.

الفصل الخامس والعشرون

كُنا أواخر يناير، اشتد عود الشتاء تمامًا كما كان الحال حين سافرتُ إلى سويسرا. ابتعدتُ لستة أسابيع فقط، لكنها بدت أقرب إلى عمرٍ كامل مرّ بي. في مطار «هيثرو» جررتُ نفسي إلى محطة قطار الأنفاق، وفي صدري عُقدة مُحكمة. وحين أخذتُ القطار في محطة «سانت بانكرس» وانغلق الباب، عاد خَفَقان قلبي يتسارع. لم أستطع النظر في عينَيْ أي شخص، تجمّدت أصابعي في برودة كالجليد، وابيضّ لونُ ما تحت أظافري تمامًا. رحتُ أتابع الحقول التي يطويها القطار طيًّا. حين توقف التاكسي عند الطريق المفروش بالحصى المفضي إلى دار الإقامة بالمدرسة الداخلية لاحظتُ أن «دايلسويك»، وبصرف النظر عن كل شيء، لم يتغير فيها شيء.

كنتُ متأخرًا أسبوعين عن موعد إجازتي واستغرقتني كل تلك الدروس والواجبات التي فاتتني وعليّ تعويضها. كان السيد «جايلبرث» قد اتصل بالقاهرة بعد اليوم الأول لغيابي، وأخبرته مُنى أنني مريض. سمعتُها تقول: «أنفلونزا رهيبة».

سألني «آلكسي»: «أكنتَ مريضًا حقًّا أم أنها حجة لتتغيب وحسب؟».

قلتُ له، شاعرًا بقلبي يفيض: «لم أكن مريضًا. لا تخبر أحدًا، كان المريضُ أبي». وحين لم يقل شيئًا في الحال أضفتُ قائلًا: «لكنه الآن بخير حال».

* * *

بعد شهرين اتصلتْ مُنى لتخبرني أنها في لندن.

ـ «أين تُقيمين؟».

ـ «لدى أحد الأصدقاء حتى أجد مكانًا».

فيما بعد في تلك الليلة، تساءلتُ: تُرى هل أفْضَتْ مُنى لذلك الصديق مجهول الاسم بما وقع بينها وبين ابن زوجها هناك في القاهرة.

ـ «مَن صديقك؟».

ـ «شخص أعرفه من أيام الجامعة».

ما قالته بعدها بدا محاولة مقصودة لتغيير الموضوع.

ـ «أوحشتني. هل أنت بخير؟ كيف حال الدراسة؟».

ـ «ماذا فعلتِ مع نعيمة؟».

ـ «اضطررتُ أن أستغني عنها».

ـ «وراتبها؟».

ـ «حاولتُ معها، لكنها رفضت في كبرياء وبعينين دامعتين. إنها نَفْسٌ طيبة. وفي النهاية أعطيتُ المال لعبده، وهو ـ بخلافها ـ واقعي وعملي تمامًا. وسوف يعطيه لها حين تهدأ عواطفها».

ـ «كم المال؟».

ـ «ما يساوي راتب ثلاثة أشهر».

عندما لم أنطق بأي شيء قالت هي: «سوف نتحدث حين أراك».

* * *

بعد يومين، وبينما أتناول الغداء، دخل السيد «واطسن»، مدرس الرياضيات، إلى قاعة تناول الطعام وأخذ يسير في خطٍّ متعرّج إلى أن وصل لطرفها المقابل، حيث تصادف أني كنتُ أجلس يوم ذاك، ثم مال بالقرب من أذني، مما جعل جميع الجالسين على المائدة الطويلة يتطلعون.

«لديك ضيفٌ ينتظرك في غرفة مدير المدرسة».

مرتْ على ملامحه ابتسامة تعاطف سريعة.

كنت أعلم من هو الضيف، ومع ذلك لم أتمكن من مقاومة احتمال أنني قد أجد من يجلس هناك في مكتب المدير ليس مُنى، بل أبي، وقد تبدل، ربما صار أنحف، أو أقل ثقة، أو أكبر سنًّا، ورغم اليوم ساطع الشمس تمامًا، سأجده ملتفًّا بمعطف المطر ذاته الذي كان معلقًا وراء باب غرفة مكتبه. رغبتي في التعلق بهذا

الأمل، مقترنة باحتمال أن أجد رجلًا متبدل الهيئة عمّن أعرفه، منعتني من التقدم بسرعة، فسِرتُ على مهَلٍ، ويدي ترسم خطًّا على الجدران المكسوة بالخشب.

كان باب غرفة المدير مفتوحًا. استطعتُ أن أراه جالسًا وراء مكتبه، وقد بدت صورته معتمة بسبب النافذتين اللتين على كلا جانبيه، وكان يتطلع إلى شخصٍ خارج مجال رؤيتي. حين اقتربتُ رأيتُ مُنى، جالسةً على الطرف الآخر من المكتب، على مسافة مترين، بعيدة بما يكفي لأي شخص يسترق السمع أن يسمع ما يدور بينهما من حديث. ضوء الشمس الذي تدفق عبر إحدى النافذتين حطّ على سجّاد الأرضية، على مقربة من مقعدها، غير أن حواف شعرها وبطريقةٍ ما كانت تتلألأ بالضوء. أمكنني عند ذاك أن أرى السيد «جايلبرث» مستندًا إلى أحد أرفف الكتب. كانت ربطة عنقه محلولة حول ياقته المزررة، بدا قلقًا.

قال المدير: «ادخل».

فدخلت، وحين صرتُ على مبعدة خطوة أو اثنتين من مُنى، سمعتُ السيد «جايلبرث» يغلق الباب من خلفي. لم أشأ أن أعانق مُنى أمام الرجلين. مددتُ لها يدي أصافحها وقبّلت هي خديّ. تبيّنتُ رائحة عطرٍ جديد.

أكدتْ طبيعة الجو المخيم على الغرفة بأنها قد أخبرتهم شيئًا ما، لكني لم أعلم ما هو ذلك الشيء تحديدًا. فهل أخبرتهم بالحقيقة؛ أن أبي ووليّ أمري قانونيًّا قد اختطفه خصومه السياسيون من فراش امرأة سويسرية لا يعلم كلانا عن أمرها شيئًا؟ أم أنها اختلقت لهم شيئًا ما، شيئًا يبدو بسيطًا ومُحكمًا في أعين هذين الإنجليزيين؟ هل أخبرتهم مثلًا أنه أصيب بمرض خطير، وأن الحالة تدهورت إلى غيبوبة، وأن الأطباء متشائمون؟ أم أنها أخبرتهم بأنه مات؟ هل مات؟ هل سمعتْ شيئًا؟ كلٌّ من الصمت المتواصل الذي شملهم وطريقة نظراتهم إليّ أكدت لي أن ثلاثتهم يعلمون شيئًا لا أعلمه.

فجأة اقترب السيد «جايلبرث» مواجهًا لي، لم يكن يبعد عني أكثر من ذراع. لانت نظرة عينيه. ما طرأ عليه من تحوّل كان دقيقًا بقدر ما كان غامضًا.

قال: «أنا في غاية الأسف يا رَجُلنا الشاب».

لم ينادني بهذا من قبل أبدًا.

قال المدير: «لقد أخبرتنا زوجة أبيك قبل قليل، ورغم أنه كان عليك أن تُبلغنا من قبل، فعليّ أن أعترف بإعجابي بعقلك ورباطة جأشك. وفي ضوء هذا، اتفقنا جميعًا على أنه ليس من الضروري أن يطّلع أحدٌ على الأمر عداي أنا والسيد «جايلبرث».

نحن معنيون بحماية دراستك ومكانك بين أقرانك. يجب أن تستمر الدراسة حتى في أحلك الأوقات».

نهض واقفًا، وكما فعل السيد «جايلبرث» من قبل اقترب ووقف قُبالتي.

«قبل زمنٍ ليس بالبعيد للغاية، رجال ممتازون مثلك كانوا يدرسون في هذه المدرسة بينما تخوض أمتنا غمار الحرب».

وضع يده على كتفي لثوانٍ خاطفة.

«إننا نأمل كل خير بالطبع. ولكن في هذه الأثناء فإن السيدة الألفي ستكون هي ولية أمرك القانونية».

الفصل السادس والعشرون

بعد اختفاء أبي بفترة قصيرة بدأ السيد «تشارلي هاس» يرسلُ إليّ بانتظام رسائل رسمية مُهذبة، تقتصر على الشأن الوحيد الذي يجمعنا معًا: ميراثي. ولكن في رسالة واحدة، وبعد مرور عام تقريبًا على اختفاء أبي، خرجَ عن المسار العملي المعتاد وعبّر عن شعورٍ فطريّ حدّ الإرباك. لم يُرفَق بهذه الرسالة كشف حساب البنك رُبع السنوي وفاتورة نفقاته ومستحقاته، بل وصلتْ بمفردها، مكتوبة بخط متسرع، وساخط تقريبًا، وغطتْ الكتابة وجهَيْ صفحة ذات حافة مُخرمة ومنزوعة من دفتر كتابة متوسط المقاس. هكذا بدأتْ: «كنتُ أفكر فيك وفي طبيعة المشاعر التي لا شك أنها تنتابك. أمرٌ فظيع، فظيع حقًّا. لقد كان والدك رجلًا ممتازًا».

شعرتُ بغضبٍ وغيرة لإشارته إلى أبي بصيغة الماضي، كما لو أنه يعرف أكثر مما أعرف، ليس فقط عن أبي ولكن عمّا قد يكون حلّ به.

«كيف لأي أحد أن يتوقع منك أن تعرف كل ما كانه هذا الرجل وكل ما فعله، الأشخاص الذين عرفهم والأشخاص الذين أحبهم؟ ولكن فلتعلم شيئًا واحدًا: لقد أحبك كثيرًا جدًّا. وإن كنت بحاجة لدليل، فلتنظر كيف اهتم بتدبير شئونك بكل حرصٍ ورعاية».

ثم أنهى رسالته: «أعتذر عن كتابتي لك على هذا النحو، لكني لم أتمكن من كبح نفسي». ثم وقّع باسمه.

ذات ليلة، وبعد بضعة أسابيع من وصول الرسالة، أتى السيد «جايلبرث» ليوقظني وقد تجاوز الوقت منتصف الليل بكثير. همس: «الألفي»، وكان هيكله معتمًا أمام النور المنبعث من الردهة. «اتصال هاتفي. من جينيف. السيد «هاس»، يقول إنه أمرٌ هام».

تمّ العثور على أبي، هكذا فكرت. وإلّا فما الذي يدفع محاميًا سويسريًّا للاتصال في هذه الساعة؟ لم أنطلق راكضًا ولكني أفلحتُ بالكاد في السير بجوار السيد «جايلبرث». كان الهاتف هناك في الطابق الأرضي من المبنى القديم، في دهليز عتيق مبلط بأحجار يورك الداكنة الكبيرة، لامعة لفرط استعمالها وحكّها، وناتئة قليلًا عن الأرضية. وضعتُ سمّاعة الهاتف على أذني وانتظرت حتى بلغ السيد «جايلبرث» نهاية الدهليز.

ـ «آلو».

ـ «أهذا مسيو نوري؟».

ـ «نعم».

ـ «أوه، أنا آسف، هل أيقظتك؟ أردتُ فقط أن أطمئن أنك بخير حال. إنك لم ترد على رسالتي!».

لم أقل شيئًا.

ـ «هل أتى أي شخص لرؤيتك، لطرح أسئلة عليك، لمضايقتك؟».

ـ «كلا. أي شخص مثل من؟».

ـ «هل أنت واثق؟ تعلم أنك تستطيع أن تخبرني إن فعلوا ذلك».

ـ «سيد «هاس»، أنا لا أدري عمّ تتحدث».

ـ «في هذه الحالة، جيدٌ جدًّا. إذا حدث معك أي شيء من هذا القبيل فلتتصل بي على الفور».

* * *

لا السيد «جايلبرث» ولا مدير المدرسة أثارا الموضوع بعد ذلك، ولم أذكر أمر اختفاء والدي لأي شخص. صار هذا هو سري الخاص.

في بعض الليالي، وبينما أرقد في الظلام بعد إطفاء الأنوار، أوشكتُ على إخبار «آلكسي»، لكني لم أعرف ما الكلمات التي أستعينُ بها. لم أعرف كيف أسمّي ما وقع: خطْف، إخفاء، سرقة. لم تبدُ أيٌّ منها مناسبة. وكيف سأجيب عن أسئلته التي سوف تتبع

ذلك حتمًا، حول لماذا ومَن وكيف وإن لم يكن هناك أي شيء يمكنني عمله.

في مارس، بعد ثلاثة أشهر مما حدث، خرجتُ في نزهة طويلة خلال التلال. كانت البراعم المغلفة بعلب من القطيفة تتشبث بأطراف الفروع. كل شيء كان على حافة التغير. وللمرة الأولى منذ عودتي إلى «دايلسويك»، أدفأت الشمس الإنجليزية بشرتي. كنتُ مخطئًا، هكذا فكرت؛ كان عليّ أن أخبر «آلكسي». تصورته يمشي خلال هذا المرج ويصعد التل شديد الانحدار. كنا سنجلس على تلك الصخرة الوعرة هناك متطلعين نحو التلال التي تتدرج حتى تتلاشى في البعيد. كنا سنحدد موضع دار المهجع، صغيرًا بما يكفي لأن يُخفيه إصبع إبهام. وفي هذه المرة سنصعد إلى هنا ليس لتدخين السجائر وشرب الفودكا، ولا لكي يحكي لي عن حياته الماضية في ألمانيا، ولكن لنناقش مسألة ذات أهمية قصوى. لم يعد بوسعي الانتظار. وقلتُ لنفسي يا لسخافتي أن صمتُّ عن الأمر كل هذه الفترة. فُقداني المفاجئ الغامض لأبي أصابني بصدمة وعناء أشعر بهما مثل ثقل على صدري. لم أشعر قط أنني مُثقل إلى هذا الحد، وأردتُ أن أُلقي بهذا الثقل بين يديْ صديقٍ مؤتمن، قد يساعدني على أن أستوعبَ الأمر. سرتُ بهمةٍ على طريق العودة.

لم أستطع العثور عليه في أي مكان. وعندئذٍ، حين بدأتُ أتساءل إن كانت تلك إشارة ما، وجدته في غرفة الاستراحة

يشاهد نشرة الأخبار. جلستُ على الجانب الآخر البعيد، أحاول تهدئة أنفاسي. إلى جانب المكتبة كانت هذه هي الغرفة الوحيدة التي لم يكن مُستحبًّا التحدث فيها. انتظرتُ حتى يلتفت ناحيتي بحيث يمكنني أن أومئ له أن يتبعني. بدأتُ أنتبه للأخبار المذاعة التي كانت تستولي على انتباهه: أمٌّ فقدت طفلها. كان يلعب في الحديقة، وحين رفعت بصرها عن حوض المطبخ كان قد اختفى. أخذَ مصوّر التلفزيون وجه الأم في لقطة مقرّبة بينما تحاول الإجابة عن أسئلة الصحفيين. كان من المزعج مشاهدة هذا التطفل على مُصيبة شخصٍ آخر. بدت الكاميرا وكأنها تستمتع بإظهار خزي المرأة. تساءلتُ: تُرى ما رأي «آلكسي» في هذا؟!

صاح أحد الأولاد: «كيف تُضيعين ابنك؟»، فطلب منه آخرون أن يسكت.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ظلّ «آلكسي» ينظر نحو الشاشة.

قال بصوت خفيض: «غباء».

لم أكن واثقًا إن كان يقصد المرأة في التلفزيون أم الصبي الذي تحدث لتوّه. وبما أن أحدًا لم يلتفت إليه أو يطلب منه الهدوء، أقنعتُ نفسي بأنه كان يقصد الصبي. لكن «آلكسي» عندها رفع ذقنه بحدة باتجاه التلفزيون ونهض واقفًا وغادر الغرفة. لاحظت المقعد الجلدي الوثير الذي خلا منه ينتفخ في الهواء.

قلتُ لنفسي لن نخسر شيئًا بتأجيل الأمر لبضعة أيام.

بقيتُ في حالة من الاضطراب، غير متيقن إن كان عليّ أن أخبره أم لا، وفي ذروة يأسي أحسّ ببِركةٍ من العرق تتجمع على صدري. ذات ليلة استولت عاصفة على الأشجار الواقفة خارج نافذة غرفة نومنا، فرُحتُ أراقب الأشجار عبر الزجاج، وتلك المخلوقات العاجزة تترنح من جانبٍ إلى آخر في الضوء الكهربائي. وأَخَذَتْ الفئران التي تسكن العلية فوقنا تعدو من هنا إلى هناك، والريح تنوح وتُصفر عبر النافذة. كانت الأمطار، التي هطلت وتواصلت ممتدة كالأشرعة، كأنها ألف ظفر ينقر على الزجاج.

قال «آلكسي» حين سمع صرير ألواح الأرضية: «لا شيء هناك، عُد لنومك».

في المرة التالية التي استيقظتُ فيها كان العالم مكانًا هادئًا. لا تكاد تكون هناك نسمة واحدة لتكافح ضدها أوراق الشجر، كما أن الأشجار التي تقع على أطراف الأيك إما انهارت وإما انشقّت نصفين. حظي «آلكسي» بنومٍ عميق، لقد نام طَوال ما تبقى من وقت العاصفة. وقد أدهشني شيءٌ ما في ذلك: أي راحةٍ تتيحُ للإنسان مثل هذه الثقة في العالم؟

بدت السكينة التي تلف ذلك الصباح كأنها تؤكد لي إحساسي القديم بألّا أخبر «آلكسي» بأمر أبي. واتحذتُ قراري: يجبُ أن

أحفظ خصوصية هذا الأمر. لم أحتمل فكرة إقلاق شخصٍ آخر، أو ما هو أسوأ، أسوأ كثيرًا، أن أراه مفتونًا بالقصة، متسليًا بغرابة أحداثها. ماذا يمكن لصبي ألماني سعيد ذي والدَيْن سعيدَيْن أن يعرف شيئًا كهذا؟

الفصل السابع والعشرون

بعد شهرين اندفع «آلكسي» إلى داخل الغرفة التي نتقاسمها في «دايلسويك» وورقة بيضاء تهتز في يده. أخذتُ الرسالة، لكنها كانت مكتوبة باللغة الألمانية.

«تلقى أبي عرض عمل في «دوسلدورف»، وقد وافق عليه. أختي «آناليزا» لا تصدق كم هي محظوظة، لن يكون عليها الإقامة في المدرسة، ستذهب نهارًا فقط، وأنا سأؤدي عامي الثانوي الأخير هناك. سوف يجتمع شملنا من جديد».

ألقى بذراعيه من حولي، فحاولتُ أن أبادله الاحتضان.

«لا تقلق، سوف نقضي إجازات الصيف معًا».

وسرعان ما حلّ يومه الأخير بالمدرسة. ومن قبل أن يخلد للنوم حتى كان قد وضع في حقيبته ثيابه وكتبه وأسطواناته الموسيقية. قرر أن يترك لي «سوناتا رخمانينوف» للتشيلو في مقام جي صغير، لأنها كانت عندئذٍ أعذب ما سمعته في حياتي. تعاهدنا أن نبقى على اتصال.

كان والداه و«آناليزا» سيأتون لأخذه. بدا قلقًا. ثم سمعتُ أنه يبحث عني. انتحى بي جانبًا.

«أرجوك لا تقل أي شيء إذا لاحظت أمرًا غريبًا بالنسبة لأمي».

ذهبتُ إلى النافذة حين سمعت سيارة تتوقف على الممر المفروش بالحصى. ركض «آلكسي» نحو ذراعَيْ أبيه. شبكت «آناليزا» يديها منتظرة جانبًا في نفاد صبر، إلى أن عانقته هي الأخرى، ولم تُفلته حتى بعد أن أنزل ذراعيه عنها. ضحك واحتضنها من جديد. ثم أتت والدته، توازن خطواتها على عكّاز. توخى الحرص معها، فاحتضنها برقة وترك أذنه تستريح قليلًا على كتفها. ولثوانٍ قليلة لم يتحرك أحدٌ منهما. وحين أفلت حضنها، أسندت العصا على فخذها وراحت ترسم إشارات سريعة بكلتا يديها. أومأ لها وقال شيئًا بالألمانية بصوتٍ عالٍ كما لو كان يخاطب شخصًا يختبئ فيما وراء الأشجار. نظر خلفه واعتقدتُ أنه قد حان الوقت لظهوري. كنت منتبهًا بكل وضوح إلى الضجة العالية لجرش الحصى تحت قدميّ. كانت أمه هي الوحيدة التي لم تتكلم عندما صافحتها. فهمتُ حينها ما سبب توتر «آلكسي» وفهمتُ كذلك لماذا ترقرقت عيناه حين ذكر كم يفتقد غناء أمه. **أمه، المغنية، كانت قد فقدت صوتها تمامًا.**

* * *

في أثناء أيامي الأخيرة في القاهرة، وقبل أن أعود إلى المدرسة، كان طالب يتصل بالهاتف كل يوم تقريبًا. كان يتبادل بضع كلمات مع نعيمة أولًا، ثم يطلب التحدث إليّ.

كان يقول: «كيف حال الباشا الصغير؟».

كان في الغالب مرح الصوت، يتحدث عن الطقس أو عن فيلم قد شاهده في الليلة السابقة. كان مُمتازًا في المبالغات: فإما أن يكون الأمر مذهل الروعة أو فظيعًا حقًّا. أتساءل الآن ما إذا كانت مبالغاته تلك مجرد ستار يخفي وراءه مخاوفه، بل إنني حتى في ذلك الحين كنت أحس أن طالب ليس فقط قلقًا عليّ بل يشعر أنه مسئول بطريقةٍ ما عما حدث لأبي. وأفهم هذا، لأنني أنا أيضًا شعرتُ بأنني مسئول عن ذلك.

في أواخر شهر يناير، حين رجعت إلى «دايلسويك» بعد أسبوعين تقريبًا من بدء الدراسة، أخذ يتصل كل يوم أحد. وزارني مرات عديدة كذلك. كانت زياراته تلك تعني لي الكثير، لأن طالب لم يكن يتحدث الإنجليزية وبدا كارهًا لإنجلترا في جميع الظروف والأحوال.

أخبرته بشأن مكالمة «هاس». استمع إليّ وسألني إن كان أي شخص قد اتصل بي مستفسرًا عن أي شيء.

«أي شخص مثل مَن؟».

قال: «أي شخص مثل أي شخص»، وحين لم أتكلم أضاف: «إذا فعل ذلك أي شخص ستتصل بي، فاهم؟».

قلتُ: «طيّب»، رغم أنني ليس لديّ أي فكرة عما يقصده.

كان كثيرًا ما يسأل متى رأيت مُنى آخر مرة.

فأقول له: «مؤخرًا»، وحين يلحّ عليّ ليعرف الوقت المحدد، أقول: «الأسبوع الماضي»، رغم أن الحقيقة أنني لم أكن أراها إلا كل أربعة أو خمسة أسابيع عندما تظهر لتمضية فترة الأصيل وليس أكثر من ذلك.

وكان يقول: «جيد، جيد. إنها امرأة أصيلة. ونعيمة، هل اتصلت بها؟».

ـ «كلا، لماذا؟».

ـ «لا بدّ أن تتصل بها من وقت لآخر».

ـ «لماذا؟».

ـ «لأن هذا واجبك».

بعدها بأسبوعين اتصل بي من جديد.

ـ «هل اتصلت بنعيمة؟».

ـ «لا».

ـ «ألم أقل لك أن تتصل بها؟ لا بدّ أن تتصل بها. يجب ألا تفقد صلتك بها. إنها مُهمة جدًّا بالنسبة لك».

ـ «لكني لا أعرف رقمها».

ـ «ماذا تقصد بأنك لا تعرف رقمها؟».

ـ «يجب أن أذهب».

ـ «مهلًا. سأتصل بك مرة أخرى ومعي رقمها. لا تتحرك. خمس دقائق».

انتظرتُ بجانب الهاتف خمس عشرة دقيقة ثم انصرفت. وفي اليوم التالي أتى السيد «جايلبرث» ليقول إن لي مكالمة هاتفية.

«نعيمة ليس لديها هاتف، ولكن هذا هو رقم ميكانيكي قريب. سيناديها. يجب أن تعطيه الوقت الكافي، فكُن صبورًا».

قرأ عليّ الرقم ثم طلب مني أن أكرره عليه مرةً أخرى.

ـ «اتصِل الآن. واسمع، من الآن فصاعدًا اتصل بها كل أسبوع».

ـ «كل أسبوع!».

ـ «حسنٌ، مرة كل شهر على الأقل».

اتصلتُ بالميكانيكي، ولكن بعد أن انتظرت لأكثر من ثلاث دقائق وضعت السمّاعة.

اتصلتُ مرةً أخرى بعد أسبوع:

قال الميكانيكي: «ماتخلينيش أجيبها هنا تاني على الفاضي».

ـ «لكني أتصل من إنجلترا؛ المكالمة سعرها غالٍ».

ـ «يبقى تقفل وتتصل بعد ربع ساعة».

بعد مرور عشر دقائق أدرت الرقم.

سمعته يقول لها: « ملهوف».

سألتْ نعيمة: «هو اللي بيتكلم؟».

وما إن سمعتْ صوتي حتى سكتتْ تمامًا، ولم أُدرك أنها كانت تبكي إلا حين تحدثت من جديد. توسلتْ إليّ أن أتصل مرة أخرى، أن أتصل كثيرًا.

سألتني: «النهارده إيه؟»، ثم كررتِ السؤال نفسه على الميكانيكي.

سمعته يقول: «النهارده الأحد».

قالت: «الأحد؟»، ثم خاطبتني قائلة: «هاستنى هنا، جنب التليفون، كل يوم أحد في الوقت ده تقريبًا، احتياطي يمكن تفكر تتصل». وحين لم أقل شيئًا، قالت: «أحلف لك المرة الجاية مش هاعيّط».

لم أتصل بعد ذلك.

الفصل الثامن والعشرون

بلغتُ السابعة عشرة وعند ذاك كنت قد أتقنتُ ذلك الفن المتمثل في ملء كل يوم من أيام العام الدراسي بنشاط أو بآخر دون ترك فجوة، ومن حُسن الحظ أن مدرسة «دايلسويك» عُرفت برحلاتها، ولم يكن من النادر أن يختار الطلاب أحيانًا السفر معًا خلال إجازات عيد الفصح أو الكريسماس أو الإجازة الصيفية بدلًا من السفر إلى بيوتهم، ومع ذلك فقد كان من غير المعتاد لأي طالب أن يفعل هذا على مدار عامٍ كامل. ذهبنا إلى نزهات على الأقدام ورحلات بحرية؛ حضرنا مهرجانات موسيقية ومسرحية، تطوعنا لأعمال خيرية وقمنا بأسفار بهدفٍ وحيد مثل رؤية مبنى مهم أو متحف مميز، وفي بعض الأحيان لرؤية لوحة واحدة أو قطعة نحتية واحدة. فجأة أصبحَ وقتي ثمينًا. أذكر ساعات آخر النهار، حين كنتُ أجري إلى غرفتي لأكسب نصف ساعة من القراءة قبل موعد العشاء. شعرتُ بالامتنان نحو أبي الكريم لاختياره مدرسة «دايلسويك» وتمويله لما أدركتُ أنه تعليمٌ سخيّ، ولما سيكون في نهاية الأمر وسيلة إلهاء.

طوال كل هذا الوقت نادرًا ما شعرتُ بالرغبة في زيارة مُنى. وهي من جانبها كانت من وقتٍ لآخر تأخذ القطار في أيام الآحاد وتنزل القرية ثم تأخذ غرفة بواحد من الفنادق الصغيرة التي تُوفر المبيت والفطور. كانت تأتي بتاكسي فتصحبني لنتناول الغداء. فقدتُ الإثارة القديمة، بـابٌ أُوصِد. استشعرتْ هي هذا لأنها صارت تميل للأمام أكثر مما كانت تفعل وتتحدث أكثر مما كانت تتحدث قبل ذلك أبدًا.

سألتْنا نادلة ذات مرة إن كنا أمًّا وابنًا.

تركتُها تجيب.

«نعم»، قالتْ، وما إن قالتها حتى تورّد خدّاها .

اتصلتْ ذات مرة وأصرتْ على أن أذهب لقضاء نهاية الأسبوع معها. ركبتُ القطار عصر يوم الجمعة ووصلتُ لندن وقد حلّ الظلام. ترك الريف الكئيب مكانه لمدينةٍ ظافرة. سقطَ مطرٌ هادئ ومنتظم فالتمعت الأرض بلون فضي تحت مصابيح الشوارع. رحتُ أتوقف وأتخذ ملجأ تحت واجهات المتاجر، وهو تصرف كنتُ أراه حتى حينها أحد غرائب الإنجليز. وها أنا ذا، محاطٌ بجمع منهم: أجساد ملتفة بالمعاطف تحت مظلة قماشية شبْه مُجدية، نتطلع للخارج. بين حينٍ وآخر تهب ريحٌ فتميل معها خطوط المطر. لم يقل أيٌّ منا كلمة واحدة، كما كنا حريصين على ألا تلتقي أعيننا، فإذا حدث هذا عفوًا فإننا نشيح بوجوهنا

سريعًا بدون ابتسامة أو إيماءة. وقد يحسبُ الناظر إلينا أننا هنا لنتجنب الحياة التي تنتظرنا في البيوت. ثم فجأة، ودون تفسير، وبالطبع دون أن يتوقف المطر، يرفع أحدنا طوق معطفه من حوله أو حولها ويستأنف سيره في شجاعةٍ على الرصيف.

توصلتُ أخيرًا إلى عنوانها في المنطقة المسماة فينسيا الصغرى بوسط لندن. وقفتُ على الجانب المواجه من القناة، أتطلع إلى النوافذ المضيئة. ولم أنتبه كم كنتُ مُبتلًّا إلا حين ضغطتُ الجرس على باب المبنى.

سمعتُ صوتها يقول: «ادخل»، وصفّر الجهاز الطنان.

قبّلتْ خديّ وهي مبتسمة. لكن كان هناك شيء ما غير مضبوط، فقد كانت مُتعجلة ومُرتبكة. كانت تدور أسطوانة موسيقى جاز قديمة بصوتٍ مرتفع قليلًا عن اللازم. لم أعلم أبدًا أنها تميل لهذا النوع من الموسيقى. ثم وقعتْ عيناي على جاكيت رجالي، جاكيت من الجلد بُني اللون، على ظهر أحد كراسي المطبخ.

أحضرتْ كأسًا، ونظرت بداخل الفرن ثم أغلقت بابه بضربة قوية.

سألتني، من غير أن تنظر إليّ: «ماذا تحب أن تشرب؟».

سمعتُ صوت تدفق ماء في التواليت، انفتح باب وخرج منه شخصٌ ما، وهو يصفّر لحنًا.

قالت: «توبي، هذا نوري. نوري، هذا توبي» ، ولم تزد على ذلك في تقديم كلٍّ منا للآخر.

قمت واقفًا وصافحتُ الرجل.

قال: «سمعت عنك كثيرًا».

نظرتُ نحو مُنى، لكنها هربت بعينيها بعيدًا.

ـ «أخيرًا قررت «فتفوتة» أنه من المأمون أن نلتقي».

ـ «توبي، تأدّب».

قال لها: «أنا سعيد وحسب للقائي بشخص من «أوديستك» إلى مصر. كنا نتساءل هل هجرتنا الصديقة القديمة».

بعد صمتٍ مُربك سألتُ: «فتفوتة؟».

احمرَّ وجهها خجلًا.

قال لها: «فهمت، أخفيتِ هذا عن أصحابك الوجهاء». ثم توجّه إليّ وأضاف: «إنه اسمها للتدليل منذ أن كانت طفلة».

بدا ظافرًا، يبتسم وعيناه الحادتين عليّ.

ـ «كيف حال المدرسة؟».

ـ «إنني أعشقها»، ولم أستطع منع نفسي من النظر نحو مُنى مرة أخرى.

قال توبي: «ممتاز».

فقالت هي له: «بل يكرهها».

فقلتُ: «لا تصدقها، إنني أعيش أفضل أيام حياتي حقًّا».

قال: «هذا أفضل من حياة المدينة؛ فأنا أعمل في مجال المال والبنوك».

ـ «وفي أي «أوديسة» التقيتَ بمُنى؟».

ـ «إنه يعجبني،» قال لها ضاحكًا. « الجامعة، التقينا في الجامعة. قبل زمنٍ طويل. غالبًا قبل أن تُولد أنت».

ـ «وكيف كانت مُنى آنذاك؟».

كان توبي مُتلهفًا لأن يخبرني. مالَ للأمام وكان على وشك التحدث حين سمعنا مُنى تصيح:

«كفاية».

نظر توبي إليها، لكنها كانت تنظر إليّ. حطّ الآن صمتٌ كثيف كالرمال. وفجأة بدت الموسيقى مرتفعة للغاية، ولا بدّ أن مُنى فكرت بهذا لأنها اتجهت نحو الاستريو وأطفأته.

«لا تقلقي». قال لها توبي، «فلن أحرجك».

«لقد فعلتَ»، هكذا غمغمتْ، وتظاهرتُ بأنني لم أسمع ذلك.

«كانت، وللأسف مازالت، شوكة في الحلق بجد».

ألقتْ عليه فوطة مطبخ صغيرة ثم غطّت فمها.

«لكنها، لكنها»، أكمل ضاحكًا: «طالبة مجتهدة رغم ذلك».

جذب الفوطة الصغيرة عن كتفه. «كم يُسعدني أن أستعيدها من جديد».

قمتُ واقفًا بحركة عنيفة حتى إن المقعد سقط على الجدار الذي ورائي. وحين لم أدرِ ماذا أفعل أو كيف أفسر حركتي المفاجئة الفظة، نظرتُ لأعرف الوقت من ساعة أبي القديمة.

«أنا آسف، آسف جدًّا.. لا بدّ أن...».

وعلقّتُ حقيبتي على كتفي.

سألتْ: «إلى أين تذهب؟».

حاولتُ ألا أطيل النظر في عينيها: كم بدا فيهما الخزي والخسران، ولكم كانتا داكنتين وصغيرتين.

«لقد تأخرتُ بالفعل».

قالت: «علامَ تأخرت؟».

«لقد وعدتُ صديقًا من المدرسة أن أبيت عنده».

قالتْ: «لكنك.. والعَشاء؟».

ـ «آسف».

ـ «ولكن متى ستعود؟».

ـ «غدًا.. بالتأكيد».

الآن كنتُ أنتصر؛ شعرتُ برغبة في أن أكون منتصرًا.

«ولكن لا يمكنك أن تغادر هكذا بسرعة. ومن هو صديقك على أي حال؟».

ـ «آلكسي».

ـ «ولكن ألم يترك المدرسة؟».

ـ «إنه في لندن، في زيارة».

ـ «أعطني رقمه. لا بدّ أن أعرف كيف أصل إليك».

ـ «ليس معي. سوف أهاتفك بمجرد وصولي هناك».

طوّقها توبي بذراعه. قال لها: «إنه ليس طفلًا».

تبعاني حتى الباب ووقفا ينتظران بينما المصعد يزحف مقتربًا.

حملقتُ في حذائيّ. كنت أعرف أنها تعرف أنني أكذب، وأنه لا وجود لأي صديق ينتظرني، وأن أكثر ما أردته هو أن يكون شخصٌ ما بانتظاري، يتوقع حضوري ويرحّب بي. صمتها الآن أشبه بالتحدي. قلتُ لنفسي عليّ ألا أتراجع. عليّ أن أُثبتَ لها أنني أستطيع القيام بهذا. امتلأت عيناي بالدموع. ثبّتهما على باب المصعد ودعوتُ الله ألا يضع أحدهما يده على كتفي. وصل المصعد ودخلته بسرعة. بعد أن انغلق الباب سمعتها تقول: «اتصل بمجرد وصولك».

وبهذه السرعة خرجتُ إلى الليل من جديد. توقف المطر، ولكن الهواء كان أشد برودة. تخللت الرطوبة معطفي. ارتجفتُ وقلتُ لنفسي إنه لم يكن خوفًا. كنتُ وحدي في لندن، لكنني معي من المال ما يكفي للنزول بفندق. قلتُ لنفسي، على كلٍّ هذا ما يفعله الناس حين لا يكون لديهم أي مكان آخر للمبيت. وكانت لديَّ خبرة بالفنادق. ألم أتبع والدي مراتٍ لا حصر لها

إلى مكتب الاستقبال بفندقٍ ما في مدينةٍ أجنبية؟ تذكرتُ ما كان يقوله: «لديَّ حجز». وعلى الرغم من أنه ليس لديَّ حجز، فقد طمأنني تخيله موجودًا هُنا، إلى جانبي، لكنه فقط على اليسار خارج مجال رؤيتي.

وجدتُ فندقًا بأسرع مما توقعت، في الشارع نفسه، ربما يبتعد ستة أو سبعة مبانٍ فقط، يُشْرف على القناة نفسها. عقدتُ وشاحي لأخفي ربطة العنق المدرسية. وبكل ما استطعتُ أن أستجمعه من جرأة اقتربتُ من مكتب الاستقبال ثم وضعتُ حقيبتي ببطء.

«أريد غرفة، من فضلك. ليس لديّ حجز».

ألقى بنظرة ورائي.

قلتُ: «لشخصٍ واحد»، ورغم أن الشك لم يزايل وجهه تمامًا فقد سحب استمارة وأخذ بياناتي.

سألني: «هل تُفضل طابقًا محددًا؟».

لم أكن واثقًا من هذا وأحسستُ أنني بدأت أتعرق. ثم تذكرتُ الطابق الذي تعيش هي فيه، فقلت: «الرابع».

طلبَ مبلغًا تحت الحساب، وكان نصف النقود التي معي كلها. في وقتٍ سابق من ذلك اليوم كنتُ في البنك أتخيّل أننا سوف نذهب إلى مطعم «كلاريسز» لتناول الفوندو ثم ندخل السينما، ولهذا فقد سحبتُ نصف مصروفي الشهري.

جلستُ في الغرفة المظلمة بجوار النافذة ورحتُ أراقب أضواء مصابيح الشوارع تتلاعب على المياه. لم تكن هذه هي

القاهرة، وبكل تأكيد ليست القناة النحيلة هي النيل، لكنني حاولتُ أن أتخيل أنني أعيش هنا وأشاهد المنظر نفسه كل يوم. ثم انتبهتُ إلى أنني كنتُ أرتجف. بلغ البرد عظامي حتى لمسها. اعتادت أمي أن تعد لي حمّامًا في الشتاء. فقلتُ لنفسي إن هذا ما يجب أن أفعله لقتل ذلك الارتجاف. تمددتُ في البانيو حتى فترتِ المياه الساخنة. تركتُ نور الحمام مضاءً ودخلت في الملاءات الباردة. تتسارع دقات قلبي كلما سمعتُ أحدهم يصعد السلّم. كنتُ واثقًا أن تلك الخطوات آتية إلى بابي، وأكتم أنفاسي حتى تبتعد فأتنفس من جديد. عند نقطةٍ ما كنت مقتنعًا أن أحد الأصوات المقتربة هو صوت «توبي»، وحين أجابته المرأة التي معه ولم يكن صوتها يشبه صوت مُنى، قلتُ مبررًا لعلّها تتحدث إليه بهذه الطريقة، مثل النبرة التي كانت تدخرها لأبي، فلا بدّ أن لديها نبرة خاصة بـ«توبي» أيضًا.

في اليوم التالي هاجمتني السخونة. وعند الحادية عشرة اتصل مكتب الاستقبال ليسأل إن كنتُ أنوي قضاء ليلة أخرى. أجبته: «نعم»، وانتهينا. بعد ساعة طلبت حساءً وشايًا، وقد تردد موظف الاستقبال قبل أن يقول: «سوف أرى ماذا يمكنني عمله». الرجل الذي أحضرهما ظل ينظر في أرجاء الغرفة بينما أعدّ النقود. في وقتٍ مبكر من الأصيل كنتُ ملتفًّا بمعطفي من جديد نازلًا على السلّم. سرتُ حتى بناية مُنى ودققت الجرس، فأجابت بسرعة.

قلت: «إنه أنا».

قالت: «أين كنت؟»، وضغطت الجهاز لتفتح الباب.

حين خرجتُ من المصعد وجدتها تنتظر.

وسألتْ من جديد: «أين كنت؟». وسارت إلى داخل الشقة. «لقد افترسني القلق عليك».

ـ «لكنني قلتُ لكِ إنني كنت مقيمًا عند صديق».

ـ «نعم، وقلت إنك ستتصل. لقد أصبتني برعب. ماذا لو حدث شيءٌ ما؟ وأين حقيبتك؟».

ـ «في الفندق».

ـ «أي فندق؟».

ـ «الذي أقيم فيه مع «آلكسي». هنا، في هذا الشارع نفسه».

تغيّر وجهها. بانت في عينيها دموع، وفتحت ذراعيها واقتربت مني. احتضنتني لبضع ثوانٍ، ثم قالت: «هيا، فلنخرج»، وسرنا حتى الفندق. استراح قلبي حين قالت إنها سوف تنتظرني بالطابق الأرضي. لم أرغب أن تشهد الغرفة، والفراش المنكوش. دفعتْ هي المطلوب لموظف الاستقبال، وبينما كنا عائدَيْن إلى بنايتها أعطتني ما دفعتُه تحت الحساب، ثم مررتْ أصابعها في شعري.

لم يذكر أيٌّ منا «توبي». ولم أعد لزيارتها حتى الصيف السابق على عامي الأخير في «دايلسويك»، ولليلة واحدة حينئذٍ في طريقي إلى مطار «هيثرو» ومنها إلى «تنزانيا»، حيث كان من المفترض أن يمضي طلاب الدفعة شهرين للمساعدة

في بناء دارٍ للأيتام. أرسلتُ لها بطاقة بريدية كتبت عليها أنني لم أشعر أبدًا بأنني في وطني بقدر ما شعرتُ وأنا في «تنزانيا». أخبرتها بزيارة قمنا بها إلى جامعة دار السلام. ذكّرتها بأنه قد تبقى لي عامٌ واحد قبل التحاقي بالجامعة ولازلتُ لم أستقر على اختيار. لكنها حين ردتْ عليَّ، لم تعلق على هذه النقطة. لم تقل أي شيء عن أنها تريدني أن أبقى في إنجلترا.

الفصل التاسع والعشرون

في نهاية الأمر وقع اختياري على جامعة في لندن. أخذتُ شقة في حي «هولاند بارك»، ليس شديد البُعد من حي فينسيا الصغرى حيث تسكن، وليس شديد القرب مع هذا بحيث قد أُتهم بالتطفل عليها.

التقيتُ مُنى بين الحين والآخر. عادةً ما كانت تبدأ تلك اللقاءات على النحو ذاته. أذهب إلى شقتها وأراقبها تحوم في المكان متوترة لبضع ثوانٍ قبل أن تلتقط حقيبة يدها ومفاتيحها، وتقول: «حسنٌ، هيا بنا». كنا نتمشى بحذاء القناة، ثم نجلس في كافيتريا قريبة اسمها «بريدج هاوس». كنتُ أشعر أنني مُراقَب وشككت أنها تشعر بذلك هي أيضًا.

ـ «بمَ أخبرك أبي عن عمله؟».

ـ «أنت تعرف أنه لم يتحدث أبدًا عن ذلك».

ـ «لكن لا شك أنه أخبركِ بشيءٍ ما».

ـ «امتلك أبوك موهبة خاصة في الاحتفاظ بالأسرار. وتصرفه الأخير يُثبت هذا».، ثم قالت بعد صمتٍ طويل: «كان مهووسًا بهذا البلد. كان وسواسًا متسلّطًا».

ـ «كانت قضية نبيلة»، هكذا قلتُ لأن تعبير «وسواس» لم يعجبني. «كان رجلًا شجاعًا للغاية».

قالت: «نعم». كانت الموافقة صادقة، وصدرتْ عنها بإحساس من الرقة الفريدة.

في بعض الأحيان كنتُ أطلب منها أن تتذكر تفاصيل محددة من يومنا الأخير في سويسرا، البلد الذي لم أعد إليه منذ اختفاء أبي، ولا هي فعلت في حدود علمي.

«أخبريني ثانيةً ماذا قال رجل الشرطة».

وكانت تتململ. «حسنٌ، ألم تكن موجودًا هناك أنت أيضًا؟».

ـ «من ذلك الذي اتصل بنا في غرفتنا؟ تذكرين؟ بعد أن اتصل حيدر وطالب؟» .

ـ «لم يتصل أحد».

ـ «بل اتصل أحدهم. وأعتقد أنك في آثينا استخدمت الهاتف مرةً أخرى».

ـ «آثينا؟».

ـ «نعم، لقد نزلنا هناك ترانزيت».

ـ «لا أذكر. لقد مرّ كل هذا في حالة من الذعر».

* * *

كوّنتُ حلقةً صغيرة من الأصدقاء، أغلبهم من الجامعة، وتقاسمتُ معهم ما خلتُ أن بعض الأشقاء يتقاسمونه: تحالف دافئ ومع ذلك يكفل مسافة مناسِبة بينهم. كنا نحضر حفلات موسيقية، نأكل في مطاعم، نتصل ببعضنا بعضًا في أعياد الميلاد. أعترفُ بأنني لم أكن أقدم سوى القليل، وقد بدوا راضين بهذا. لم يعرفوا عني الكثير باستثناء أنني مصريّ ـ وهي معلومة غير صحيحة في حد ذاتها. وافقني نوعٌ محدد من المزاج الإنجليزي، لأنني لم أكن بالمرة الشخص الذي يميل للإفضاء باعترافات. لم أكن أنفق بسخاء على ثيابي كما كان أبي، ومع ذلك فقد تجنبتُ الإهمال المتعمد الذي ميّز موضة تلك الأيام. حين كُنت أُدعى للعشاء في بيت أحدهم، كنت أحرص أن تكون هداياي معتدلة: لا أبسط من اللازم ولا أفخر. لم أُعلن أبدًا آراءً حادة أو صلبة، ما لم تكن هذه هي الطريقة الوحيدة لكيلا أتميز عن الآخرين. وكلما قال أحدهم شيئًا عن مدى عنصرية الإنجليز، أو أعربَ بتلك الطريقة المرهفة والمهذبة، عن رضاه لحقيقة أن من بين أصدقائه عربيًّا أسمر البشرة، فإنني أتظاهر وحسْب أنني لم أسمع شيئًا، على نحو ما يفعل المرء إذا أطلق عجوزٌ ما ضراطًا في حضوره.

كنتُ أتخذ حبيبةً بين الحين والآخر، ولكن مع كل مرة أمارس فيها الحب، كان يعاودني ذلك الإحساس القديم بالذنب الذي شعرتُ به مع مُنى تلك الليلة، دون أن يصير أخف وطأة بعد كل تلك السنوات، بل يكاد يكون أسوأ حالًا. أتذكر امرأة واحدة ـ كان اسمها «كاثرين»، مهندسة معمارية ـ سألتني عن سبب تجمع الدموع في عينيّ. ألجمني الحرج ولم أقل أي شيء، متمنيًا أن تحسبها من انفعالات الحب. وأكثر من مرة كانت نوبات الذنب تلك تتجسد في حالة من الانفصال البارد عن المرأة وعدم الاكتراث بها ـ التي عادةً ما تكون ما تزال عارية في تلك اللحظة ـ مما يُشعرها بالمهانة أو الارتباك، وفي الحالتين تطلبُ تفسيرًا. وفي الصباح الذي يتلو هذا أشعر بالحاجة للاتصال بمُنى. فأتحدث إليها عن مسرحيةٍ جديدة شاهدتُها، أو مطعم جديد اكتشفته، محاولًا أن أبدو كما تعتادني، حتى إنني في بعض الأحيان أجدني أقول شيئًا مثل: «أعتقد أنكِ أنت و«توبي» سوف تستمتعان به».

* * *

كنتُ في الرابعة والعشرين وحصلتُ لتوي على درجة الدكتوراة في تاريخ الفن، حين أصحبتُ حرًّا تمامًا في أن أفعل ما أشاء، حسب بنود وصية أبي. وأكّدت هذا الأوراق التي أرسلها لي السيد «هاس» بالبريد بعد عيد ميلادي بأسبوع: فقد أفادتْ

بأن لي حرية التصرف كاملةً في ميراثي. وبدتْ أمامي خيارات لا نهائية بخصوص أين أعيش وكيف سأعيش. ولم أجد في هذا أية راحة.

بدأ يساورني الشعور بأنني قد أهملتُ أبي. رأيته ينتظرُ في غرفةٍ بلا نوافذ. واستولى عليّ سؤال ماذا يمكنني عمله لكي أجده. كنتُ أحلم به كثيرًا. في أحد الأحلام كنتُ أجلس على مقعدٍ طويل، وأنا أعلم أنه سيأتي. وفجأة يكون بجانبي. لا أعرف كيف، لكننا في العُمر نفسه، وفي هذه الحقيقة هناك شيء مأساوي. إنه صامت. إنه متحفظٌ تجاهي. ومن داخل الحلم تمنيتُ أنني ربما ذات يوم قد أجعله يطمئن. في تلك الأحلام أكون أنا دائمًا الطرف الثرثار، مثل رفيق سفر متوتر على متن قطار. لم يكن ينظر نحوي إلا فيما ندر. وفي كل مرة أنظر إليه ألاحظ شيئًا آخر فيه قد تبدّل: إيقاع تنفسه، أو كيف تتجعد ياقة غير مُزررة من حول عنقه. في أحد الأحلام وضع يدًا على ظهري، بين لوحي الكتف، وقد ضايقتني سخونة راحة يده، لكني لم أقل شيئًا. ذات وقتٍ آخر يكون جائعًا، فأكسّر قطعًا من الجبن في حجري وأطعمه بيدي. وفي حلمٍ آخر يقول لي: «أتمنى لو كان عندي مزيد من العالم في العالم». وحين أسأله عمّا يعني، وإن كان يقصد مزيدًا من الأبناء، لا يقول شيئًا. أريد أن أعرف كيف أُواسيه. ثم يقول: «إنها تهمسُ في أذني طوال الوقت»، وأعرف أنه يقصد أمي، «صوتها، ونَفسها الدافئ على أذني، من وراء رقبتي».. يحمر خداه، مثل رجلٍ

شاب، كما يبدو وجهه في الصورة التي أحتفظُ بها، والتقطتها له أمي حين كانا عروسين جديدين. يلمس ذراعي، وأفكر أنا، في سعادة، لقد أصبحنا صديقين.

ثم تسيل دمعةٌ على جانب وجهي وتسقط داخل صدفة أذني وتُوقظني.

* * *

ذات صباح حضّرت حقيبة سفر صغيرة وسافرتُ إلى جينيف.

تركتُ حقيبتي في فندق اسمه «إيدِنْ» وخرجت أتجول في الشوارع. مرتْ عشر سنوات منذ آخر مرة كنتُ فيها بالمدينة. كانت الشمس ظاهرة رغم أننا في آخر النهار، وقد أضاءتْ في شحوب كأنها شمس الصباح الباكر. كنتُ سائرًا في شارع «جراند» حين بدأت أشعر بأنني أسترخي. كان تحول المزاج بلا تفسير ورائعًا بالقدر نفسه.

بحلول الغَسق كنتُ قد وجدتُ الشارع، شارع «مونيير»؛ الذي يُفترض أن «بياتريس بيناميور» كانت تقيم فيه. كان اسم الشارع راسخًا في ذاكرتي منذ ذلك اليوم من ديسمبر قبل عشر سنوات حين حاول «هاس» أن يقدّمنا للسيدة السويسرية الغامضة. لو أن الشارع بدا أصغر حجمًا لما كان هذا غريبًا ـ كما تبدو بالفعل أغلب الأماكن التي عرفها المرء في طفولته ـ لكن بدلًا من ذلك كان طريقه الأسفلتيّ أكثر اتساعًا عما أتذكره،

والرصيف على جانبيه أعرض والبنايات أطول وأكثر حضورًا أمام سماء الليل. وقفتُ على الرصيف المقابل لمدخل المبنى ذي الأقواس والمجنّح بالتمثالين البشعين لكيوبيدين من الجص. فكّرت فيما عساني أن أفعل إذا رأيتُها. تطلعتُ للنوافذ، لم يكن مضاءً سوى قليلٍ منها. أخرجت الخريطة وعلى نور مصباح الشارع عثرت على أقصر مسار نحو وسط المدينة ـ الطريق الذي أحسستُ أن أبي قد سار عليه. بحثتُ عن متجر للتبغ ظننتُ أنه الأقرب، واشتريتُ من هناك عُلبة «دانهِل»؛ نوع السجائر التي كان يدخنها أبي. كانت العلبة المسطحة المألوفة على مقاس جيب قميصي تمامًا.

رغم معرفتي أن «بياتريس بينياميور» قد تكون انتقلت من سكنها خلال العشر السنوات ـ هذا إذا كانت قد عاشت هناك حقًّا ـ ولكن مع هذا أثارني نجاحي في العثور على المبنى بحيث إنني بعد تناول الإفطار في الصباح التالي سرتُ عائدًا إلى شارع «مونيير». في هذه المرة امتلكت شجاعة أن أراجع الأسماء على الأجراس الخارجية ـ لماذا لم أفعل هذا في اليوم السابق؟ كان في حلقي رهبةٌ وانفعال. وها هو الاسم: «آنسة بينياميور». كان عليّ قراءته أكثر من مرة. بدا الاسم جديدًا بصورة غريبة، كما لو أنني لم أره من قبل.

شعرتُ فجأة بالحاجة لأن أخرج من المتاهة الضيقة للشوارع. وبعد منعطفين وجدتُ مقهى على طريقٍ قريب.

للوهلة الأولى بدا المكان مثل كل مقهى غيره، ولكني ما إن جلستُ حتى صرتُ واثقًا أنني كنتُ هنا من قبل، ربما بصحبة والديَّ في واحدة من زياراتنا العديدة لهذه المدينة. شربتُ القهوة على عجل ثم انصرفت.

كان الطريق مُشرفًا على حديقة عامة، تجولتُ فيها بضع مرات ثم جلستُ على مقعدٍ طويل. وبعد مرور ساعتين بدأت أشعر بأنني أهدأ نفسًا.

* * *

عدتُ للمقهى ذاته لأتناول غداء. وكان قد مرّ بعضُ الوقت على جلوسي هناك في الركن ـ أفعل ما كانت تفعله مُنى؛ «أحسّن لغتي الفرنسية» مع صحيفة «لا تريبون دو جينيف» ـ وبعد أن خفّ زحام وقت الغداء، حين لاحظتُ أنني تعرّفتُ على المرأة الجالسة بجانب النافذة وترتدي جيبةً ضيقة. قبل أن أتعرف عليها كنتُ قد لاحظتُ كيف تضع إحدى يديها على حجرها وتضمّ قبضتها بشدة بينما لا تزال ممسكة بفنجان قهوتها قريبًا من فمها باليد الأخرى، وأحيانًا تترك حافته على شفتها السفلى لوقتٍ طويل قبل أن ترشف منه. كانت تُشبه «بياتريس بينامیور». كنتُ مع هذا غير متأكد: أكانت هي حقًّا المرأة التي قضى أبي معها ساعاته الأخيرة؟ كان هذا قبل عشر سنوات، وصور الصحف لم تكن طباعتها شديدة الجودة. تمنيتُ لو كنتُ قد أحضرتُ معي

قصاصة الصحيفة. لكن تلك الصورة قد صارت مألوفة لديّ كما لو كانت بالفعل إحدى صور أبي. ناظرًا إليها الآن ـ بأناقتها التي لا تشوبها شائبة، وماكياج مُرهف ومدروس ـ لم أستطع أن أتحرك. لم يترك التقدم في العمر أثرًا شديدًا عليها خلال العشر السنوات الماضية، كأنه لم يمر أي وقت مطلقًا، كما لو أن أبي مازال راقدًا في سريرها أو أنه قد يدخلُ المقهى فجأة ويجلس إلى جانبها. كنتُ مُمتنًّا لجمالها، مسرورًا من أجل أبي. أردتُ أن أخطو نحو مائدتها، غير أنني ثبتُ في مكاني مقتنعًا أن أي فعلٍ قد أتخذه سيجعل هذه اللحظة تتبخر بكل احتمالاتها. علاوةً على هذا، ماذا سأقول؟ كل ما استطعتُ فعله هو مراقبتها من وراء الصحيفة. وقفتْ لتنصرف. كانت هذه هي فرصتي. لكنها حين نظرت في اتجاهي خفضت عينيّ.

قال النادل: «نراكِ قريبًا، آنسة بينامیور».

دفعتُ وانصرفت. لمحتُها وهي تنعطف إلى شارعٍ آخر. جريتُ خلفها. نظرتُ خلفي فرأيتُ النادل واقفًا خارج المقهى وعيناه عليّ، في مريلته البيضاء الطويلة، مكوية بكل اعتناء في خطوط كبيرة مربعة. لم أجرِ بعد ذلك وحرصتُ أن تكون خطواتي معتدلة. انعطفت عند الناصية وراءها. كانت قد ابتعدت بمسافة لا بأس بها. حاولتُ الجري من جديد لكن حذائي دقّ بصوتٍ عالٍ على الطريق المرصوف بالأحجار. لم أهتمّ، كانت خطواتي أسرع من خطواتها، وأخيرًا صرتُ على مبعدة ذراعٍ منها،

أستنشقُ بعُمق محاولًا أن أشمّ رائحتها. لكنني لم أتبين أي شيء، ولا حتى عندما توقفتْ لتنظر إلى ساعة يدها ووقفت خلفها تمامًا إلى درجة أنني حين أطلقتُ زفيرًا تفرقتْ بعض شعرات رأسها. أشعلتْ سيجارة وسارت خلال نفخة الدخان. راقبتها تقطع الطريق. دقّتْ جرس مبنى عليه سمات عزٍّ قديم وله باب خشبيٌّ حائل، عليه لوحة تعريف نُحاسية صغيرة. من الطابق الأول كان يرفرف عَلَم سويسرا معلقٌ على سارية. كان قماش العَلَم كبيرًا للغاية حتى إن طرفه الأحمر قد مسّ قمة رأسها فيما دفعتْ هي الباب واختفت بالداخل.

لم يغمض لي جفن تلك الليلة من فرط الإثـارة وكثرة الاحتمالات. قررتُ أن أحاول التعرّف عليها دون أن أكشفَ لها عن هويتي. كنتُ قلقًا من أنها لو علمتْ مَن أنا سيدفعها الذعر للاختفاء، تمامًا كما فعلتْ قبل عشر سنوات.

* * *

في اليوم التالي وبينما أعبر فوق جسر «بونت دو لا ماشِن» تحت شمس سبتمبر البيضاء، وأمامي تنفتح البحيرة وتلتمع حتى الجبال البعيدة التي تغطي الثلوج أجزاءً منها، وجدتُ كتلةً من الناس مجتمعين، وقد سندوا بأيديهم المغطاة بالقفازات على سياج الجسر، وأمالوا رءوسهم، وراح بعضهم يصيحون بالتوجيهات إلى رجلٍ بكامل ثيابه في الأسفل والذي كان يحاول باستماتة أن يتسلق ويخرج من المياه.

احتضن عمود الجسر، ونجح في أن يستخلص جذعه من التيار السريع للماء، ولكنه انزلق من جديد. كان يتطلع يائسًا للأعلى نحو الضفة التي تحت الجسر حيث استطعتُ رؤية امرأة راكعة هناك، وقد ربطت رأسها بوشاح كما لو أنها قد نزلت للتو من سيارة مكشوفة. لم أتمكن من رؤية وجهها، ولكن من طريقة عقْد ذراعها حسبتُ أنها تضع يدها على فمها. كان رأس الرجل يظهر ويختفي فوق الماء، وقد بدأت أنفه تنزف. مسحها وألقى برأسه إلى الوراء. للحظة تطلعت عيناه إلينا، لكن دون أن يبدو عليه أنه انتبه للصيحات العصبية بأن يُسرع، وأن يصل مرة أخرى إلى العمود، وألا يستسلم. كان جسده يتحرك تحت المياه حركة عنيفة مضطربة. ما إن رفع رأسه مستقيمًا حتى غطى الدم شفتيه وذقنه. ثم بدأ محاولة أخرى لتسلق الجسر، فانزلق وعاد للخوض في المياه مرةً أخرى. المرأة التى تحت الجسر لم تتحرك.

صاح أحد الرجال: «اتصلوا بالمطافئ».

فردّ عليه آخر: «اتصلنا، منذ قليل».

«لماذا يتأخرون إلى هذا الحد؟»، هكذا قالت امرأة ورائي، برقة شديدة فشعرتُ أن عليّ أن ألتفت خلفي لأراها.

الرجل الذي في الماء كان يُجاهد الآن بشدة، وقد حلّت في ذراعيه قوةٌ جديدة. كان العمود على مبعدة متر واحد. قبض عليه ونجح في الوصول إلى العارضة الأولى. صار الآن خارج

مجال رؤيتنا. بدت المياه بدونه أكثر ظلامًا. وحيث كنتُ أمام سياج الجسر مباشرةً، فقد انحنيت للأمام مثل الآخرين حتى أرى. وكلما تساءل شخص من الخلف ما إذا كان الرجل قد نجح كنا نتجاهله. أبقيتُ عينيّ على المرأة. كانت لا تزال راكعةً على ركبتيها، لكن يدها الآن ابتعدت عن فمها وامتدت مفرودة، كأنما تقول له: «ابق مكانك». وأخيرًا وثب على الضفة المنحدرة، والماء ينصبّ من قُطَب حذائه الجلدي الأسود، صفّقنا جميعًا. فتحت المرأة ذراعيها وارتمى الرجل عليها، وسرعان ما استراح رأسه على حجرها. مسّدت شعره المبتل ومشطته، وأزاحته وراء أذنيه، ولأنها من تلك الزاوية لم تستطع أن تنحني وتقبله، فقد رفعت راحة يده نحو وجهها. فكتْ وشاحها وكوّرته تحت أنفه. تحرر شعرها في الهواء، كما لو كان يتنفس، وانطرح أسود وكثيفًا. والآن، بينما يتضح تدريجيًّا صوت السرينة النائي بدا أن السكون الذي حلّ بمن حولي ليس تعبيرًا عن القلق بقدر ما هو احتفال. سرتُ مبتعدًا متجهًا إلى المقهى، يغمرني إحساسٌ مفاجئ بالأمل والنزق.

الفصل الثلاثون

كان وقت الغداء، والمقهى ممتلئ تقريبًا. كانت المائدة الوحيدة الخالية بجانب النافذة. راح النادل يراقبني من المدخل دون أن يتحدث، وفي النهاية جاء إلى مائدتي. طلبتُ شريحة لحم، غير ناضجة تمامًا، على نحو ما تذكرت أبي يُحبها. تخيلته جالسًا في هذا المطعم، في واحدة من بدلاته ذات اللون الرمادي الداكن. وتساءلتُ هل يمكنني العثور على الخيّاط الخاص به. تذكرتُ كيف كنت أجلس على مقعدٍ بلا ظهر في متجر الخيّاط، أشاهده بينما يأخذون مقاساته. فكرتُ أنني قد أطلب صُنع بدلة بصديري على التصميم الذي كان يفضله. انتهى زحام الغداء، وصرت وحدي في المكان. «بياتريس بينامیور» لم تأتِ قَط. في لحظةٍ ما راودني الإحساس بأن النادل يحادثها على الهاتف، فبينما كان يتحدث كان يرمي بنظراته في اتجاهي ثم يدير ظهره، هامسًا ومُومئًا برأسه. أصبحتُ واثقًا من أنه يتلقى توجيهات. حين وضع السمّاعة لوحتُ له طالبًا الفاتورة.

ذهبتُ إلى غرفتي ولزمتُ الفراش حتى الصباح التالي، ولم يكد يغمض لي جفن. تساءلتُ: تُرى كيف ستكون ردة فعلها إذا ما ذهبتُ ببساطة وضغطت على جرسها وعرّفت بنفسي؟! فكّرتُ أن أتصل بطالب وأسأله ماذا يقترح عليّ أن أفعل، وفكرتُ أن أتصل بمُنى وأطلب منها المجيء. في التاسعة صباحًا اتصلتُ أخيرًا بمكتب السيد «هاس». كنت قد انتويتُ الاتصال به بمجرد وصولي إلى جينيف، غير أني بطريقةٍ ما لم أجدني قادرًا على مواجهة هذا. لم أتلقَّ ردًّا. أعدتُ طلب الرقم كل خمس دقائق إلى أن أجابتني سكرتيرته في تمام التاسعة وخمس وأربعين دقيقة.

سألت: «هل اتصلت قبل هذا؟».

قلتُ: «لا».

تركتني أنتظر، ثم عادت لتقول: «إن السيد «هاس» يود أن تأتي في أقرب وقت. هل يمكن أن تأتي الآن؟».

العشر السنوات التي مضت منذ المرة الأخيرة التي رأيتُ فيها «تشارلي هاس» رقّقت هيكله الذي كان نحيلًا بالفعل؛ تتعلق الآن البدلة بجسده على نحوٍ سائب قليلًا. وبدا أقصر بطريقةٍ ما، وظهر تحدّب هيّن في كتفيه. لم يعد شعره أسود اللون، والتصقت الخصلات الخفيفة بفروة رأسه. غير أن التغيير الأبرز والأدق مع هذا كان في عينيه، فقد صارت أقل ثقةً، وأكثر حذرًا. بدا وكأنه قد استسلم أمام شكوكه المحتومة.

تصافحنا، ثم أمسكني من الكتفين.

جلس وراء مكتبه وجلستُ على مقعد صغير بمسندين في مواجهته.

قال: «إنك تشبه أباك، تملك زمام نفسك بالطريقة نفسها».

امتدت ذراع السكرتيرة بجانبي ووضعت قدح قهوة على المكتب. انتظر «هاس» حتى انصرفتْ.

ـ «إذن ما الذي أتى بك إلى جينيف؟».

ـ «مررتُ بها خلال سفري. فكرتُ أن عليّ أن أمرّ بك لأقول لك شكرًا».

«هل كل شيء على ما يرام من الناحية المالية، كما أتمنى؟».

لاحظتُ ستارًا خفيفًا من الرطوبة يلتمع على جبينه. ثم طاف بوجهه تعبيرٌ جديد وسرعان ما تلاشى.

«لا بدّ أنه من الصعب التعايش مع إرثه، مع ما فعله، والطريق الذي سلكه».

كنتُ متأكدًا أنه اعتبر الصمت الذي تلا ذلك موافقة من جانبي.

ـ «لكن يجب ألا تلقي باللوم عليه. بالطبع اتخذ خيارات صعبة، ولكن يجب ألا تدينه. يجب عليك أن تضع ذلك كله جانبًا وتكون فخورًا بشجاعته وثبات موقفه. لو أنه رجل أصغر نَفسًا، وخصوصًا مع ذكائه وموارده، لكان ابتعد عن أية مسئولية وعاش حياةً غير مُعقدة في مكانٍ ما».

«ما كنت ألومه لو فعل ذلك».

لم يُجب، لكنّ قطرات العرق على جبينه تكاثرت.

«أتذكر أنه تحدّث عن مدينةٍ شمال كاليفورنيا، وذكرَ مكانًا كان يحبه». نعم، أتذكره الآن. كان يجلس حيث تجلس أنت، في المقعد نفسه، وقال: «تشارلي، أفكرُ أن آخذ ابني وأنتقل إلى أمريكا. لقد اشتريتُ مكانًا لهذا الغرض. في «بوينت ريز». سألتُه: «أين تقع؟»، فقال «شمالي كاليفورنيا». ولم أستطع أن أمنع نفسي من الضحك، وسرني أن آراه يضحك هو الآخر. لمجرد تخيّل أبيك مسترخيًا على أحد شواطئ كاليفورنيا! لكني أعتقد أنه كان يشعر بالفعل بالتمزق، وكان قلقًا لما سيكون معنى حياته بالنسبة لك، وقلقًا من مآل كل تلك الأمور. وكان مُحقًّا في قلقه بطبيعة الحال».

كان كلانا صامتًا. أطلق «هاس» نَفَسًا ثقيلًا.

«قمتُ باصطحابه بعد ذلك إلى غداء رائع ـ كان والدك معروفًا بوجبات الغداء الطويلة ـ ولم يأتِ على ذكر كاليفورنيا بعد ذلك بالمرة».

فجأةً بدا كل شيء في تلك الغرفة قديمًا وباليًا: المكتب والأريكة القديمة في الركن، وبدلة «هاس» كذلك.

خفّض عينيه نحو أصابعه، التي كانت طويلة ورفيعة، وتحدث بلين وهدوء، كما لو كان يتحدث إلى نفسه.

«كان رجلًا عظيمًا حقًّا».

تركتُ عينيّ تستريحان على زهرات السوسن الذهبية التي تتواشج معًا على الحافة الداخلية لفنجان القهوة الصغير. ووجدتُ شيئًا من الراحة في التحديق بسواد القهوة، بينما يصعد البخار فوق السائل في أنفاسٍ رمادية.

«ماذا حدثَ لبياتريس بيناميور؟».

بدتْ عيناه الآن أكثر حذرًا من ذي قبل.

ـ «هل سبق وأن تتبعت أثرها مرةً أخرى؟».

ـ «نعم. كانت السنوات شاقة عليها هي أيضًا».

ـ «أود أن أتحدث إليها. فقبل كل شيء...».

لسببٍ ما لم أستطع أن أكمل الجملة.

فقال بلطفٍ وسط الصمت: «بالطبع، سأحاول. دع الأمر لي».

ببطءٍ كتبتُ اسم الفندق الذي كنتُ أقيم فيه، ورقم الغرفة.

* * *

نزلتُ من الحيّ القديم إلى حافة البحيرة وهناك جلستُ على أحد المقاعد الطويلة. وانطلق عقلي يتخيل احتمالًا آخر عن نفسي: شخصًا أكثر مبادرة، أشجع وأعظم قدرة، شخصًا تكون تحرياته أقل يأسًا وأقل استغلاقًا عليه. ظلّ الخجل والندم يناكفاني، وكانا معًا في نفس إلحاح صيحات النوارس التي تحوّم

الآن فوق البحيرة. كانت السحب تمر مُسرعة، تمزّق الضوء خطوطًا انطبعتْ على المياه والظهور المسننة للجبال التي تسدّ الأفق. شعرتُ بدُوار، كما لو أنني أستوعب وزن الأشياء للمرة الأولى ومعه الواقع الهائل والمعقد معًا للعالم المادي وحضوري العابر فيه. أمسكتُ برأسي وحدقت في أوراق العشب عند قدميّ. رحت أحصي غرز الخياطة الموجودة في جلد حذائيّ. أردتُ من هذا العالم أن يسكن، أردتُ أن أثبته وأن أكون ثابتًا في داخله. غير أن كل شيء بقي يتحرك؛ السحب والريح.

يجلسُ الآن صبيٌّ على الطرف الآخر من المقعد الطويل. منذ متى وهو هناك؟ راح يراقبني لوقت طويل قبل أن يتحدث.

سألني: «أنت حزين؟».

حاولتُ أن أبتسم.

عاد بنظره إلى ركبتيه من جديد. كانت ساقاه أقصر من أن تصل قدماه للأرض. وبين الحين والآخر كان يركل الهواء. تلفّت حوله فجأة. كيف أحسّ بأمه تقترب؟ أتتْ وجلست بيننا، وأخرجت شيئًا ملفوفًا في كيسٍ ورقي وناولته له، لكنها أخذته من جديد وقشرت عنه الغلاف وأعطته له. جلسا في صمتٍ أنيس، يأكلان الساندوتشات، وتلتفت نحوه أمه بين الحين والآخر لتمسح الفتات عن ذقنه.

تركتُهما وصعدتُ نحو متاهة شوارع المدينة القديمة. سرتُ بسرعة إلى أن أبطأت خطواتي الطرقات المنحدرة. انسدل المساءُ

مثل ستار. لم يكن هناك قمر، مصابيح الشوارع مضاءة. لا بدّ أن السماء أمطرتْ كذلك، لأن حجارة الطريق المبللة عكستْ ضوءًا أصفر كهرمانيًّا. مسستُ شعري فالتمعتْ راحة يدي. لكن الهواء كان لطيفًا على نحوٍ رائع، ولم أشعر بالحاجة لأن أزرر سترتي. الأشجار والزروع، المتفتحة بأواخر الصيف، أطلقت عطرها. كنتُ وحدي. الشوارع مهجورة. نظرتُ لأرى الوقت ـ نحو الساعة التي لبسها أبي لآخر مرة في هذه المدينة ذاتها. كانت الحادية عشرة والنصف مساءً. لقد كنتُ أسير على مدى ساعات. وحين نظرت إلى البنايات الحجرية الباهتة في الليل شعرتُ برغبةٍ جارفة أن أسكن في إحدى غرفها. أن أمارس الحب وأن آكل وأتنفس وأنام بداخلها، أن أتشاجر وأن أقدم الوعود، أن أجلس مع أصدقاء ونتسامر في الليل، أن أستمع للموسيقى، أن أقرأ كتابًا، أن أكتب رسالة، أن أفكر في مكان أضعُ فيه غرضًا جديدًا، أن أشاهد الأزهار في مزهرية قصيرة، أشاهدها في أوقاتٍ مختلفة من اليوم، أن أقصّ أطراف سيقانها وأجدّد ماءها يوميًّا، أن أنقلها بعيدًا عن ضوءٍ قاسٍ، أو عن ممرٍّ مُعرض لتيارات الهواء، أن أمدّ في أعمارها. في تلك اللحظة سمعتُ رجلًا يناديني. كم كان غريبًا أن أسمع اسمي يتردد في الشارع الفارغ، ثم قعقعة حوافر. استدرتُ متوقعًا رؤية جواد يقترب بصدرٍ ممتلئ نامي العضلات. لكنني كنتُ مخطئًا. كانت أصوات خطوات أقدام، لشخصين، أحدهما كان السيد «هاس». لو كان بمفرده لتعرّفت عليه في وقت

أسرع. بدا أكثر استرخاء بكثير مما كان عليه حين رأيتُه في مكتبه في وقت سابق من اليوم نفسه. سقطت على جبينه خصلة شعر فضي، وقد شبك ذراعه بذراع امرأة. كانت ترتدي نفس الجيبة الضيقة المستقيمة. حين أدركت من تكون عدتُ خطوةً للخلف. أحسستُ كأن كل الهواء قد انسحب من رئتيّ. لم أستطع التكلم.

مدت «بياتريس بينامیور» يدها نحوي.

«أنا آسفة للغاية»، قالت ثم توقفت قليلًا، «لكن يسرني أن ألتقي بك، أخيرًا». وضعتْ يدها الأخرى فوق يدي.

نعم، كانت هناك دموع بلا ريب.

واصلت تقول: «رأيتُك بالأمس في المقهى، لكنني لم أكن أعرف مَن تكون. والآن يخبرني «تشارلي»...».

ضحك «هاس»، قائلًا: «لقد أخطأت الظن، واعتقدت أنك..».

نزعتْ ذراعها من ذراعه مما جعله يتوقف.

مستْ ما تحت عينيها بقطعة منديل ورقي مُطبق إلى مربعٍ صغير.

قالت: «أيمكن أن نسير معًا؟ أعيش في الشارع التالي مباشرةً. لا بد أن لديك الكثير من الأسئلة».

وسرنا، هي على جانب، وأنا على الآخر، والسيد «هاس» في الوسط. كان هناك الكثير من الأشياء التي أريد أن أسأل عنها؛ أشياء كثيرة للغاية كانت بلا إجابة لدرجة أنني شعرت بذعر مفاجئ رهيب.

وصلنا بنايتها؛ تلك التي بتمثالين لكيوبيد. أردتُ أن أسألها الآن: لماذا لم تفتح حين قام «هاس» بإحضاري أنا ومُنى حتى بابها قبل كل تلك السنوات. أردتُ أن أعرف إن كانت حقًا بالداخل طوال هذا الوقت، ربما على الأرض وراء الأريكة، مغمضة عينيها بشدة في كل مرة يضغط فيها «هاس» الجهاز الطنان بصوته العالي.

تصافحنا، ومن جديد وضعت يدها الأخرى فوق يدي. أدركتُ أنها التقطت هذه العادة العربية من أبي دون شك.

قالت: «رجاءً أن تصعد، لقد أردتُ دائمًا أن..».

الآن وقد جاءتْ أخيرًا اللحظة التي طالما تُقتُ إليها، لم أستطع التحدث.

في الصمت الذي تلا ذلكَ نظر «هاس» إليها. ثم أومأ بجدية.

قال: «سيكون هناك وقت آخر، إنك لن تغادر سريعًا، أليس كذلك؟». وحين لم أجب، قال: «جيد».

تبعها، وهو ما أدهشني، ورغم أنهما كانا يسيران ذراعًا في ذراع، كنتُ واثقًا أنهما ليسا عاشقَيْن.

لم أطق الافتراق، جررتُ نفسي بالقوة لأعود إلى الفندق.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الحادي والثلاثون

في الصباح اتصلتُ بمكتب «هاس». وضعتني سكرتيرته على الانتظار لوقتٍ طويل، ثم عادت لتقول: «أنا آسفة، سأجعله يتصل بك فورًا». بقيتُ بجانب الهاتف، تتسارع نبضات قلبي كلما سمعتُ رنين الهاتف بالطابق الأرضي، ثم موظف الاستقبال يقول: فندق «إيدن، بونجور». بعد ثلث ساعة اتصل بي. تركتُ الهاتف يرن ثلاث مرات قبل أن أجيب.

«لا بدّ أن نتحدث. لا بدّ أن أفسّر لك. سآتي إليك. أيمكننا أن نلتقي بعد عشر دقائق؟».

بعد رُبع ساعة كان يقطع ردهة استقبال الفندق.

قال: «تفضل»، ويده تستريح على ظهري ما بين كتفيّ بينما ندخل الحجرة نفسها من الباب الدوّار.

ما هي إلا خطوات قليلة وتوقفتُ.

«منذ متى كنت تعرفها؟».

أمسك مرفقي بخفة وقال: «هيا بنا».

فسألته رافضًا أن أتحرك: «قبل أم بعد الاختفاء؟».

قال بنبرة هادئة نادمة: «قبل، أرجوك، هيّا، سوف أفسّر لك كل شيء».

أخذني إلى المقهى الذي رأيت فيه «بياتريس» أول مرة. حيّاه النادل ثم أدام النظر إليّ أكثر من اللازم قليلًا، قبل أن يقودنا إلى مائدة بجانب النافذة المطلة على الشارع. مرّ «هاس» بإصبع طويلة نحيفة حول ياقته.

«لم أكن أعتزم أن تلتقي بها على هذا النحو».

تزحزح إلى حافة المقعد ونظر نحو يديه.

قلتُ: «لقد كذبت علينا».

وبدلًا من أن يحتج قال: «نعم، كذبت. لكن بدافع الشفقة. كان هذا سيكون أكثر مما يجب».

«أنا لا أفهم. وماذا كنت تقصد بالأمس حين قلتَ إنها أخطأت الظن بي؟ من تكون هي؟ وكيف تعرفها؟ وإذا كنت تعرفها، لماذا لم تخبرني أو تخبر مُنى؟».

«الحقيقة أنني أيضًا أخطأت الظن. لقد أسأتُ فهم الموقف كله. لقد كنتُ في غاية القلق منذ يومين سابقين حين مرّت بي لتخبرني بأن هناك رجلًا مثيرًا للريبة بالمقهى، رجلًا يبدو عربيًّا يتظاهر بالقراءة في صحيفة. فسألتها: «هل تعقبك؟»، فقالت:

«نعم»، وهكذا، في اليوم التالي، أخبرها النادل أن العربي عاد من جديد وبدا كأنه ينتظر حضورها. وقد حدث هذا مرة سابقة، تفهمني؟ وقد تركتْها التجربة... يعني، لقد كانت مهزوزة، مهزوزة تمامًا. من يُمكنه لومها؟ وقلقتُ عليها وعلى نفسي؛ يبدو كأن الأشخاص الذين أخذوا والدك لن يقفوا عند حد. حتى بعد أن زرتَ مكتبي بالأمس لم أربط بين الأمرين. ولكن كيف لي أن أعرف أن الرجل الذي صادفته كان أنت؟ وبالتالي قلتُ لها ألا تتردد على المقهى ثانيةً. وليلة أمس، حين رأيتنا معًا، كنت أوصلها للبيت».

ثمّ نظر «هاس» إلى يديه وابتسم ابتسامة مفعمة بالصدق والحنوّ.

«حين رأيناك لأول وهلة قبضتْ على ذراعي بشدة وقالت: «ذلك هو»، فضحكتُ. قلتُ لها: «ذلك ابنُ كمال»، ولم تستطع أن تتوقف عن النظر إليك. أرادت مني أن أقدمكما لأحدكما الآخر في التو والحال، لكني كما قلتُ لك لم أعتزم أن تلتقيا على هذا النحو. وهكذا أصرّتْ هي فتبعناك على بُعد مسافة. وعند نقطةٍ ما صرنا قريبين منك للغاية بحيث سمعناك تُحدث نفسك بصوتٍ خفيض. ولكن عندئذٍ بدا أنك تذكرتَ شيئًا ما، وشرعتَ تسير بسرعة وبعد شوارع قليلة فقدناك. ووجدناك مرة أخرى بالمصادفة، تقف وسط شارعٍ فارغ، تتطلع نحو البنايات. رأيتُ عينيها تمتلآن بالدموع وقالت: «إنه يبكي». وجذبتني باتجاهك».

بعد سماعي روايته هذه ساورني الاضطراب، وحاولتُ أن أنظر عبر النافذة.

قال: «أنا آسف أنه كان عليك أن تقابلها على ذلك النحو». وضحك ضحكة عصبية، «ولكن تخيّل أنها ظنتك..».

«ظنتني من؟».

فرك يده بشدة على فمه.

ـ «مسيو نوري، أنا واثق أنهم زاروك أنت أيضًا؟».

ـ «من هم؟».

ـ «هل تريد أن تقول لي إنه خلال كل تلك السنوات لم يأت أحد لرؤيتك؟».

ـ «بربك، من تقصد وما الذي قالوه لها؟».

أتى النادل لطاولتنا، فأمسك «هاس» عن الكلام قبل أن يجيب. أبقى النادل عينيه عليّ بينما يضع قدحَي القهوة على المائدة.

سأله «هاس»: « أتعلم من يكون هذا؟».

بدا القلق على وجه النادل.

فواصل «هاس»: «إنه ابن كمال باشا».

تغير وجه النادل. نظر إلى «هاس» مستوثقًا، ورفع «هاس» حاجبيه وأومأ. مدّ النادل يده فمددت له يدي.

قال النادل: «تشرفنا، تشرفنا».

قال «هاس»: «ابنه الوحيد»، كما لو كان يذكّر نفسه بهذه الحقيقة.

قال النادل: «كم هو غريب أن تأتي إلى المقهى ذاته، لقد أحسست به يا سيدي، أحسست بأثره في الهواء».

نظرت نحو «هاس»، ففسّر قائلًا: «كان والدك يأتي هنا كثيرًا».

«حقًّا؟».

فقال النادل: «نعم، كل صباح. كان يعيش قريبًا، كما تعلم، هو و..»

قاطعه «هاس»: «يكفي ذلك الآن».

«حسنٌ، على الرحب والسعة يا سيدي، مرحبًا بك حقًّا». قال النادل وصافحني من جديد.

بعد صمتٍ قصير تحدث السيد «هاس»:

«كنتُ أعرف «بياتريس» طوال حياتي. وصحيح أنني أخفيتُ ذلك عنك. ولكن كان لقاؤكما سيكون أمرًا بالغ الصعوبة عليها وعليك، وخصوصًا على مدام مُنى».

استند بظهره على كرسيه.

«كما ترى، أغلب الرجال يقضون حياتهم في محاولة فهم آبائهم».

كنتُ واثقًا أنه قد تدرب على النطق بهذا السطر الأخير؛ فقد بدا وكأنه انبعث من الفراغ.

ـ «في حالتي أنا، لم يكن هناك رجل أكثر غموضًا من أبي. كان من نوع عتيق الطراز. كان عطوفًا، ولكنه مُحافظ. تُوفي وأنا صغير. لكن لا أظن أن شعوري كان سيختلف لو كان مازال حيًّا».

ـ «أنا وأبي كنا قريبَيْن للغاية، بعضنا من بعض».

ـ «بالطبع كنتما كذلك».

رحت أتساءل كيف وصلنا إلى هذا الموضع؛ حيث يتظاهر بالتساهل مع أوهامي؟

واصل قائلًا: «لكن حقائق حياة أي رجل تخبرنا بأكثر مما يخبرنا به حضوره. لا بدّ أن أخبرك بشأن «بياتريس». إنك لا تعلم من كانت حقًّا أو ماذا كانت تعني لأبيك. وحين تعلم سوف تتفهم تصرفاتي».

«ما الذي كانت تفعله هناك، على أي حال؟ إنه شيء مُريب للغاية، وما يجعله أكثر إثارة للريبة حقيقة أنك كذبتَ علينا».

التفت «هاس» إليّ بنظرة جادة.

قال: «لا بدّ أن تتحدث إليها، فقد مضى ما يكفي من الوقت. كانت تعني الكثير بالنسبة لأبيك ولا صلة لها باختفائه. وقد عانتْ معاناةً عميقة، في صمت، منذ أن حدث ذلك».

ثم قال بعد برهة صمت طويلة: «ما ذلك الذي يجعل بعض الرجال غير متوائمين مع الحياة الزوجية؟ إنها راحة بالنسبة للبعض، وسجن للبعض الآخر. ولماذا يكتفي البعض بامرأة واحدة بينما آخرون لا يكتفون؟ تلك أسئلة غبية».

ـ «يُطمئنني أنك تعتقد ذلك».

ـ «لكن الحقيقة أن والدك كانت له عشيقات. ومع ذلك، فقد كانت الأمور أكثر تعقيدًا مع «بياتريس». يمكنني القول دون أدنى شك إن والدك قد أحبها. وسأكون في غاية من الدهشة إذا تبين أنه لم يعد يحبها، لو كان لا يزال حيًّا. كان شيئًا عارمًا. وقد كانت لديهما معًا حياة هنا، في هذه المدينة، حياة تشبه أي حياة عادية لأي اثنين من الأزواج، حياة لم تكن تختلف كثيرًا، في ظني، عن الحياة التي كان يتقاسمها معك أنت ووالدتك في القاهرة».

كأنّ أسرابًا من النمل ترعى فوق جسدي كله الآن. أردتُ أن أنصرف. لكنه حينئذٍ استأنف الحديث:

«ثمة شيء يحدث بين رجل وامرأة ولا يمكن لأي شخص أن ينفذ إليه». تطلع للخارج نحو الشارع. «إنه سر حتى هما قد لا يطلعان عليه أبدًا. ها هي آتية». قال وتتبعنا نحن الاثنين «بياتريس» وهي تعبر الطريق. همس قائلًا: «كُن رقيقًا»، فوجدتني أجيبه هامسًا: «لا تقلق».

* * *

دخلت «بياتريس بينامیور» إلى المقهى وجلست بجوار «هاس».

قال، وهو ينهض: «سأترككما تتحدثان».

قالت: «ألا يمكنك أن تبقى؟».

ابتسم لها بطريقةٍ حسبتُ أنه يدخرها فقط لهؤلاء الأكثر قربًا وحميميةً إليه.

راقبناه يغادر. لوّح لنا بينما يمر بنا.

ـ «إنه رجل جيّد. يحمي من حوله إلى أقصى حد. حتى منذ أن كنا أطفالًا وهو هكذا. ألم يخبرك أننا أبناء عمومة».

ـ «فهمت».

هناك لحظةٌ ما يرى فيها الظبي صياده ويعرفه. هكذا كانت تنظر إليّ «بياتريس بينياميور» الآن. تعرّفتُ فيها على جُزءٍ مِني. لقد كنا الناجين، هؤلاء المكتوب عليهم أن يُتركوا. نظرتْ بعيدًا، وتفحصتُ ملامحها. رسمَ الزمن خطوطه على وجهٍ كان لا يزال جميلًا دون أي شك. رحتُ أتخيل كيف قد يبدوان هي وأبي الآن جالسَيْن جنبًا إلى جنب، يتقدمان في العمر في مدينةٍ يمكن للإنسان فيها أن يطمئن إلى أشياء كثيرة بلا تفكير.

قالت: «لا يمر عليّ يومٌ واحد دون أن أفكر فيه، لقد تسرب من بين أصابعي. أشعر بالمسئولية، كما لو أنني قد أضعتُه».

كانت أسناني تصطك فعضضتُ على نواجذي بشدة. أكانت هي أول شخص اتصل به أبي يوم ماتت أمي؟ كنت سأسامحه على ذلك. تساءلتُ ماذا كان أبي بالنسبة لها، وبأي اسمٍ كانت تناديه، وهل كان لكلٍّ منهما اسم تدليل يخصهما فقط.

قلتُ: «في عقلي، لا أتصوره أبدًا كاملًا. لشدة قربي منه على الدوام ليس بوسعي استيعابه كما يجب».

ثم ساد صمتٌ طويل، وشعرتُ أنني تحدثتُ أكثر من اللازم.

«دخلوا بهدوء شديد بينما كنا نائميْن. مازلتُ لا أدري كيف أمكنهم اقتحام البيت دون إصدار أي صوت. إن نومي خفيف، واعتاد والدك أن يشاكسني لهذا، قائلًا إن سحابة تمر على قمر مُكتمل يمكنها أن توقظني. حين استيقظتُ كانا هناك، اثنان يقفان عند طرف الفراش. لم أستطع أن أرى وجهيهما لأن ضوء القمر كان يتدفق من النافذة التي خلفهما. البطء الذي حدث به الأمر. استدرتُ لأوقظ كمال، ولكنه كان صاحيًا بالفعل. أتذكرُ أنني فكرتُ: كيف علم أنهم سيأتون؟ كان جالسًا في الفراش ويبدو كما لو كان ينتظر. حاولتُ أن أصرخ لكني لم أستطع. وصار بوسعي في تلك اللحظة أن أميزهما: رجل يرتدي بدلة، مبتسم تقريبًا، وبجانبه تقفُ امرأة. بدت المرأة مذعورة، متوترة حقًّا، وكانت تصيحُ في رفيقها، أمّا هو من ناحيته فقد بدا وأنه قام بهذا مرات عديدة سابقًا. قال الرجل شيئًا بالعربية فبدأ كمال يرتدي ثيابه. بدأت أصيح، لكن لم يهتز لصياحي أيٌّ منهما، ولا حتى كمال. أخرجت المرأة مسدسًا مزودًا بكاتم للصوت فتوقفت. كانت يداها ترتعشان، أتذكر ذلك. أمسكا به، كلٌّ من ذراع وسارا به للخارج. لم يُبعد عينيه عني. مازلت أرى وجهه، ملتفتًا للوراء. أراه في أحلامي، وأراه في صحوي. رحت أسير جيئة وذهابًا في الغرفة، لم أدر ماذا عساي أن أفعل. ثم اتصلتُ بـ«تشارلي»؛ كان كمال قد قال لي إذا حدث أي شيء ينبغي عليّ أن أتصل بـ«تشارلي» أولًا. طلب مني أن أنتظر لعشرين دقيقة قبل

أن أتصل بالشرطة. وحين سألته عن السبب، فكرر عليّ فقط أنني لا بدّ أن أنتظر هذه الفترة على الأقل. وفهمتُ الأمر حين وصل إلى المنزل صحفي من أصدقائه قبل أن تصل الشرطة بخمس دقائق. كانت فكرة «تشارلي» أنه كلما ركزت تغطية الإعلام على الاختطاف من الناحية السياسية ـ بأن وزيرًا سابقًا ومعارضًا بارزًا تم خطفه على أرضٍ سويسرية ـ زادت الفرصة في العثور على كمال. بالطبع لم أرد أن نجذب اهتمام صحف الفضائح، ولكن كنت مسرورة للقيام بهذا، لأنه إذا وصلت الشرطة هناك أولًا لتم طمس الأمر كله في دقيقةٍ واحدة». وبعد صمتٍ وجيز، سألتني: «ما الذي تعتقد أنه حدث لأبيك؟».

لم أدرِ كيف أجيب. الحقيقة أنني لا أعتقد أن أبي قد مات، ولكنني لا أعتقد أنه حيّ كذلك.

أخرجت صورة فوتوغرافية من حقيبة يدها ووضعتها أمامي. أبي يقف على ناصية رصيف، ومن خلفه ينحدر بحدة الشارع المعبّد بالحجارة، ثم ينحني جهة اليمين. ذراعاه متدليتان بعيدًا عن جذعه قليلًا، وقد شمّر كميه. في عينيه لمحةُ ارتباك. كانت عيناه تعرفان. والوجنتان أيضًا كانتا تعرفان: كانتا غائرتين وداكنتين قليلًا. وفي جيب القميص هناك طرف قلم جاف رخيص. يبدو مثل مُعلم مدرسة. يبدو محترسًا، متأهبًا.

«إنه «بلاس دو بورج دو فور»، في اليوم السابق لما حدث» قالت، ونظرت إليّ. «كنا نتمشى، وفكرت أنه يجب عليّ أن آخذ

صورة. أمرٌ غريب، لأنني لم أكن أبدًا من النوع الذي يحب التقاط الصور كثيرًا. ولكن كان في ذلك اليوم شيء خاص غير مفهوم، شيء يمكنك أن تشعر به وهو يمر، شيء يمكنك الاحتفاظ به». قالت، ثم ظهرت دموعها.

أمسكتُ إحدى يديها.

«يجب ألا أبكي. خسارتك أكبر بكثير».

أردتُ أن أسأل بشأن الدم على الوسادة، وعن الأباجورة المهشمة، وعن العلامات التي تنمّ عن المقاومة التي وردت في «لا تربيون دو جينيف». ولكن عندئذٍ، تطلعت هي خلال النافذة، وقالتْ: «أنا أكره هذه المدينة، وكل ما تجمَّع عليها من رَوث».

الفصل الثاني والثلاثون

في الأصيل من ذلك اليوم نفسه حددتُ الموقع من شارع «بلاس دو بورج دو فور» ووقفتُ مواجهًا الناحية ذاتها التي واجهها أبي، باتجاه وميض الكاميرا التي أطلت على شارع «سانت ليجير». فكرتُ ربما ينبغي عليّ أن أطلب من أحد العابرين أن يلتقط صورة لي في البقعة نفسها. لن يكون لديه سبب ليشك في وجود أي شيء غريب. بعد ربع ساعة أعدتُ الكاميرا إلى مكانها وواصلتُ السير.

كانت «بياتريس» قد أعطتني رقمها، ولكني تساءلتُ ألن تكون محادثة أخرى بعد ساعتين فقط من لقائنا في المقهى أكثر من المحتمل لكلينا. توقفت عند هاتفٍ عام، وطلبتُ رقمها دون أن أعرف ماذا سأقول. ردّت.

«هل يمكنني المرور بكِ؟»، وحين لم تجبني، قلتُ: «أريد أن أرى أين حدث ما حدث؟».

«بالطبع».

ضغطتُ الجهاز الطنان، وأجابت على الفور. واقفًا أمام الشقة، سمعتُ قدميها الخفيفتين تكادان تجريان نحو الباب، فتحته وتنحت جانبًا. شممتُ عطرًا. أشارت نحو المطبخ، حيث فُرشتْ صحيفة على مائدة مستطيلة بجانب الجدار، وبجوار الصحيفة قدحٌ فيه شيءٌ ينبعث منه البخار. تخللت الشمس الأوراق المصفرة للشجرة التي امتدت فروعها فوق النافذة. حين رأتني مترددًا، قالت: «متأكد من أنك تريد هذا؟».

«نعم».

تبعتها إلى غرفة النوم. إنها النافذة ذاتها. درتُ حول الفراش إلى الموضع الذي تخيلتُ دائمًا أنه كان فيه حين وقع الأمر. ضغطتُ بيدي على حشية الفراش. جلستُ، وظهري لها. لم يكن الكومودينو المجاور للفراش يحمل عليه أي شيء. وفوق رفٍّ على الحائط يقف كتابان منفردان، سيرة ذاتية لملكنا وتاريخ العرب لـ«فيليب حتّى». استلقيتُ وأنا مازلت بمعطفي وحذائيّ. وعندئذٍ فقط انتبهتُ أنها غادرت الغرفة. أحسستُ بجسدي يغوص في الفراش. كان السقف أبيض خالصًا بلا شائبة، لم يكن فيه صدعٌ أو بقعة أو حشرة أو نسْج عنكبوت. أغمضتُ عينيّ.

وجدتُ «بياتريس» في المطبخ، وأجفانها محمرة. نهضت حين رأتني وفردتْ يدًا باتجاه المقعد المقابل لها. جلستُ ولاحظتُ

الضوء الباهت يتسرب من خلال أوراق الشجر وراءها. لم تكن هناك حاجة للحديث.

* * *

بعد بضع دقائق تحدثتْ.

«كل شيء تراه اخترناه معًا. حين انتقلنا هنا أول الأمر أصر على أن نطلي الجدران بأنفسنا».

لم أستطع تخيّل أبي يقوم بهذا.

«كان في غاية الحماس: يختار الألوان، ويتعلم كيفية استخدام بكرة الطلاء. أضحكني كثيرًا».

نظرت إلى الجدران في أنحاء الغرفة.

«عشتُ معه بعض أرق وأجمل الأوقات. وتمنيتُ لو استمر هذا إلى الأبد».

بعد صمتٍ طال شعرتُ بالحاجة لأن أقول شيئًا طيبًا.

«قبل يومين رأيت رجلًا على وشك أن يغرق. كان ينزف من أنفه. كان يقاوم بكل ما فيه من قوة. كنت واثقًا أنه لن ينجو. غير أنه نجا».

حين نظرتُ إليها ابتسمتْ.

سألتني فجأة: «كيف حال زوجة أبيك؟».

فاجأني السؤال بقدر ما فاجأني جوابي الصريح:

ـ «صارت الأمور بيننا شديدة التعقيد».

ـ «عليك أن تكون رقيقًا معها. إن وضعها أكثر صعوبة. لا بدّ أنها تعرف أن والدك تزوجها من أجلك. دائمًا ما وَبّخ نفسه، متمنيًا لو أنه كان أبًا أفضل. كان يقول إنه يحبك كثيرًا جدًّا لدرجة أنه يتجمّد بالقرب منك. في البداية اعتقد أن مُنى ستكون ملائمة لك لأنه رأى كيف كان كلٌّ منكما مولعًا بالآخر».

* * *

في وقتٍ لاحق من ذلك اليوم اتصل بي «تشارلي هاس» في الفندق.

«سيّد نوري، لا بدّ أن أشكرك. لقد جعلتَ «بياتريس» سعيدة للمرة الأولى منذ زمنٍ طويل. أرجو حقًّا أن تبقى على اتصال».

الفصل الثالث والثلاثون

عدتُ إلى لندن وعلى الفور رغبتُ في رؤية مُنى. أخبرتها أنني كنتُ في جينيف وأن لديّ أخبارًا. كان «توبي» قد خسر وظيفته وانتقل للعيش معها. ألقت بمفاتيحها في حقيبة يدها وتبعتها إلى الخارج. سارت تسبقني بنصف خطوة، وحذاؤها طويل الرقبة يدقُّ بغضبٍ على الرصيف. جلسنا إلى مائدة صغيرة في ركنٍ معتم من الكافيتريا ذاتها؛ الـ«بريدج هاوس». استندت بظهرها للجدار. الضوء الصادر من ورائي جعل وجهها كقناعٍ أبيض.

ـ «قابلتُ بياتريس».

ـ «أوه، حقًّا؟ ما الذي اكتشفته؟ رباه، كان ينبغي أن تتصل. هل اعتقدت أنها كان لديها ما تخفيه؟ أتمنى لو أنني كنتُ هناك. لا بدّ أنهم دفعوا لها مبلغًا هائلًا من المال لتنام مع والدك».

لم أدرِ كيف أجيبها. بدا وكأنها لم تكن في الحقيقة تتحدث إليّ على الإطلاق. مجرد تفكير بصوت مسموع.

«كانا عاشقَيْن. ولزمنٍ طويل يا مُنى. كان يحبها. ولم تكن تلك الليلة وحسب. كانا معًا لسنوات».

بدت كأن وجهها قد تداعى. اختلج ركنا فمها، غير أنها لم تقل شيئًا. وفجأة أدركني شعور غريب بأنني أكاد أكون مُستمتعًا. لم أمانع في إخبارها، لقد أردتُ تقريبًا أن أرى إلى أي مدى يمكنني أن أدفعها. ثم بدا وكأنها تستجمع كل جزء من نفسها لتتحدث:

«آه، بالطبع قالت لك ذلك. لم تُرد أن تظهر كعاهرة أمام الابن الساحر لكمال باشا. هذا لا يُدهشني كثيرًا».

ومع كلمتها الأخيرة، اندفعت نتفٌ صغيرة من اللعاب في الهواء مثل كسرات من زجاجٍ مُحطم.

شعرتُ بأنني ملزمٌ بالدفاع عنها ـ عن المرأة التي أحبها أبي في الختام.

قلتُ: «لم تكن هكذا بالمرة».. وحين لم تتكلم شعرتُ أن بوسعي أن أتقدم أكثر. «من الواضح أنه أحبها. وكان طيبًا معها. لقد عرفَتْه أفضل مما عرفناه نحن».

قالت كمن يبصق: «اذهب وقل ذلك لنعيمة».

ـ «وما صلة نعيمة بأيٍّ من هذا؟».

ـ «آه، أرجوك، لا تقل لي إنك لم تشك أبدًا في ذلك. أعني، لا بدّ أنك نظرت إلى نفسك في المرآة وتساءلت... أعني، انظر إلى لون بشرتك، بربك. وكيف كانتْ دائمًا حريصة عليك لأقصى حد».

فكرتُ أن أجري. تذكرتُ كيف كانت نعيمة تأخذ مكان أمي إلى جانبي في الفراش كلما أصبتُ بمرض. وكيف ذات

مرة حين كنت محمومًا تنحّت أمي جانبًا لخطوة واحدة حين دخلت نعيمة الغرفة حابسةً أنفاسها. وفي المرة التالية التي تطلعتُ فيها كانت أمي قد انصرفت. وواجهتها بهذا الأمر. كانت ساعة متأخرة من المساء، وليس في السماء سوى حجاب خفيف من الضوء. رحت أثرثر وأدمدم بالكلام، فاحتضنتني وقالت: «أعرف، لقد انفطر قلبي أنا أيضًا. لكن يجب ألا نفكر في الأمر هكذا. إننا محظوظون جميعًا. لا بدّ أن نعتبر أنفسنا من المحظوظين». وأخذتْ تقبلني؛ خديّ ويديّ وجبيني. وكما هو الحال كثيرًا مع أمي، سواء بالطبيعة أو بالتعمّد التام، نجحت في أن تقود المحادثة بعيدًا عن الموضوعات المؤلمة. قامت واقفة، تؤدي نوعًا من الحركات المميزة لـ«تشارلي تشابلن»، وراحت تفتل شاربًا خفيًّا، وبدأت تُلقي بعض أبيات الجاحظ عن السلوك اللائق الذي لا بدّ على الرجل أن يبديه نحو حماره.

كرهتُ مُنى في تلك اللحظة. كرهتُ حقدها وغضبها وحزنها. كنتُ مصممًا على الاحتفاظ بهدوئي وتوازني. نظرتُ إليها. بدا الجلد المحيط بعنقها متقزحَ اللون في الضوء، وبدت شفتاها لمسة طائشة من فرشاة طلاء. أغمضتْ عينيها وضغطت بأطراف أناملها على عظْمة أنفها، ثم تنهدت، ولفتْ يدها مرة أخرى حول كأس شرابها، الذي كان كما هو عدا قطعة ثلجٍ شفافة في حجم عُملة معدنية أخذت تذوب. دون أن تشربَ

رشفةً واحدة، أفلتت الكأس وراحت تفرك يدها في فخذها. تساءلتُ إن كانت بحاجة إلى مال.

قلتُ بعد نوبة الصمت الطويلة: «إنني أشبه جد أبي، لهذا السبب أنا أكثر سُمرة».

لكن تلك الكلمات خلّفت وراءها شعورًا أجوف إلى حدٍّ يائس. رفعت عينيها إليّ دون أن تتكلم. قمت واقفًا. تناولت حقيبتها، وخرج كلانا من المكان إلى ضوء الأصيل الساطع.

قالت: «لا بدّ أن أذهب».

«وأنا أيضًا».

مشت مبتعدة، واستدرت ورحت أسير في الاتجاه الآخر. وما إن وصلت إلى الناصية حتى تقيأتُ على الرصيف. غشي الدمع عينيّ. توقفت سيدة عجوز معها كلب لتسألني إن كنت بخير. تمكنتُ من أن أومئ لها، فتابعت سيرها. كانت تلك هي آخر مرة رأيتُ فيها مُنى.

* * *

ذات ليلة، بعد ذلك بشهرين، وجدتُ نفسي واقفًا من جديد في المطر، على جانب القناة المقابل لشقتها، أتطلع نحو النافذة المضيئة. أحسستُ في داخلي نارًا، ولم يكن شيئًا حَسنًا. وسألتُ نفسي عمّا قد يُعينني فلم أجد جوابًا. ولا حتى امتلاكها سيكون عونًا لي. رأيتُ ظلها يمر على سقف غرفة نومها. عند ذلك عرفتُ أن عليّ مغادرة لندن.

الفصل الرابع والثلاثون

هبطت الطائرة في القاهرة مع طلوع النهار تمامًا. حين جلستُ في المقعد الخلفي من التاكسي أدهشني كم كان العنوان القديم حاضرًا على لساني: «٢١ شارع فيروز، الزمالك».. والشوارع الخالية تستيقظُ ملتمعةً بضبابٍ خفيف. عاودتني الذكريات. تذكرتُ كيف كانت أمي تسحب الفرشاة خلال شعرها، في تأنٍّ ونحو البعيد، كما يبعد أحدهم عنه أنباءً سيئة. ثم تذكرتُني واقفًا على ركبتيّ فوق فراشٍ بمقصورة على متن الباخرة «إيزيس» التي تشق طريقها قي مياه النيل وتتوغل في قلب القارة، أُمشطُ شعر مُنى. كل ما أحببته وكل ما فقدتُه كان هنا ذات يوم. والآن أصلُ إلى غياب، وقد رحل الجميع.

تتشابك الشوارع وتتفرع كلما دخلنا في قلب المدينة. كانت القاهرة قد اكتمل استيقاظها تقريبًا. حاولت ألا أسمح للأرصفة المكتظة وحارات السيارة الخانقة أن تسلبني سكينتي. بدا كما لو أن حقيقةً رهيبة قد أضاعت هدوء مدينة طفولتي، خلال الأحد عشر عامًا التي سافرتُ خلالها.

وها هي الشوارع المألوفة لحي الزمالك بجزيرته النهرية. جميعنا ـ أمي وأبي وحتى مُنى ـ كانوا في كل موضع أنظرُ إليه.

حين وصلنا شارع فيروز رأيتُ عم سمير، البوّاب، جالسًا على سلالم مدخل العمارة، متطلعًا للطريق وللنهر فيما وراءه. مرتْ بي نهارات في لندن كنتُ أستيقظُ متوترًا من احتمال وفاته أو انتقاله لمكانٍ آخر. كان شكلًا ثابتًا في منظرٍ صار مقفرًا. لم أخبره بقدومي، أردتُ أن أحتفظ بخيار الرجوع قائمًا. لم يتعرف عليّ حين خرجتُ من التاكسي وبدأت أُنزل حقيبتي. ولكن كيف يمكنه أن يتعرف على الصبي ذي الأربعة عشر عامًا الذي كنتُه في الرجل ذي الخمسة والعشرين عامًا الذي صرته؟ بدا أكبر عمرًا. ذبل عنقه العفيّ، ونتأت منه تفاحة آدم بصورة أكثر بروزًا، لكنها بدت هشّة مثل جمجمة طائر. ازدحم شاربه بشعيرات بيضاء متصلبة كأسلاك. بدا كما لو أن السنوات التي حشدتْ قواها من حوله قد صارت الآن رفقةً له وعزاء. نظر نحوي بنوعٍ من الفضول الحميد.

كنت قد تبادلت أقل قدر ممكن من المراسلات مع سمير خلال السنوات: دائمًا موجزة وتنشغل بصيانة وأجرة شقة العائلة. لم يكن بوسع الرجل أن يفك الخط، بتعبيرهم هنا، وهكذا كان يُملي رسائله القصيرة على ابنه جمال، الذي كان يكبرني بعامٍ واحد.

ما إن تعلم جمال كيف يقرأ ويكتب حتى أخرجه عم سمير من المدرسة ليجلس على الدكة الخشبية المتداعية في المدخل كثير الطرَاوة. أتذكر كيف كان جمال يجلس هناك، يراقبني بنوعٍ من الفضول الحاسد والمرتبك كلما كنت أنزل جريًا على السلالم لألحق بأتوبيس المدرسة، أو في ساعات آخر النهار، حين كنتُ أخرج ممسكًا بيد أمي لنتمشى معًا على الكورنيش. وكان يراقبني أيضًا حين كنت أعود من تدريب على ركوب الخيل أو التنس أو الكروكيه، وكان يربت على كتفي باضطراب ويناولني كرة أو سَوط ركوب سقط مني عفوًا في مدخل البناية.

كان عم سمير في رسائله دائمًا ما يستفسر، من خلال ابنه: «كيف حال صحتك يا نوري باشا؟ متى سنراك مرة أخرى؟»، ودائمًا ما كان يختم بعبارة: «لن ننسى والديك أبدًا». كان هذا السطر الأخير يُقرأ أحيانًا مثل اتهام لي، كأن غيابي خيانة لذكرى والديَّ. وفي أوقات أخرى كان مجرد مجاملة. ومع هذا فقد قابلتُ كل تلك الاستفسارات والاتهامات والمجاملات بتحفظٍ يساورني الندم عليه بمجرد أن أرسل رسالة أخرى. لكنني تجنبتُ الإحساس بالذنب بأن فكّرتُ أن تلك المراوغات ضرورية، بسبب القارئ الذي يقف بيننا، جمال. ولكن ها أنا ذا الآن، وها هو ذا، دون شخصٍ آخر فيما بيننا. وقفت على الرصيف، أنظر إليه. سار مقتربًا مني، تفحص وجهي ثم أحاطني بذراعيه. كانت

له رائحة جافة ونظيفة مثل أرضٍ محروثة. وضع يده الخشنة على وجنتي، ثم ربت على رأسي رغم أنني صرتُ الآن أطول منه قامة. رأيتُ دموعًا في عينيه الرماديتين.

قال: «يا دي البُشرى...يا دي الهنا!»، وصاح مناديًا: «جمال، تعالَ شوف مين اللي وصل! وحشتنا يا بيه. دلوقتي هترجع الأيام الحلوة. شوف كبرت إزاي».

لم أستطع التوقف عن الابتسام.

وقف جمال وراء أبيه. بدا أكثر احتراسًا، ولكن نظرة الحسد المتقد اختفت من عينيه. لا شك أنه تخلى عن آماله، واحدًا بعد الآخر.

تركتُ الأب وابنه يتنازعان حول مَن منهما سيحمل الحقيبة. أمسك جمال بمقبضها أولًا. أمره عم سمير: «وسّع يا وَله، أنا كنت مستني اليوم ده».

ـ «طيب وضهرك؟».

ـ «أجمد من ضهرك عشر مرات».

مكتبة
t.me/soramnqraa

* * *

بدا المصعد أصغر حجمًا. ضغطتُ رقم ثلاثة. لفّني الشعور بداخله كأنه شبكة صيّاد تحيط بي: أخيرًا كنتُ حيث يجب أن

أكون. وعلى كل حال، إذا ما عادَ أبي، إلى أي مكان آخر سيذهب غير البيت؟!

بداخل الشقة، وقفت عند النافذة وتطلعتُ نحو منظرٍ كان ذات يوم مألوفًا مثل صورتي في المرآة: منكب الجزيرة يدفع النهر فتنحني الضفة البعيدة انحناءً طفيفًا في اتفاق. كانت الريح قوية، وجلبتْ معها أصوات المدينة.

«لو كنت بلّغتنا قبلها... مافيش فايدة من إننا ننضف شقة ماحدش بيستخدمها، مش كده ولا إيه يا نوري باشا؟». ترك عم سمير الحقيبة، ووضع يده على أسفل ظهره. «مش قادر أصدق عينيا. أنت فرّحت قلوبنا والله يا باشا».

شكرته.

قال: «نعيمة هتفرح قوي. مايفوتش شهر واحد والله العظيم إلا وتعدي تسأل عنكم. في الأول كانت بتعدي كل يوم والتاني. بِنيّة غلبانة، عمرها ما ثبتت قدمها في مَطرح».

ـ «وهي فين دلوقتي؟».

ـ «ما استقرتش ف مطرح يا باشا. كل كام شهر تنقل عند عيلة تانية». نظر إلى حقيبتي: «هي دي كل شنطك؟ أحطها لك في أوضة النوم؟ خايف تكون ناوي تفارقنا تاني قريب؟».

قلتُ: «لأ، مش ناوي. بقية حاجاتي توصل الأسبوع ده. هانزل ف فندق لحد ما توصل».

«أخبار هايلة. هاخلّي الشقة تبرق وتلمع. وأنا كلي سرور يا باشا، والله وأنا كلي سرور». التقط الحقيبة. «هاوقف لك تاكسي. أحسن عربية في مصر كلها».

انصرف، وبعد دقائق تبعته. قلت، وأنا أدخل السيارة الأجرة: «هاشوفك كمان أسبوع».

كرر عم سمير: «كل شيء هيكون تمام»، وقف جمال من ورائه. ولم أتذكر إلا بعد أن انطلق التاكسي أنني كان عليّ أن أعطيه بعض النقود. ولكنني شعرت بالحرج من أن أرجع.

سألني السائق: «على فين؟».

لم أكن أستطيع تذكُّر إلا اسم فندق واحد:

ـ «ماجدة مارينا».

ـ «وده فين ده؟».

ـ «شاطئ العجمي».

ضحك السائق، ولكن حين رأى في المرآة الداخلية أنني لا أمزح، قال: «بس ده ف إسكندرية».

وبدأنا رحلة الثلاث ساعات. وللمرة الأولى منذ سنوات كنت رائق النفس.

الفصل الخامس والثلاثون

معجزةٌ أن أُفلحَ في تتبع خطواتي عائدًا إلى حيث كنت، ومعجزةٌ أخرى بقاء «ماجدة مارينا» رغم عملية التطوير التي لا تلين والتي ألمّت بالمنطقة. الطراز المعماري الخاص بالفندق، معمار جنوبي البحر المتوسط خلال ستينيات القرن العشرين، والذي كان يبدو تفاؤليًّا لدرجة السذاجة، يصدمني الآن كشيء عتيق الطراز بأناقة. ممرات النجيل المجزوز نفسها والتي تتلوى من حول الغرف الأسمنتية المربعة نفسها ذات الواجهات الزجاجية. البلاط الأندلسي المقلّد نفسه حول حمّام السباحة المستطيل. عثرتُ على النخلة التي جلست عندها قبل كل تلك السنوات. اتسع جذعها، وصار الرأس أعلى من أن يكون لظله أي أثر. كان الفصل خريفًا، ويكاد الفندق يكون خاليًا. لم أستطع أن أتذكر رقم غرفتنا القديمة، والغرفة التي اعتدتُ الإقامة فيها أنا وأبي، وهكذا قادني موظف الاستقبال إلى حمّام السباحة حيث صار بوسعي من هناك أن أحددها.

ـ «لكن تلك غرفة مزدوجة!».

ـ «أعرف».

سألني ونحن عائدَيْن: «هل أقمتَ فيها من قبل؟».

ـ «حين كنت صبيًّا. منذ سنين كثيرة».

ابتسم لي.

عندما أنهيت إجراءات التسجيل، اقترب خادم الفندق، الذي كان ينتظر بجانبنا في لهفة، وقادني إلى الغرفة. سار بخطوات سريعة قصيرة أوحت بأن حقيبتي كانت أثقل بكثير مما هي عليه.

أفرغت الحقيبة وذهبت فورًا إلى البحر. سبحتُ بعيدًا حتى لم يعد بوسعي رؤية الأرض، طفوتُ في السكون المطمئن. كان الماء ساجيًا ووديعًا للغاية حتى إنني لم أكن واثقًا تمامًا من اتجاه العودة. وفجأة أحسستُ كم كان الماء باردًا. بدأت أسبح، ووجهي تحت الماء، محاولًا ألا أتوتر كثيرًا. وبعد بضع ضربات نظرت للأعلى فاستطعتُ رؤية خيط الأرض؛ شريحة رفيعة من الأرض تعلو وتهبط، هناك في الأفق.

* * *

بعد الغداء اتصلتُ بعم سمير.

قال: «مالهاش نصيب تشوفك».

ـ «مين؟».

ـ «نعيمة يا باشا، نعيمة. سبحان الله. عدّت علينا بعد ما انت مشيت على طول. شوف الصُّدف! لقتنا بنضّف الشقة. قلت لها: «نوري باشا رجع». ما صدقتنيش. جمال اللي خلّاها تصدق».

«وهي فين دلوقتي؟».

فقال وهو يضحك: «بتنضف الشقة. طردتنا منها احنا الاتنين. ما انت عارفها».

رقدتُ في الغرفة، بجوها اللطيف، على الفراش الذي كان ينام عليه أبي، ورحت أتصفح جريدة، وأنا أُميلها قليلًا ناحية مصباح الفراش، تمامًا كما كان يفعل.

* * *

كانت الأيام القليلة التالية على المنوال نفسه تقريبًا. ظلّت لهفتي على البحر كما هي، كنت آكل جيدًا، بل وصار نومي أفضل. ولكني بمرور الأيام بدأت أشتاق للعودة إلى شقة القاهرة ولرؤية نعيمة مرةً أخرى. عندما حان يوم عودتي شعرتُ بقلقٍ حاد. وحين دخل التاكسي في المرور الكثيف لشوارع المدينة تحوّل القلق إلى تلهفٍ وإثارة.

وجدتُ الشقة نظيفة، كلا الفراشين مُعدان، وصدمتني رائحة الطعام الذي اعتدتُ على تناوله طفلًا. تم تركيب أرفف جديدة في الردهة، وقد أُخرجت كتبي من الحقائب وصُفّتْ عليها في نظام. كثيرٌ من كعوب الكتب وضعت مقلوبة رأسًا على عقب.

قال عم سمير: «نعيمة راحت السوق. هترجع على طول. الدنيا مش سايعاها م الفرحة يا باشا. طبخت لك وليمة. الأكل اللي بتحبه: محشي ورق العنب. شفت احنا فاكرين إزاي؟».

حاولتُ أن أتجاهل كيف كان قلبي يخفق في عنف.

لم أعرف لكم من الوقت كانت تقف هناك. بدتْ أكبر سنًّا، تعلقت الدموع بجفونها مثل ماسات. احتضنتها، فقبلت يدي ظاهرها وباطنها، وجذبتني للأسفل حتى تقبل جبيني. لم أستطع منع نفسي من الابتسام. حين رأت وجهي، غاصت في صدري وراحت تبكي بكاء صامتًا.

عم سمير أيضًا كان دامع العينين، يضرب كفًّا بكف وهو يردد: «ربنا كريم، ربنا كريم!».

وقفَ جمال على جانب، ويداه معقودتان وراء ظهره.

لقد عدتُ للبيت لأجد الخدم.

أصررتُ على أن يأكلوا معي. قال جمال إن هذا غير ممكن. نظر عم سمير إليه كما لو كان يأمل أن يكون ابنه مخطئًا.

قلتُ: «يعني وبعدين؟ عايزيني آكل لوحدي؟».

جلسوا معي ولم يأكلوا إلا قليلًا.

حين انصرف عم سمير وجمال وبقيتُ أنا ونعيمة وحدنا اكتسبَ الصمت سمةً جديدة. في كل مرة كانت تنتهي من سؤالي إن كنت أريد شايًا أو قهوة أو ماذا أحب أن آكل غدًا على الإفطار

والغداء والعشاء، وأي الأصناف التي أشتاق إليها أكثر ـ «فاكر الملوخية بتاعتي؟ كنت بتحب الملوخية بتاعتي مع الحمام المحشي» ـ وبعد كل جوابٍ أرد به، في كل مرة يبدو وكأنّ كلًّا منا يعود من جديد ببطء إلى سلسلة أفكارنا الخاصة. ما عرفته ـ وكنتُ أفضل لو لم أعرفه ـ لا يمكن النطق به. كان من المستحيل تغيير تاريخنا المشترك، وأن نصير أمًّا وابنًا في نور النهار الصافي. ولم تكن هذه الاستحالة عقبةً ـ بل بالأحرى كانت رحمة.

قبل أن تذهب في مشوارها الطويل للبيت، أرتني ما الذي قامت به. بينما كنتُ في «ماجدة مارينا» رتبت جميع ثياب أبي بحيث صارت تشغل الآن نصف صوان ملابسه. وبدأت في إخراج ثيابي، علّقت بنطلوناتي وستراتي في مقابل بدله. ووضعت ملابسي الداخلية بجانب ملابسه، التي اصفرّت الآن. ووضعت كل جورب من جواربي، برقة من يغرس بذورًا، في مكانها بحانب جوارب أبي الحريرية المكوّرة مثل أحجارٍ سوداء.

وتلك الصورة الفوتوغرافية التي التقطتها أمي لنفسها، تلك كانت قد علقتها على جدار غرفة نومي قبل أيام فقط من وفاتها، كانت الآن قائمة على الكومودينو المجاور لفراش أبي. سرّني أن أتركها هناك.

لسببٍ ما افترضت نعيمة أنني سأشغل غرفة أبي، سأنام في فراشه. وهذا ما فعلته.

الفصل السادس والثلاثون

كانت نعيمة تأتي كل يوم. تجتهد في إعداد كل وجبة، وتطبخ ما يكفي لأسرة كاملة.

كانت تقول: «البركة بتزيد كل ما أكّلت الناس من خيرك».

كانت ترسل بقايا الوجبات لعم سمير والسائقين الذين يتباطئون بالأسفل.

كانت النوافذ تبرق والأرضيات تلمع.

سلة الغسيل لا تكاد تبيت ليلةً وهي ممتلئة. كانت تصر على غسل كل شيء بيديها، لأن «الهدوم اللي عليها صابون بتؤذي الجلد». كانت تجلس متربعة على بلاط الأرضية في غرفة الغسيل معدومة النوافذ، ويداها البائستان تفرك الثياب التي لبستها أول من أمس فقط، وتقول بأمومة فطرية: «ماليش دعوة باللي بتقوله. الغسّالة عمرها ما بتشطف كويس». كانت يداها تغطيها خرائط من ندوب شاحبة نتيجة لتقشر الجلد على مدار السنوات. اشتريتُ لها قفازين مطاطين، لكنها لم تضعهما أبدًا، حتى عند تبييض البياضات.

كانت تقول، ضاحكةً من اهتمامي: «أنت قعدت كتير ف بلاد برَّه».

كلما التفتُّ وجدت قميصًا مكويًّا لتوه، وأزراره تزحف نحو عنقي كأنها زرد درع قديم. وإذا تجرأت على أن أصب لنفسي كأس ماء أو حاولت أن أعد قدح شاي كانت تطردني من المطبخ فورًا.

* * *

ذات مساء، وبينما كانت تعد العشاء، وتكرر مقولتها: «مش هتصدق طبخت لك إيه؟»، دق جرس الباب مرتين، ببطء، مع فجوة طويلة ما بين الدقتين. لم أغادر غرفة مكتب أبي، والتي صارت ملجأً لي، وخصوصًا في أثناء ساعات المساء تلك. تناهى إليّ صوت نعيمة يرحب في حرارة، ثم الكلام الخفيض لصوت ذكوري عميق، وحين خرجت رأيتُ رجلًا يقف في مواجهتها، وظهره نحوي، مرتديًا بدلة أنيقة. استدار فرأيتُ الوجه الدمث المألوف لسائقنا القديم عبده. افترش الأبيض شعره المفلفل؛ ومع ذلك فإن وجهه النوبي كان كما هو إلى حدٍّ كبير.

قال لنعيمة بعد أن عانقني: «شفتي طلعتي محظوظة إزاي؟».

شبكتْ نعيمة يديها بشدة على بطنها، تغطي تلك البقعة الرطبة على الدوام فوق ثوبها؛ الموضع الذي يستند دومًا إلى حوض المطبخ. وابتسمتْ ابتسامة خجلى وبدتْ فخورة.

قال لها: «أقسم بالله إن ربنا بيحبك».، وواصل يقول: «آه، طبعًا». ثم نظر إلى نعيمة، وللوهلة الأولى لم أفهم مغزى تحديقه فيها. ولكن عندئذٍ فاضت عيناه بالدموع. قال: «مش أنا قلت لك إن كل شيء هينتهي على خير؟». وأمسكها من أذنها. «وتخليني أعرف الأخبار من الأغراب. ربنا يسامحك إنك داريتي الأخبار الحلوة دي عني».

اتسعتْ ابتسامتها إلى أقصى حد فبانت أسنانها البُنية. أخذته إلى غرفة المكتب. وقف قبالة الصور الفوتوغرافية المؤطرة والمتراصة على الرف، تلك التي كانت في مواضعها من قبل ذلك، والأخرى التي أضفتها منذ عودتي. تريث أمام كل صورة منها قبل أن ينتقل بخطواته جانبيًّا، قاطعًا الصمت بين الحين والآخر بعبارة: «حمدًا لله على سلامتك يا باشا».

رفض أن يأكل معي، ولم أكن أريده أن يغادر بعد.

قلت له: «تعرف، لسه مانزلتش وبصيت على العربية القديمة».

ضحك: «لسه محتفظ بيها؟ دي عربية ممتازة».

قلتُ: «ما تيجي ننزل نبص عليها»، وبعد ترددٍ طفيف نهض واقفًا.

كان الآن يعمل لصالح وزارة الخارجية.

وقال في تباهٍ: «بس أنا دلوقتي ع المعاش تقريبًا. همه بس بيتصلوا بيا لما يكون فيه زائر أجنبي كبير».

أومأتُ، وعيناي على العقدة الكبيرة لربطة عنقه. كان لونها بنفسجيًّا فاتحًا مع نقط بيضاء صغيرة للغاية.

حين صرنا بجوار السيارة، طنّ جهاز النداء الآلي الخاص به. وقف جانبًا موليًا ظهره لي. وبدأ عم سمير، الذي تبعنا للأسفل، ينزع غطاء السيارة الرمادي المغبر. التمع المعدن القديم حين حكّه براحة يده. كانت العجلات مُفرغة من الهواء تمامًا. جلستُ في المقعد الأمامي المجاور لمقعد السائق، حيث اعتاد أبي أن يجلس، وخصوصًا حين كان يخرج بها مع عبده وحدهما. الرائحة المألوفة للجلد جعلت السيارة وكأنها تحتفظ بداخلها بالذكرى حية. راقبتُ عبده. كان هناك شيء غير مريح في كيفية تجاوزه للمأساة سالمًا: بدلته الأنيقة، حذاؤه الأسود اللامع، وثقته بنفسه.

* * *

لزمنا شهرٌ كامل لإعادة توصيل خط التليفون القديم. اتصلتُ بطالب في باريس وتركت رسالة على جهاز الرد الآلي. اتصل بي بعدها وقال فورًا، دون أن يقول «هالو»: «عجيبٌ أن أطلب الرقم القديم من جديد».

حاول كلٌّ منا أن يضحك.

قلتُ له: «انتظر، هناك شخصٌ ما هنا يريد أن يتحدث إليك». وناولت الهاتف لنعيمة.

همست: «مين؟».

«طالب».

«طالب مين؟»، ثم تذكرت وأخذت السمّاعة.

راقبتها بينما وجهها يتبسّم ويحمر. راحت تخربش بظفر إبهامها مرارًا لتزيل بقعة صغيرة على نضد المطبخ.

حين استعدت الهاتف ظل طالب صامتًا أطول قليلًا مما يجب.

قال: «بارك الله فيك»، ثم توقف. «أنت شخص أصيل يا نوري». صار صوته أعمق جرسًا. ثم تغيّر من جديد، وهو يخبرني باتصالٍ تلقاه من مُنى. «كانت قلقة قلقًا فظيعًا. ولم تكن عندها أي فكرة أين اختفيتَ».

ـ «ماذا قلتَ لها؟».

ـ «ماذا تقصد بهذا؟ قلت لها إنك في مصر بالطبع. لا أستطيع أن أصدق أنك لم تخبرها بنفسك». وحين لم أرد قال: «لا بد أن تتصل بها».

لكنني لم أتصل بها.

بعد محادثتي مع طالب ببضعة أيام، دق الهاتف وسمعت نعيمة تقول: «والله العظيم وحشتينا يا مدام، وحشتي مصر بحالها، ولسه بتتكلمي عربي كويس ما شاء الله».

دسّت نعيمة رأسها من باب غرفة المكتب وتحدثت هامسة، رغم أن الهاتف بعيد جدًّا عند المطبخ: «مدام مُنى، بتتكلم من إنجلترا».

قلتُ: «قولي لها إني خرجت».

ترددتْ، ثم عادت إلى التليفون.

* * *

انتظرتُ أسبوعًا ثم اتصلتُ. ردّت بعد الجرس الأول، وبدلًا من أن تؤنبني على عدم إبلاغها بسفري، فوجئت منها بدفءٍ لم أعرفه عنها لسنوات عديدة.

قالت: «أنا سعيدة للغاية بسماع صوتك، كيف حال القاهرة؟ أرجوك احكِ لي. كان جميلًا أن أتحدث إلى نعيمة ذلك اليوم. بدت بخير حال، وكذلك أنت».

بعدها بيومين اتصلت.

ـ «كنتُ أفكر. ربما يمكنني زيارتك. مضى وقتٌ طويل».

ـ «نعم!». هكذا قلت، ملاحظًا في صوتي نبرة عدم الاكتراث.

ـ «في إجازة الكريسماس، ربما».

لم أرد.

ـ «هل ستكون هناك؟».

ـ «لستُ متأكدًا».

كنت مندهشًا كم بدت كسيرة الجناح من هذه المسافة البعيدة.

ظلت تتصل بين الحين والآخـر. كانت تعمل في متاجر «سيلفريدجز»، وكانت تقول أشياء مثل: «إنني أستمتع بالعمل. الناس لُطفاء».

بحلول نوفمبر بدأتْ تقترح مواعيد لزيارتها المحتملة. وأزعجها فقداني للحماس كما أزعجني أنا أيضًا. تزايدت الفجوات الفاصلة ما بين اتصالاتها حتى توقفت عن الاتصال تمامًا.

الفصل السابع والثلاثون

ذات مساء، بعد أن أنهت نعيمة عملها وغادرت، وجدتني أُخرج إحدى بدلات أبي. دفنتُ وجهي في السُّترة، ثم ارتديتُها. كانت ضيقة للغاية عند الصدر والكتفين. شعرت كأنها تضغط عليّ وتقلّصني. تدلى الكمان قصيران بدرجة رهيبة فوق الرسغين. لم أعلم أبدًا أن الثياب تنكمش إلى هذا الحد من قلة الاستعمال. ربما كانت البدلة تناسب الصبي ابن الأربع عشرة سنة الذي كنتُه حين رأيتُ أبي لآخر مرة، حين كان رأسي بالكاد يصل حتى كتفه. فردتُ ثيابه الداخلية. كانت يومًا بيضاء كالملح، والآن صارت مشوبة بدرجات متباينة من بُني فاتح كلون التبغ. الأساتك المطاطية التي أحاطت بوسطه ذات مرة قد اختفت الآن تمامًا، الشريط كان متصلبًا مثل لحم مجفف. والغرز المزدوجة التي تحيط بالعنق والذراعين لقمصانه القطنية قد انقطعت وتهدلت من قُطبها.

لم أستطع النوم.

رحتُ أجرب مزيدًا من ثيابه. البدلة الصوفية كانت على مقاسي، وإنْ بصعوبة وتصلّب. حين مددت ذراعيّ للأمام أمكنني أن أشعر بالقماش يتمدد قليلًا. فكرت أنني ربما إذا أكثرتُ من ارتدائها فسوف تعود تدريجيًّا لمقاسها الطبيعي مرة أخرى. وجدتُ معطف المطر الخاص به؛ ذلك الذي اعتاد أن يُعلقه وراء باب غرفة مكتبه. بدا وكأنه قد انكمش هو أيضًا، ولكني كنت قادرًا على إغلاق أزراره حتى أعلاها. وضعتُ يديّ في جيبَيْه. كان قد غفل عن إفراغهما. في أحد الجيبَيْن كان هناك منديل مجعّد، وفي الجيب مستطيل من أقراص روح النعناع بقي فيه نصفه. أعدتهما مكانهما. ربطت الحزام حول وسطي بالطريقة التي اعتادها. سوف يكون بحاجة إلى معطف مطر حين يعود. لعلّ هذا مازال مُلائمًا لجسده. أعدته إلى موضعه.

نوفمبر ٢٠١٠، لندن

مكتبة
t.me/soramnqraa

شكر وتقدير

أود أن أشكر كلًّا من هؤلاء الأشخاص: ماري ماونت، سوزان كامل، نواه إيكر، فينيشا باترفيلد، كيفين كونروي سكوت، زوي باجناميتا.

ديفورا باوم، آندريا كانوبيو، كيرين جيمس، بيتر هوبس، لي براكستن، كارول ساتيموراتي، تشارلز آرسين ـ هنري، حازم خاطر، آندرو فاس، روجر ليندن، جلال مبروك شمّام.

د. ميا جري، البروفيسور السيدة مارلين سترازرن، بيتر سباركس، وكلية جيرتون في جامعة كامبريدج. بياتريس مونتي ديلا كورتي من مؤسسة سانتا مادالينا. ثيا وروبن بندر وهابزيبا راندل ـ شورت.

إبراهيم المعلم، رحاب بسّام، محمد عبد النبي.

جاب الله حامد مطر، فوزية محمد تربح، زياد جاب الله مطر ومحمود عباس بدر.

وفي المقام الأول ديانا.

هـ. م

اختفاء

«هشام يعرف كيف يثير العواطف والكوامن؛ إنه يخلق تأثيره، سواء على الصفحة أو في جهازنا العصبي بأقل الكلمات وأدلها. لقد فُتِنْت.»

أهداف سويف

كان نوري صغيرًا عندما تُوفيت والدته، ولم يتخيل قط أن يستطيع أحد ملء الفراغ الذي خلفته.. حتى ظهرت مُنى. رآها نوري أولاً، قبل أن تتزوج والده ليعيش الثلاثة معًا وتتبدل حياتهم تمامًا.

يشعر نوري بالغيرة من حياة والده مع مُنى حتى يتمنى اختفاءه من حياته، قبل أن يتعرض والده بالفعل لعملية اختطاف ويختفي في ظروف غامضة.

بلغته الآسرة وأسلوبه الرشيق المرسوم بحساسية شاعر، يقدم الروائي الشهير هشام مطر-الحائز على جائزة بوليتزر- قصة أسرة عربية تعيش في مصر هربًا من طاغية متسائلاً عن كيفية مواصلة الإنسان للحياة بعد اختفاء أقرب أحبائه عنها.

هشام مطر؛ وُلِد في مدينة نيويورك لأبويْن ليبيَّين. قضى طفولته في طرابلس، ثم في القاهرة. نشر روايتيْن: «في بلد الرجال» و»اختفاء»، وسيرةً بعنوان «العودة.» وصلت «في بلد الرجال» إلى القائمة القصيرة لجائزة مان بوكر الدولية، وجائزة كتاب الجارديان الأول، وجائزة دائرة كِتاب المدن الوطنية في الولايات المتحدة الأمريكية، وحصدت ستَّ جوائز أدبية عالمية. كما فاز كتاب «العودة» بجائزة البولِتزر، وجائزة پن/ جين ستاين للكتاب، وجائزة فوليو، وأُدرِج في القائمة القصيرة لمجموعة من الجوائز بينها جائزة بيلي جيفرد. .

مكتبة
t.me/soramnqraa

دار الشروق
www.shorouk.com